جامعة مؤتة
عمادة الدِّراسات العليا

قصيدة المدح في الشّعر الشّاميّ زمن الحروب الصليبية

أسماء عودة الحولي

رسالة
مقدَّمة إلى
عمادة الدِّراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على
درجة الماجستير في الدِّراسات الأدبيّة في قسم اللغة العربيّة

جامعة مؤتة، 2004

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم(13)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة اسماء عودة الحولي بـــ:

"قصيدة المدح في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية"

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. شفيق الرقب		2004/7/28	مشرفاً ورئيساً
أ.د. أنور ابو سويلم		2004/7/28	عضواً
أ. د. رشدي الحسن		2004/7/28	عضواً
أ.د. جهاد المجالي		2004/7/28	عضواً

عميد الدراسات العليا

د. ذياب البداينـــة

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤتة – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الشكـــر والتقديـــر

وبعد أن منَّ الله علي بإتمام هذه الرسالة لا يسعني إلا أن أتقدم بعميق الشكر والعـــرفان للأســـتاذ الدكـــتور شفيق الرّقب، الذي كان لي منذ البداية خير المرشد والعـــون علـــى تحمل عناء هذه الرسالة، فقدّم لي الكثير من علمه الوافر، وقدم لي النّصيحة والعون، فله من الله كل الخير والعرفان.

كمـــا لا يفوتنـــي أن أتقـــدم بجزيل الشكر إلى أعضاء هيئة المناقشة: الأستاذ الدكـــتور رشـــدي الحسن، والأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم، والأستاذ الدكتور جهاد المجالي، لتفضلهم بقبول مناقشة الرسالة، وتحملهم عناء قرائتها وتقويمها، وأغناءها بوافر علمهم القيم، فلهم كل الشكر والامتنان.

أسماء عودة الحولي

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الشكر والتقدير	أ
فهرس المحتويات	ب
الملخص باللّغة العربيَّة.....	د
الملخص باللُّغة الإنجليزيَّة	هـ
الفصل الأول: قصيدة المدح والصراع مع الفرنجة	
1.1 المقدِّمة	1
2.1 العوامل السياسيَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة	2
3.1 قصيدة المدح والصراع مع الفرنجة	20
1.3.1 مواكبة قصيدة المدح لأحداث الصراع	21
2.3.1 تمجيد البطولة	30
3.3.1 دور الشَّعر في المواجهة	37
الفصل الثاني: المدح التقليدي	53
الفصل الثالث: صور أخرى من المدح	
1.3 المدائح النبويَّة	66
2.3 المدائح الإخوانيَّة	77
3. 3 المدح البلداني	85
الفصل الرابع: الدراسة الفنية	
1.4 البناء الهيكلي لقصيدة المدح	94
2.4 الأسلوب واللُّغة	109
3.4 الصورة الفنيَّة	120
الخاتمة	130
قائمة الهوامش	132
المراجع	162

الملخص

قصيدة المدح في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية

أسماء عودة الحولي

جامعة مؤتة، 2004

تهـدف الرسـالة إلى دراسة قصيدة المدح في الشّعر الشّامي زمن الحروب الصليبية، فقد كان لشعر المدح حضور واضح في الشعر الشامي، نتيجة لعدة عوامل من أهمها الصراع الّذي احتدم بين المسلمين والصليبيين آنذاك.

وجعلـت الرسـالة في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، عالج التمهيد المؤثرات السياسية والاجتماعية والفكرية التي أثرت في قصيدة المدح في الشّعر الشّامي.

تـناول الفصل الأول قصيدة المدح والصراع مع الفرنجة، أما الفصل الثاني فقـد تـناول المدح التقليدي لدراسة القصائد التي قيلت في مدح العظماء من الملوك والقادة، لبيان مدى ارتباط قصيدة المدح بحركة المجتمع الشامي.

وعالج الفصل الثالث صور أخرى من المدح، فتناول المدائح النبوية والمدائح الإخوانية والمدح البلداني.

بينما تحدث الفصل الرابع عن القضايا الفنية في قصيدة المدح من حيث البناء الهيكلي لقصيدة المدح، والأسلوب واللغة، والصورة الفنية.

وينتهي البحث بخاتمة تلخص أهم النتائج التي توصلت إليها الرسالة.

Abstract

Praise poem in the Syrian poetry at crusader war

Asma Odeh Al-Holee

Mutah university, 2004

This thesis aim is the studing of the praise poem in the Syrian poetry of the time of the crusader war, since the was a clear presence of the praise poem in the Syrian poetry and this was as a result of many factors one of which is the struggle between Moslems and crusader af that time.

This thesis is in an introduction and four chapters and a closure. The introduction deals with political social and intellectual effects that affects the praise poem in the Syrian poetry.

The first chapter deals with praise poem and struggle with poreigners, the second chapter deals with traditional praise that said in the praise of the greats leaders and kings and this in order to declare the relation between the praise poem and the Syrian society.

The third chapter deals with other aspects of praise since it deals with prophetic and brotherly and country praise.

The fourth chapter deals with artistical issues in the praise poem from the poem: structure, style and language and artistical picture.

This research ends with a closure that summarize the important results of this thesis.

الفصل الأول

قصيدة المدح والصراع مع الفرنجة

1.1 مقدمـــة

ازدهـــرت الحـــركة الأدبـــية في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبية ازدهاراً ملحوظـــاً، وقد تضافرت على ذلك مجموعة من العوامل وكان من أبرزها الصراع الّـــذي احـــتدم بين المسلمين والصليبيين آنذاك، وتعاظم الشعور الدينيّ في النفوس، وتشـــجيع الحكّـــام ورعايـــتهم للأدب والأدباء، لذا كثر الشعراء والكتّاب، وتنوّعت القضايا الّتي تناولها في أشعارهم وكتاباتهم.

وكان لشعر المدح حضور واضح في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبية، فقـــد تعـــدّدت اتجاهاتـــه، وتنوّعـــت قضاياه، واستجاب الشعراء المدّاحون لأحداث عصرهم، والمؤثّرات السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة المحيطة بهم، فجاء هذا الشعر معـــبراً فـــي كثـــير من جوانبه عن طبيعة العصر وهمومه، لذا فقد خُصِّصَت هذه الرســـالة لدراســـة (قصـــيدة المدح في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبية) من الناحيتين المضمونية والفنيّة.

وقد تنوّعت المصادر الّتي استقيتُ منها مادّة هذه الرسالة ويأتي على رأسها دواويـــن الشعراء الشّاميين، من مثل: ديوان ابن الخياط الدمشقي، وديوان ابن منير الطرابلســـي، وشـــعر ابـــن القيسرانيّ، وديوان ابن الدّهان الحمصيّ، وديوان فتيان الشـــاغوريّ، وديـــوان ابن السّاعاتيّ، منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصـــائص الملـــك الناصر، لعبد المنعم الجلياني، وهو مخطوط، وديوان ابن سوار الدمشقي وهو مخطوط، وديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح، لشهاب الدين الحلبي وهـــو مخطوط، ومن هذه المصادر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدســـيّ وهو ذو قيمة تاريخيه وأدبية كبيرة، وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعمـــاد الأصفهاني، وفيه تراجم الكثير من شعراء القرن السادس وقلائد الجمان في شـــعراء هـــذا الزمان لابن الشعار الموصلي وهو مخطوط، وفيه تراجم الكثير من شعراء القرن السابع.

وقــد اقتضــت طبيعة الدراسة أن تأخذ بالمنهج التاريخي في تتبع النصوص زمنــيّاً، ولا سيما في قصيدة المدح التي تعبّر عن الصّراع بين المسلمين والفرنجة، وتصــوّر تطوّر أحداثه، كما أخذت هذه الدراسة بجوانب من المنهج الاجتماعيّ في دراسة المدائح النبويّة والمدائح التقليدية لبيان مدى ارتباطها بحركة المجتمع الشامي آنذاك، وتعبيرها عن منظومة القيم الّتي كان سائدة فيه.

كمــا اعــتمدت الدراسة في فصولها جميعاً ولا سيما في الدراسة الفنية، على المــنهج الفنــي التحليليّ، لتقويم الأدوات الفنية الّتي عبر بها الشعراء عن مضامين مدائحهم.

وتقــع الدراســة فــي تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، أمّا التمهيد فقد خُصِّص للوقــوف عــند أبــرز المؤثرات السياسيّة والاجتماعية والثقافيّة الّتي وجّهت قصيدة المدح آنذاك.

وقــد كــان الفصل الأول بعنوان (قصيدة المدح والصراع مع الفرنجة) وأما الفصــل الثانــي فقــد كان بعنوان (المدح التقليديّ) ووسم الفصل الثالث بــ (صور أخــرى من المدح)، وقد تناول المدائح النبوية والمدائح الإخوانيّة، والمدح البلدانيّ. وخصــص الفصــل الرابع لدراسة العناصر الفنية في قصيدة المدح من حيث البناء الهيكلي للقصيدة والأسلوب واللغة والصورة الفنيّة.

1. 2 العوامل السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة

شــهدَتْ بــلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة صراعاً عنيفاً ما بين المسلمين والصليبيّن، فقد كانت بلاد الشّام في هذه الفترة تحت حكم الدولة السلجوقية، وفي ظلّ هــذه الفــترة كانت البلاد تعيش حالة من الاضطرابات الباطنية، الشديدة، فقد كانت الــبلاد تحــت حكم السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وفي ظله ربي قسيم الدولة آق سنقر[1]، ولم تتوقف الأحداث عند ذلك فقد توفي جلال الدولة ملكشاة ببغداد سنة 548 هــــ، ولــم يطل حكم آق سنقر، فسرعان ما احتل كل من تاج الدولة تتش صاحب دمشــق[2]، وجلال الدولة على السلطنة، مما أدى إلى قتل آق سنقر، وقد تمكن تتش مــن إمارة البلاد، ولكن ما لبثت بلاد الشّام أنْ اضطربت اضطراباً شديداً بعد مقتل

تـتش بـن ألـب أرسلان سنة 487، وبعد مقتله تولى أبناؤه الملك، فملك رضوان[3] حلب، وملك دقاق[4] دمشق.

وبعـد وفـاة دقاق صاحب دمشق، استقام أمر طغتكين[5] أخيه بدمشق واستبد بالأمر، وبث فيها العدل، وسرّ الناس به سروراً كثيراً[6].

وفي هذه الأثناء كان الفرنجة قد بدأوا يبسطون نفوذهم على معظم بلاد الشّام وتمكـنوا مـن إقامـة عـدة كيانات سياسيّة لهم في أنطاكيّة والرُّها وبيت المقدس وطـرابلس، وكان الفرنجة يقترفون المذابح الرهيبة في كلّ مدينة يحتلونها فقد قتلوا فـي المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، وأقيمت به إمارة وحاربت طرابلس سـنة 495هـ[7]، وعندما استولوا على طرابلس وبيروت، نهبوا ما فيها، وأسروا الرجال وسَبُوا النّساء والأطفال[8].

وبقيـت بلاد الشّام على هذا النّحو من الضعف والتناحر والانقسام حتّى يقول فـي ذلك عماد الدين زنكي[9]، الذي ظهر بعد وفاة أتابك[10] طغتكين فشرع في توحيد الـبلاد فيقول: "وقد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم يملك البلد أمير، ونؤمر بالتصرف علـى اختـياره وإرادته، فتارة نحن بالعراق، وتارة بالشام، وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة"[11].

لقـد كانـت ولاية عماد الدين زنكي إيذاناً بحركة بعث إسلامية[12]، فقد كانت جهـوده مُركـزةً في توحيد البلاد وتطهيرها من الفرنجة، فقد ملك عماد الدين حلب والموصـل والجزيـرة، وملـك مديـنة منبج وبُزاغة[13]، وقد خرج أهل حلب إليه واستبشروا بقدومه واستولى على البلاد[14].

وقـد استمرت حملته فتملك حماه، وسنة 524هـ، فتح حصن الأثارب وأخذه مـن الفرنج، وفي سنة 528هـ، ملك زنكي قلاع الأكراد الحميديّة، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرها[15].

وفـي إطار جهوده لتوحيد البلاد الإسلاميّة، تطلّع إلى ملك دمشق، وذلك قبل وفاة شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، بسبب أعمالـه الشـنيعة ومراسلاته زنكي ليتسلم دمشق قبل الفرنج، وبعد وفاته ملك أخوه

شـــهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري، فحاصر عماد الدين دمشق ثلاث مرات إلاّ أنّه لم ينجح في أخذها[16].

وفـــي سنة 530هـــ غزا عسكر الأتابكي زنكي، بلاد الفرنج على حين غفلة، وقصـــدوا أعمـــال اللاذقـــية بغـــتة، وقتلوا وأسروا مالا يحصى واغتنموا الشيء الكثـــير[17]، وقد استمر المسلمون في القتال حتى سنة 531هـــ، حتى فتحوا بارين[18] وفي أثنائها فتحوا المعرّة وكفر طاب[19].

وقد كان القسوس والرهبان الّذين دخلوا بلاد الروم والفرنج، قد حذروهم من المســـلمين إذا ملكوا قلعة بارين، وكأنهم قد ملكوا البلاد كلها وليس لهم همة إلاّ قصد البيت المقدس[20].

وقـــد استولى عماد الدين زنكي على حماه وحران ومنبج ونصبين، في حين استولى شمس الملوك صاحب دمشق على حماه وأخذها من عماد الدين[21]. وفي سنة 532هـــــ ملـــك زنكي حمص وغيرها من أعمال دمشق مثل حصن المجدل[22]، وقد اســـتطاع أتـــابك زنكي أن يتملك أكبرَ قدرٍ من البلاد والحصون التي تأمن له القدرة على التخلص من حالة الضعف والاستيلاء التي شهدتها بلاد الشّام ملك زنكي بعلبك، وبعدهـــا بعـــام 534هـــ حاصر زنكي دمشق فلما رأى معين الدين أنر أن زنكي لا يفارقهم راسل الفرنج، واستدعاهم إلى نصرته، فخوفهم إن ملك زنكي دمشق لم يبق لهـــم معه بالشّام مقام، وقد أعطى أنر بانياس للإفرنج لمساعدتهم، وعاد عن دمشق زنكـــي، وقد ملك في هذه السنة شهروز وأعمالها التي كانت بين قفجاق بن أرسلان تاش التركماني وبعد ملكه أعطاه الأمان[23]، وقد بقيت البلاد والحصون تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى، وتوجب أعماله بتحريره الرّها[24] من أيدي الصّليبيّن سنة 539 هـــــ[25]، وقـــد اســـتمر بتحرير البلاد إلى أن قتل سنة 541هـــ، وهو يحاصر قلعة جعبر[26].

وبعـــد وفاة عماد الدين زنكي اقتسم أبناؤه الملك، فقد خلف سيف الدين غازي ونـــور الدين زنكي، فملك الأول الموصل، وملك الثاني حلب وغيرها[27]، وقد تملكها بمساعدة وزيره أسد الدين شيركوه[28]، فقد قال له " وقد رأيت أن أصيرك على حلب وتجعلهـــا كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشّام، وأنا أعلم أن الأمر يصير

جمـــيعه إلـــيك، لأنّ ملـــك الشّام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق"[29].

وبعـــد مجيء نور الدين زنكي سار على نهج والده في الحملة الجهاديّة على الصّـــليبيّن فلـــم تكن مهمة نور الدين زنكي سهلة، فقد ظهر عصيان أهل الرّها بعد مقـــتل أتـــابك زنكـــي ســـنة 541هـــ، بدعوة من جوسلين، فقد كان عامة الرّها من الأرمن، وعلم بذلك نور الدين زنكي وسار إليه بعسكره، فلما قاربها هرب جوسلين إلـــى بلده، ودخل نور الدين المدينة ونهبها، وسبى أهلها[30]، وكانت هذه المعركة هي بداية الفتوحات التي قام بها.

وقـــد توالت بعد ذلك انتصارات نور الدين زنكي، ففي سنة 542هـــ ملك عدة مواضع من بلد الفرنج، ففتح مدينة ارتاح[31] وكفرلاث، وكانت الفرنج بعد مقتل والده زنكـــي قد طمعوا أو ظنوا أنهم بعده سيتردون ما أخذه، فلما رأوا في نور الدين هذا الجـــد فـــي أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد[32]، وفي سنة 543هـــ، ملك نور الدين ســـنجار[33]، وبعدها بعام توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل، وفي نفس العام كان نور الدين قد كسر الفرنج وكانت معركة ميمونة الّتي قتل فيها ألف وخمس مئة من الفرنج منهم صاحب أنطاكيّة وأسر مثلهم، وسار وافتتح حصن أفامية[34]، ثم أسر جوسلين صاحب تل باشر[35] إلبيرة[36]، وبهنسة[37]، ومرعش[38].

وقـــد كانت دمشق من أهم المدن التي تطلع إليها نور الدين، لتحقيق الوحدة الجامعة بين أجزاء بلاد الشّام، وهو الأمل الذي سعى إليه والده من أجل أن يتمكن مـــن تحقـــيق الهدف الأكبر وهو تحريرها من الأطماع الخارجية المتمثلة بالغزو الفرنجـــي، فكـــان أول عمل قام به عند دخوله دمشق بأن جمع فقهاء وقضاة وتجار أهـــل الشّام فشاورهم في أمر بلدهم، وأعلن أمامهم إبطال حقوق دار البطيخ وسوق الـــبقل، وضـــمان الأنهـــار، وكتـــب منشـــوراً بذلك، وقرئ على المنابر بعد صلاة الجمعة[39].

ويقـــول أبو شامة في هذا الأمر وما قد تحقق لنور الدين من أهدافه التي أراد تحقـــيقها فيقول: " وألقى الإسلام جرانه بدمشق وثبتت أوتاده، وأيقن الكفار بالبوار، ووهـــنوا واســـتكانوا، وصار جميع ما بالشّام من البلاد الإسلاميّة بيد نور الدين"[40].

وقــد أدرك نــور الدين أهمية توحيد صفوف المسلمين، فقد رأى أن من أهمِّ الــبلاد لتوحــيد شمل الأمة العربيّة هما مصر والشّام، وسمحت الظروف للاتصال بمصرَ لتحقيق هدفه، فسرعان ما اتصل شاور[41]، ليستنصر بنور الدين على منافسه ضــرغام الــذي تغلــب على الوزارة مكانه، فساعده نور الدين بإرسال أسد الدين شــيركوه لمســاعدته، فتمَّ له المساعدة، وقد طمع أسد الدين شيركوه بمصر، فرأى شــاور الاستعانة بالصليبيّن ليساعدوه على أسد الدين شيركوه، فتمت له ذلك بدخول الصــليبيّن مصر وطمعهم فيها، فواجههم أسد الدين شيركوه وجيشه وقد سار معهم نــور الديــن إلــى أطــراف البلاد خوفاً مغرة الإفرنج، وذلك خوفاً من أن يضعف الإسلام، وقد كان لألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الشّام[42].

وبعــد ذلــك تمكنت الوزارة لأسد الدين شيركوه غير أنها لم تطل فقد وافته المنــية، فخلفه بالوزارة صلاح الدين الأيوبي[43]، وفي هذه الأثناء لم يكن نور الدين يــتوانى عــن قتال الفرنج، ففي سنة 544هــ تمكن من قتل البرنس، وهو من أعظم رؤوس الفــرنجة، فقــد كان يحاول استئصال شوكتهم بكافة الأساليب، وقد سار إلى حصن حارم[44] وهو للفرنج فهزمهم فيه، وقتل البرنس، وفي سنة 546هــ تمكن نور الديــن مــن جوسلين، وهو سائر إلى بلاد جوسلين وهي القلاع إلى شمالي حلب[45]، وقــد تمكــن فــيها مــن فتح عين تاب، وعزاز ودلوك، ومرعش، وقد كان انهزام جوســلين علــى أيــدي الــتركمان، الذين بلغ لهم نور الدين الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا به إمّا قتلاً وإمّا أسراً[46].

وقــد كــان نور الدين إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفــيه عشــر ســنين خوفاً من نصرٍ يتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء[47].

وفــي ســنة 548هــ أخذت الفرنج مدينة عسقلان، وقد بقيت في أيديهم حتى سنةَ 583هــ[48].

وفــي حين تواصل نور الدين زنكي بمهاجمة الصّليبيّن في بلاد الشّام، فإن صــلاح الدّين كان يواصل حكمه في مصر بالعدل، وفي هذه الفترة سار نور الدين فــأخذ الرّقّة في المحرم سنة 566هــ، وسار إلى نصبين، وأخذ سنجار بعدها ودخل

الموصل بالأمان وخرج من الموصل قاصداً نحو الشام، ودخل حلب في هذه السنة، وفتح مرعش في ذي القعدة من سنة 567هـ[49].

ولم تلبث سنوات نور الدين زنكي أن مضت فقد وافته المنية سنة 569هـ[50]، وقد آل الملكُ بعده لابنه الملك الصالح إسماعيل وكان عمرُه إحدى عشرة سنةً، وقد أطاعه الناس بالشّام وصلاح الدّين بمصرَ[51]، وقد كانت سياسيةُ الملكِ الصالحِ في تخبط، فقد قبض على كمشتكين بعد ما طلب منه تسلّيم حارم إليه، فرفض فقتله، عندما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الإفرنج سلموها إلى الملك الصالح فعاد الفرنج إلى بلادهم[52]، وغير هذه الأحداث فعند وفاة والده حاصر الفرنج بانياس ثم تعاظم الأمر، وذلك أنّ أمراء الشّام قد صالحوا الفرنج خوفاً من صلاح الدين ومن سيف الدّين غازي صاحب الموصل، فإنه كان قد أخذ البلاد الجزريّة، وخافوا منه أن يعبر إلى الشّام، فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب، وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردّهم[53].

وقد استمر حكم بلاد الشّام على يد الملك الصالح على الرغم من صغر سنه، وفي هذه الأثناء كان الملك الناصر قد أسس الدولة الأيوبيّة في مصرَ والشّام، حيث ملك صلاح الدّين دمشق سنة 570هـ، ثم ملك مدينتي حمص وحماه، وملك قلعة حمص وبعلبك[54].

وقد أدرك صلاح الدّين الأيوبي أهمية الوحدة ما بين مصرَ والشّام، فقد كانت الخمسُ والعشرون سنة التي -حكم فيها، حتى وفاته سنة 589هـ- حلقةً ممتدةً من الحروب والفتوحات، فقد أدرك أن توحيد البلاد ضروريّ لصدّ الخطر الصّليبيّ[55].

وفي سنة 571هـ، علا شأن صلاح الدّين وبرز من دمشق، وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشّام، فطلب الفرنج منه معاهدة الصلح، فأجابهم إليها وصالحهم[56]، غير أنّ صلاح الدّين في فترة حكمه حتى بعد الصلح لم يتوانَ عن صد الهجمات الصّليبيّة على بلاد الشّام.

وتستمر الحركةُ الجهاديّة صاعدةً في عهد صلاح الدّين وكان فتحه لمدينة "طبرية"[57]، ويليه معركة حطين[58] بمثابة "مفتاح الفتوح الإسلاميّة"[59]، التي هزم فيها صلاح الدين الصّليبيّين، وأسر وقتل منهم عدداً كبيراً من القادة والجنود[60]، وبفتح

حطيــن، توالت الفتوحات الصلاحيّة ثم تحرير بيت المقدس سنة 583هـ[61]، ومن ثم عكــا والناصــرة وصــفورية وقيســارية ونــابلس وصيدا وبيروت وعسقلان سنة 583هـ[62].

ولم تستعصِ على الملك الناصر إلاّ مدن أنطاكية وطرابلس وصور وعدد من الحصون الصغيرة، كما أن الصّليبيّين استرجعوا عكا سنة 587هـ[63].

وعلــى الــرغم مــن إعادة احتلال عكا إلاّ أنّها لم تكن بتلك المنزلة لتحقيق المكسب الأكبر وهو احتلال بيت المقدس، فالبرغم من بقاء عكا في أيدي الصّليبيّن إلاّ أنّ بيت المقدس بقيت حتى بعد وفاة صلاح الدّين في دمشق سنة 589هـ، بأيدي أبنائه وآل بيته بعد ما قسم دولته بينهم[64].

وقــد كــان لهذه الانتصارات التي حققها صلاح الدّين، دور في تخليد ذكرى صــلاح الدّيــن فقد عبر الشّاعر فتيان الشّاغوريّ[65]، عن فرحتهِ بالانتصارات التي حققها على الصّليبيّن وبذلك يقول:

للّــه يوســف كــم أغــاث وغاثاَ وأبــادَ مــن عَــبَدَ الصّــليب وعاثــاَ
يــا أيُّهــا الملــكُ الــذي عزماتُهُ جَعَلَــتْ بُــزَاةَ المشــركين بُغاثــا [66]

وغير هذا الشّعر الشيء الكثير الذي قيل في صلاح الدّين الأيوبي، فمثل هذه الأحــداث السياســيّة هي ما تحرك أدب أي أُمة ولِسان أي شاعر، وبعد وفاة الملك الناصــر، فقد ترك فراغاً كبيراً، وكان قد قسّم مملكته ما بين أبنائه وآل بيته، بحيث أصــبحت القــدس لابــنه الأكــبر علي نور الدين علي وهو الملقب بالملك الأفضل (ت 622هـ) [67].

أمــا الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز، فقد ملك مصر سنة 592 هـ[68]، وأما الملك الثالث الملك الظاهر غازي، فقد أخذ حلب وجميع أعمالها وشمال الشّــام، وأخــذ الملــك العادل سيف الدين أبو بكر الكرك والأردن وديار بكر، وقد وزعت الإقطاعات الثانوية الأخرى على بقية أخوة صلاح الدّين فأخذ الظافر خضر بــن صلاح الدّين، بصرى وحوران، وأخذ الأمجد بهرام شاه بن أخي صلاح الدّين "بعلبك" وأخذ ابن عمه إبراهيم بن شيركوه حمص[69].

وكـــان نتـــيجة لهـــذه التقسيمات أن حصلت الأطماع ما بين الورثة كل واحد ينظر لما في يد الآخر، مما أدى إلى ضعف الدولة في تلك الفترة، ولما استقر الأمر للملـــك العـــادل[70]، تغلب على أبناء أخيه وقسم الممالك بين أولاده في سنين عديدة، فـــاعطى المعظـــم عيســـى دمشق، وأعطى الأشرف موسى الشرق، وأعطى الملك الكامل محمداً مصر، وصار هو ينتقل في ممالك أولاده، إلى أن مات فتفرد الكامل في ديار مصر وأعمالها، واستقل بأمورها وتدبر أحوالها[71].

وقـــد كانـــت فـــترة حكم الملك العادل عامرة بالأحداث التاريخية، فقد كثرت غارات الصّليبيّن على المدن الداخلية الشّاميّة وخاصة حمص وحلب، وبالوحدة التي أعـــاد تنظـــيمها ما بين الأسرة الأيوبية، عرف الصّليبيّون الأهمية التي شكلها، وقد وصـــفه ابـــن خلكـــان بقوله: " كان ملكاً عظيماً، ذا رأيٍّ ومعرفة خاصة، قد حنكته الـــتجارب، حســـن الســـيرة، جميل الطوية، وافر العقلِ، حازماً في الأمورِ، صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأرباب السنة"[72].

وبعد وفاته سنة 615هـــ، ثبت أبناؤه في ملكهم ولم يقع بينهم خلاف بعد تقسيم الـــبلاد بيـــنهم، غـــير أن هذا الاتفاق لم يدُمْ طويلاً، فقد دبَّ الخلاف ما بين الأخوة والأقـــارب، بحيـــث طمعوا في أن يسيطر كل واحد منهم على دمشق والمدن الهامة الأخرى[73].

وقد بقيت مدينة القدس في يد الملك المعظّم عيسى حتّى وفاته سنة (624هـــ)، وبعـــده تولّى الأمر ابنه الملك الناصر داوود الذي تغلب عليه الملك الكامل صاحب مصـــر، وأخذ منه أكثر البلاد التي كانت تابعة له سنة 625هـــ، ومنها مدينة القدس، وقد تخلى الملك الكامل عن مدينة القدس للفرنج سنة 626هـــ، بموجب صلح تمَّ بين الملـــك الكـــامل والامبراطور ملك الفرنج، وقد كان لوقع هذا الصلح على المسلمين مآســـي[74]. لأنهـــا المديـــنة المقدسة التي فتحها صلاح الدين بعد جهد طويل، وتسلم بالمصالحة، بعد أن عجزوا عن أخذها بالقوة، فكان من الطبيعي أن يطمع الصّليبيّون بالبلاد الإسلاميّة بعد ما لمسوا تفرق بني أيوب، وتخليهم عن بيت المقدس، وفي سنة 626هـــــ، ملـــك الأشرف مدينة دمشق بعد حصار شديد وقع عليها، وقد سلمه إياها الملك الكامل[75].

وقد كانت الفرحة تغمر الشعب عند سماع وفاق يتم بين ملوك بني أيوب، لأن هذا التقارب يعزز من قوتهم تجاه العدوان الصّليبيّ الذي بدأ يأخذ البلاد بالمصالحة.

وقد كان موت الملك الكامل بدمشق سنة 635هـ، نذيراً بتفكيك الدولة الأيوبيّة، فقد حدث صراع ما بين الصالح نجم الدين أيوب وابن الكامل، وعمه الصالح ملك دمشق، وفي هذه الأثناء شهدت بلاد الشّام غزو جموع الخوارزميّة من ناحية والخلافات بين بني أيوب في الشّام والمماليك في مصر، وتهديد المغول من ناحية ثانية، والحملة الصّليبيّة من ناحية ثالثة[76].

ونتيجة للنزاعات ما بين الأيوبيّين والمماليك، فقد استعان نجم الدين أيوب بالخوارزميّة مما أدى إلى إتاحة الفرصة لهم لبث الفساد في بلاد الشّام واستعان الملك الصالح بالفرنج، فلم يقمْ أفراد أسرة بني أيوب لفض النزاعات بطريقة سليمة فيما بينهم بل قد أدخلوا أعداء البلد إليهم لتزيد أطماعهم وتتوضح أهدافهم في ظل هذه الخلافات ما بين الورثة، فكل عدو منهم له مصلحة الإعانة ليحدد هدفه عن قرب، في حين كان التّتار قد دخلوا بغداد، وهولاكو قد استولى على بلاد الشّام سنة 659هـ، وضمن هذه الأحداث والنزاعات الداخلية ما بين ملوك بني أيوب انهارت الدولة الأيوبيّة، على يد الممالك في مصر في موقعة عين جالوت[77] سنة 658هـ.

وبهذا أدخلت الشّام ومصر تحت حكم دولة جديدة (المماليك)، وقد عادت الوحدة بعد انفصال الشّام عن مصرَ، عندما قتل الملك غياث الدين توارن شاه ونصب المملوك عزّ الدّين أيبك التركماني[78] سلطاناً على مصر، وبهذا انفصلت الشّام عن مصر سنة 648هـ.

وقد كانت هذه الفترة من 648هـ، حتى معركة عين جالوت، فترة تتابعت فيها انتصارات المماليك ضد الصّليبيّين، وقد واجهت البلاد في هذه الفترة عدواً جديداً وهو التّتار واحتلالهم لمعظم بلاد الشّام بقيادة هولاكو تولي خان بن جنكيز خان، ولي الملك بعد أبيه، واتسعت ممالكه وعظم أمره، وقد استمر في أخذ بلد بعد أخرى إلى أن استولى على حلب والشّام، وقد اضمحلَّ أمر الملك صلاح الدّين الأيوبي في هذه الفترة نتيجة لوقائع وقعت له، فنفر عنه أصحابه، واتجه الأمير بيبرس البندقاري[79] إلى مصر تحت ولاية الملك المنصور بن عزّ الدّين أيبك

الصـــفدي، غير أنّه لم يكن بقادر على تحمل الأمور، فخلعه عن الحكم الأمير قطز الملقـــب بـــالملك المظفر سيف الدين قطز، وانتقل الحكم له، وقد كان مدركاً لخطر التّتار وتوسعهم، فقضى عليهم وحكم البلاد حتى سنة 658هـــ، وقتل بعد ذلك على يد الظاهر بيبرس[80].

وقـــد كانـــت فـــترة حكـــم الظاهر بيبرس فترة خصبة في المجال السياسيّ والعسكري، فقد فتح حصوناً عديدة من حصون الصّليبيّين في بلاد الشّام[81]، فقد ملك أنطاكية وغيرها[82].

ولـــم يبقَ من المدن الكبرى سوى عكا وطرابلس، وبعض الحصون الصغيرة فـــي بلاد الشّام، وفي سنة 683هـــ، فتح الملك المنصور قلاوون اللاذقية، واستولى على طرابلس سنة 688هـــ[83].

واســـتمرت الحمـــلات علـــى الصّليبيّين حتى جاء الأشرف خليل بن قلاوون وقضى على آخر معاقل الصّليبيّين، التي انتهت بفتح عكا سنة 690هـــ، وقد كان مدة حصار عكا أربعة وأربعين يوماً، وبعدها وقع الهدم في مدينة عكا فهدمت الأسوار والكنائس، وبذلك فتحت آخر معاقل الصّليبيّين[84].

كـــان المجتمع الإسلامي زمن الحروب الصّليبيّة يتكون من خليط أمشاج من عناصر وجنسيات متعددة متباينة في طبائعها، وأخلاقها من العرب والترك والفرس والـــروم والأرمن، ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكري والاجتماعي والديني، ولا شك إن اختلاط هذه العناصر جميعاً أثبت أشياء كثيرة جديدة، في نظم المجتمع، وفي العادات والتقاليد، وفي الأدب، وفي الفكر والدين[85]، وقد كان العنصر البارز في هذه الفترة هو العنصر التركي، والكردي.

وقـــد كان الأتراك قد كثروا في البلاد زمن السلاجقة الذين فتحوا لهم المجال لدخول بلادهم، فقد كانوا مماليك السلاجقة، وقد ساهم الأتراك في قتال الصليبيّين[86]، وقد اعتمد الزنكيون في فترة حكمهم البلاد على الأتراك " لأن قنطاريات الفرنج ليس لهـــا إلاّ ســـهام الأتـــراك، وأنّ الفرنج لا يخافون إلاّ منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديـــار المصريّة، ولعل الله تعالى ييسر بهم فتح بيت المقدس"[87]، وقد ترك الأكراد

لمسات واضحة على الحياة الاجتماعيّة إذ أقبل القوم على شراء الجواري التركيات الحسان[88].

وقد كان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنيان، والاستعداد الحربي الممتاز، مما شجع الخلفاء كبار ورجال الدولة على الإكثار منهم لاستعمالهم خدماً، وحرساً خاصاً.

أما بالنسبة للسكان الأصليين فقد تكون المجتمع الشّاميّ من حضر وبدو، فالحضر هم أهل المدن والقرى الشّاميّة الذين اشتغلوا في النّشاط الاقتصادي من تجارة وصناعة وزراعة، والبدو هم العشائر التي انتشرت في بادية الشّام[89].

فقد كانت طبقة الحضر تتكون من الفلاحين والتجار والصّناع وأهل المهن، أمّا البدو فيتكونون من آل فضل، وآل عقبة وهم عرب من البلقاء وحسبان والكرك، وآل مرّة كانوا يتنازعون مع آل فضل على زعامة العرب غير أنّ آل فضل استظهروا الأيوبيين عليهم، فولّوهم على أحياء العرب جميعاً[90].

"وقد ضم المجتمع الشّاميّ فئات دينية ومذهبيّه متعددة، وكان مذهب أهل السنة والجماعة هو المذهب السائد في البلاد بصورة عامّة، حيث حرص الزنكيّون والايوبيّون على إشاعة هذا المذهب لجمع الناس واستقطابهم على صعيد فكري واحد، يجنبهم الانقسامات المذهبيّة التي قد تهدر طاقاتهم وتصرف جهودهم عن مواجهة العدو الصليبي"[91].

بالإضافة لذلك فقد كانت هناك مذاهب مختلفة ومتعددة، انتشرت في عصر الدولة الزنكيّة مذهب الشافعيّة والحنفيّة والمالكيّة والحنبليّة، بالإضافة لمذهب أهل السنة والجماعة[92]، وهذا الأمر إن كان يدل على شيء فهو يدل على الحرية في تعدد المذاهب.

ويبدو أنّ بلاد الشّام كانت تعاني في مستهل القرن السادس الهجريّ من مظالم اجتماعيّة كثيرة مما دفع الزنكيين عندما تولوا الحكم إلى إجراء كثير من الإصلاحات الاجتماعيّة والإداريّة، فأسقطوا عن الناس الضرائب والمكوس، وعملوا على الحكم بدستور الشريعة، وإرساء قواعد العدل بين الرعيةّ، بالإضافة إلى إقامة كثير من المنشآت العمرانية، وشق الطرق وإصلاحها، فقد أشار ابن جبير إلى

الأحـــوال " فقـــد كانت الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقـــاف العاجزيـــن عن الحج يعطي لمن يحج عن الرّجل منهم كفايته، ومنها أوقاف لفكـــاك الأســـارى، ومـــنها أوقـــاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويـــتزوّدون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير"[93].

وحـــرص الزنكـــيّون والأيوبيّون في أول عهدهم على بثّ الشّعور الدينيّ في الـــنفوس، فأكثروا من بناء المساجد والربط والزوايا كما شجعوا على إقامة مجالس الوعـــظ فـــي المســـاجد وغيرها، بالإضافة إلى الاهتمام بالمتصوّفة، فقد وصف أبو محمد عبدالله بن علي المعروف بصفي الدين بن شكر، بلاد الشّام بقوله بأنها " معبد الأبرار المستغفرين بالأسحار"[94].

وقد اهتم الزنكيّون ومن بعدهم ملوك بني أيوب ببناء الخانات لهم في الطرق، فقـــد بنى نور الدّين زنكي الخانكاهات للصوفيّة في جميع البلاد، وكان يكرم العلماء وأهـــل الدّيـــن ويعظهـــم ويقوم إليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ويكاتبهم بخط يده[95].

بالإضافة إلى هذه الفئات الدينيّة فقد كان المجتمع الشّاميّ يضم أهل الذّمة وهم أهـــل الكـــتاب مـــن نصارى ويهود، وقد كانوا يدفعون الجزية للمسلمين بالإضافة لممارسة حياتهم العادية في حصون وقلاع المسلمين[96].

وقـــد عـــامل الزنكيّون أهل الذّمة خير معاملة، فقد تمتع أهل الذّمة بحريتهم الدينـــيّة كاملة فكانوا يؤدون صلواتهم، وقد نهج السلاطين الأيوبيون نهج أسلافهم في التسامح، فقد أدخلهم صلاح الدين في خدمته، واتبعه خلفاؤه في ذلك[97].

وقـــد كان للحروب الصليبية أثر واضح في الحياة الاجتماعية آنذاك، فقد كان لاخـــتلاط العرب بالفرنج أن انتشرت حانات الخمر وتعاطيها، فقد أقبل بعض ملوك بنـــي أيوب على اللهو والقصف، وقد شجع بعضهم شعراء الخمر والمجون، فالملك الناصـــر يوسف اتخذ نور الدين الأسعردي نديماً[98]، وانتشار ظاهرة ولوع الشّعراء بالخمـــرة وحـــبهم لها وربطها بالمرأة الفرنجيه التي تسقيهم الخمرة، فيقول في ذلك فتيان الشّاغوريّ:

ادريـــاند يمـــي عليـــنا عقـــار تـــزيُد الهـــوى وتُـــزيلُ الوَقـــارَا
فقـــم واســـقني مـــن بـــنات الكـــروم علـــى طفلـــةٍ مـــن بـــناتِ النصارى
تظلّـــم مـــن ردفهـــا عـــن خصرُها لقـــد حـــاف ظلمـــا علـــيه وجارا [99]

وقـــد كانـــت العلاقة ما بين المسلميّن والصّليبييّن تتجاوز في بعض الأحيان الصـــورة العدوانـــية كما أشرنا إلى تأثيرهم بظاهرة شرب الخمر، وربطها بالمرأة الفرنجـــية، غير أن نتيجة حالة الصراع العنيف ما بين المسلمين والصّليبييّن، وحالة الـــبلاد مـــن المآسي والآلام التي تتعرض لها، بسبب العدوان الصّليبيّ، فقد ساءت الحالة الماديّة، على الرغم من الإصلاحات التي قام بها الزنكيّون والأيوبيّون، إلاّ أنّ بعـــض المظالم كانت تقع على الناس، بالإضافة فقر السواد الأعظم من الرعية، فقد أجرى الزنكيّون والأيوبيّون كثيراً من الإصلاحات الاجتماعيّة، فقد ضبط عماد الدّين زنكـــي الأمور، فعاشتَ رعيته في أمن شامل يعجزُ القوى المعتدي على الضعيف، فقصد الناس بلاده، واتخذوها دار إقامة[100].

وقـــد سار نور الدين مع رعيته في أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك اتباعه وذويه[101]، فمنع من شرب الخمر، وأوقع على شاربها الحدّ الشرعي[102].

وعلـــى الرّغم من هذه الإصلاحات فقد ساءت الحالة المادية، مما كان دافعاً لقول الشّعر، فقد لجأ كثير من الشّعراء إلى مدح الملوك والأمراء بالرغم عن الحالة المادية التي هم فيها، فقد كان الشّعر باعثاً للإصلاحات المادية، فعند النظر في حياة كثـــير مـــن الشّعراء نجد أن عدة عوامل قد أثرت في المجتمع الشّاميّ ساعدت في إنتاج الشّعر والإبداع فيه.

فشـــاعر مثل فتيان الشّاغوريّ قد تأثر في حياته بناحيتين هامتين، كانتا عنده الباعـــث علـــى نظم الشعر، ويدلان على مدى التأثر بتطور العلاقة ما بين المسلمين والفرنجة، أولهما:

الفقر الذي شكا فيه حاله وقلة ماله، حتى لقد استجدى وألح في استجدائه رغم اعـــتزازه بنفســـه، وإدلالة بعلمه وموهبته، وثاني المؤثرات في شعره المعارك التي شهدها أو سمع بها كأنه يراها[103].

ومن هنا نرى أن الحياة الاقتصاديّة التي فرضت زمن الحروب الصّليبيّة، قد اختلطـــت بالحياة الشّعرية للشّعراء، فقد كان الشاعر ليصل إلى درجة الطبقات العليا فـــي المجـــتمع، كان لا بد له من أن يكدح ويتخذ حرفة لتكون معينة له على تحمل أعـــباء الحـــياة، فنجد اشتهارهم باسم الحرفة التي يتخذونها فنجد ابن الخياط، وابن الدّهان وغيرهم من الشّعراء.

ومما زاد من فقر هؤلاء الشّعراء وحاجاتهم سيطرة نظام الإقطاع على الطابع الاقتصـــادي فـــي الـــبلاد، ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم بحاجة إلى محاربين فرسان مزوَّدين بالسلاح والخيول، مما تطلب إنفاق أموال لا تتحملها الدولة ولا مـــوارد ســـلاطين بني أيوب مما أدى إلى توزيع الأراضي في صور إقطاعات على الأمراء والأجناد ولم يكن هذا الإقطاع وراثياً، بل كان للمقطع الحق في التمتع بالأرض المقطعة له طالما كانت يؤدي الخدمة العسكرية[104].

فأخذ الأيوبيّون هذا النظام وأقطعوا الأمراء الأراضي، ثم جاء بعدهم المماليك الذيـــن كانوا طبقة اجتماعيّة قائمة على الإقطاع، وكان كل طبقة من طبقات المماليك تخدم الطبقة التي أعلى منها وتتناول منها أرزاقها العينية أو النقدية أو إقطاعات من الأراضي، تضيق وتتسع حسب مراتب أصحاب هذه الإقطاعات[105].

وقـــد أدى ارتفاع الأسعار أحيانا إلى ثورات متتالية في المدن ضد المسؤولين عن الخزانة والمحتسبين، فقد ثار العامة على محتسب حلب سنة 629هـــ[106].

وعلـــى الـــرغم من ظروف الحرب وارتفاع الضرائب والمجاعات والزلازل التـــي تعرضت لها المدن الشّاميّة، فقد ظهرت في هذه المدن الشّاميّة مظاهر الترف والازدهـــار، فقد كان للبيئة الدمشقية دور في ظهور هذه المظاهر فمما قاله القاضي الفاضـــل في بعض مكتباته إلى مصر " أنني وصلت إلى دمشق المحروسة من شرّ دبـــرها ورد دورها وأخضر نبتها وحسن نعتها وصفاء ماءها وصفاء دواؤها وتغنت أطيارها وتبسمت أزهارها...." [107].

لقـــد ازدهـــرت الحـــياة الفكريّة في عصر الزنكييّن والأيوبييّن في القرنيين الســـادس والســـابع الهجريين، ويمكن القول إن عصر الأيوبيين عصر إحياء للفكر

والـثقافة الإسـلاميّة والعربيّة كما كان عصر إحياء سياسي، وتمثل هذا الإحياء في بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث اهتماماً بالغاً[108].

وقـد كانت هذه النهضة الفكريّة التي شهدتها بلاد الشّام، تعود إلى عوامل من أهمهـا تشجيع الزنكيّين والأيوبيّين لحركة والعلم والعلماء، بحيث وجد أهل العلم في تلك البلاد الملاذ لاستقطاب طاقاتهم الفكريّة[109].

وقد كان نور الدّين لا يتصرف في شيء من هدايا الملوك وغيرهم، فقد كان لا يتصـرف فـي شيء منه لا قليل ولا كثير، بل كان إذا اجتمع فيها شيء يصرفه ويخرجه إلى مجلس القاضي، فيحصل ثمنه ويصرف في عمارة المساجد المهجورة، وقـد كانـت هذه المساجد تبلغ مائة مسجد[110]، وإلى جانب هذا الاهتمام كانت حتى سـيدات الدولـة من المهتمات بإنشاء المدارس والإنفاق عليها، من ذلك إنشاؤها[111] المدرسـة الجوانـية وكانـت تعمل في دارها في كل سنة بألوف من الذهب أشربه وأدوية وعقاقير وغير ذلك فيفرق على الناس[112].

وقـد شجع الزنكيّون العلم والعلماء، فقد كثرت في بلاد الشّام المساجد ودور العلم، وقد كان أهل العلم في زمن نور الدين بمنزلة عظيمة، يكرمهم ويحسن إليهم، وقـد ذكـر ابن واصل أنّهم عنده في منزلة عظيمة، وأنّه كان يجمعهم عنده للبحث والـنظر واسـتقدمهم إليه من البلاد الشاسعة[113]، وقد أجرى عليهم الإرادات الكثيرة والصلات العظيمة[114].

وقـد كان نور الدين ملكاً عادلاً كثير الصدقات، فقد توسع في بناء المدارس فـي جمـيع بـلاد الشّام الكبار مثل دمشق وحمص وحماة وبعلبك ومنبج والرحبة وشيرز[115].

وقـد كان يقول: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلاّ نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين"[116].

اهـتم نـور الديـن وصـلاح الديـن بإقامـة المساجد والمدارس والخوانق والرباطات، وجعلا تعلم القرآن الكريم والسنة المطهرة محطّ اهتمام الناس"[117].

ولم يكن نور الدّين وحده، وهو المساهم في الحركة الفكرية التي اتسعت، من خلال بناء المدارس والمساجد، فقد تسابق في تأسيسها السلاطين، والملوك والأمراء

والأثـــرياء، والمعلمـــون وعلى يد الخدم والشيوخ، وقد كانت هذه المدارس تستقبل الوافديـــن علـــيها من كافة أنحاء العالم، وتمهد أمامهم سبيل الحياة، ويمدهم بأسباب العيش، وتهيئ لهم وسائل الإقامة[118].

ومن المدارس التي أنشأها نور الدين التي تهتم بالعلماء وتكرمهم، وقد نسبت إلـــيهم مثل المدرسة العصرونية نسبة إلى شيخها ابن أبي عصرون، وقد جعل فيها مســـاكن للمرتبيـــن بهـــا من الفقهاء، وقد صنف فيها شيخها كتباً كثيرة في المذاهب والخلاف والفرائض[119].

وقـــد كانت هذه المدارس التي اهتم الملوك بإنشأها على مذاهب دينية مختلفة، فمـــن المـــدارس الحنفـــيّة التي أنشأها نور الدّين زنكي المدرسة النوريّة والمدرسة النوريّة الصغرى[120]، ومن المدارس الشافعيّة التي أنشأها المدرسة العادلية الكبرى، وقـــد اشتمل بناء هذه المدارس على يد خواتينهم وخدمهم وفقهائهم والموسرون من تجارهم[121]. ومن بناء خدمهم بناء خوجاريحان[122] المدرسة الرّيحانية.

وقد استمرت الحركة الفكريّة في النهوض على أيدي الأيوبيّين كأسلافهم، فقد ظهر اهتمامهم بالعلم والعلماء، فلم يكن صلاح الدين وغيره من الأسرة الأيوبية بأقل مـــن الذيـــن سبقوه، فقد كان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه[123].

"وقـــد كـــان له مجلـــس علم يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكميّن حتى يصل إليه كلّ أحد، من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً "[124].

وقـــد ساهم ملوك بني أيوب ومن بعدهم سلاطين المماليك وأمراؤهم بالعناية بالمكتـــبات، الأمـــر الـــذي ساعد في ازديادها، وإنشاء خزائن الكتب الخاصة بها، وتشجيع المؤلفيّن على تأليف الكتب التي هم اختاروها[125].

فقـــد ظهـــرت الغيره على تدوين العلم وحفظه، بعد الحريق الذي ظهر بقلعة الجـــبل في بعض خزائن الخاصّة، وأتلف شيئاً عظيماً من الذخائر والنفائس والكتب وغيرها[126].

وقــد ألفــت كتب في مواضيع مختلفة تدل على مدى التطور الفكري في تلك الفــترة، فقــد ألــف شمس الدين الجويني كتاباً في علوم الدين بعنوان (تنمية تفسير القــرآن لابــن خطيب) (وكتاب في النّحو)، وكتاب في علم الأصول وكتاب يشتمل علــى حكمــية ألقــاب السلطان المعظم، صنفه الملك المعظم عيسى بن أبي أيوب، وشمس الدين الخروشاهي له كتاب في (مختصر كتاب المهذب في الفقه على مذهب الإمام الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي) [127].

أمــا فــي المجــالات العلمــية الطبيّة، فقد اهتم الزنكيّون والأيوبيّون بإنشاء البيمارســتان لمعالجة المرضى، وقد كان هناك كثير من الأطباء الذين اهتموا بالعلم الطبي والخدمة في البيمارستان الذي بناه الملك العادل نور الدين زنكي[128].

وقد زاد اهتمام الزنكيّون والأيوبيّون بناء المدارس التي تهتم بالطب ومن هذه المدارس التي انتشرت في بلاد الشّام المدرسة الدخواريّة تلي الجامع الأموي أنشأها مهــذّب الدّيــن المعروف بالدخوار سنة 621هــ، والمدرسة الدنيسرية أنشأها عماد الديــن الربعي، والمدرسة اللبودية النجمية أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي سنة 664هــ[129].

وقد ظهرت لنا مؤلفات عدة، فقد اهتم المؤرخون المسلمون في القرن السادس بتوثيق أحداث الصراع بين المسلمين والصّليبيّين، وكتابه السّير لأبطال ذلك الصراع ومــن هــذه المؤلفات " البرق الشامي"، " والفيح القسيّ في الفتح القدسي"، وكلاهما للعماد الأصفهاني، وكتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، "النوادر السلطانيّة" لبهاء الدّين ابن شداد[130]، وغيرها من المؤلفات.

وفــي ظلّ هذه الظروف الفكريّة المتطورة والمتجددة نشط الأدب العربي في بــلاد الشّــام فــي القرنين السادس والسّابع الهجريّين بكافة أنواعه، الخطابة والنثر والشّــعر وخاصــة الشّعر في هذه الفترة فقد لقي ازدهاراً واسعاً خصوصاً في ظل الحروب الصّليبيّة، فهي فترة صراع عنيف ما بين الأنفس في ظل السجلات الحافلة التــي شهدها هذا العصر، فظهر لنا شعرٌ كثيرٌ يمجدُ البطولات ويشيد بها، فقد كانت البواعث العسكريّة والاجتماعيّة والفكريّة من مستحثات الشّعر في هذه الفترة.

فقد كان للشّعر دور هام في توثيق أحداث هذه الفترة من حروب وغيرها فقد كـــان للشّـــعراء ألسنة الثناء والدعاية لانتصارات وأعمال الحكام والأمراء في هذه الفترة[131].

فقـــد كان عدد الشّعراء كبيراً حيث نظموا قصائد في المديح ورثاء الأشخاص والمـــدن، إضـــافة إلـــى القصائد التي صورت الانتصارات، وحضت على الوحدة والجهاد[132].

وقـــد كـــثر الشّعراء في هذه الفترة زمن الحروب الصليبيّة من مثل ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسّرانيّ، والعماد الأصفهاني، وابن الدّهان وغيرهم كثر.

وقـــد نشـــطت الحـــياة الأدبية في عهد نور الدين نشاطاً ملحوظاً، فقد أعجب الشـــعراء بشخصـــية نـــور الدين، وبما تجسد فيها من صفات مثالية للحاكم المسلم ومجّـــدوا بطولاتـــه فـــي ميادين القتال، فقد وجدوا منه الاهتمام والتشجيع، كما لقي الشّـــعراء التشـــجيع مـــن الزنكيّين والأيوبيّين على الرغم أن نور الدين زنكي ليس "الشّاعر عنده من نعمة تُجزى"[133]، فقد برز في عهده شعراء كثر تناولوا نور الدين زنكي بالمدح من مثل ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسرانيّ، فقد كان لهذه الشخصية بعـــد عمـــاد الدّيـــن زنكـــي الحظ الأوفر في الشّعر، وبعدها شخصية صلاح الدين الأيوبي.

وقد جرى الشّعر على ألسنة كثير من أبناء الأسرة الأيوبيّة، مثل الملك الأمجد بهرام شاه 628هـــ، وقد كان شاعراً مجيداً وديوانه مشهور[134]، وعز الدين فرّخشاه فقد وصف بأنه كثير الأدب مطبوع النّظم والنثر[135].

وقـــد نشط الأدب في بلاد الشّام زمن الحروب الصّليبيّة نتيجة للظروف التي تمر فيها بلاد الشّام وأهمُّها الحروب الصّليبيّة، ففي ميدان النثر، كانت الخطابة سوقاً رائجة في فترة نور الدّين زنكي للحاجة إليها في الحث على الجهاد والقتال في سبيل الله ضد الأعداء وترغيب المسلمين في ذلك وترهيبهم من التخاذل والتقاعس[136].

ومـــن هؤلاء الخطباء الذين انتشروا في عهد نور الدين زنكي أبو اليمن زيد بـــن الحسن بن زيد الكندي البغدادي، ولد سنة 520هـــ، عاش في دمشق وتوفي سنة

613هـ، وله تعليقات على خطب ابن نباته[137]. وهاشم بن احمد بن عبدالواحد بن هاشم الاسدي فقد ولى خطابة حلب، وله كتاب خطب[138].

أما بالنسبة لكتابة الإنشاء فقد انتشرت في عصر الزنكيّن والأيوبيّن، فالإنشاء معناه أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه واخترعه، وحينئذ بإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين:

الأول: أن الأمور السلطانية في المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتبدأ منه، والثاني أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالاً[139].

وقد اشتهر أيام نور الدّين زنكي من المنشئين، أبو عبدالله محمد بن حامد بن عبدالله بن علي، المعروف بالعماد الكاتب الأصفهاني، وقد تولى ديوان الإنشاء لدى نور الدين سنة 562هـ[140]، وبعد نور الدين لزم صلاح الدين حتى توفي صلاح الدين، ثم لزم بيته وأقبل على التصنيف حتى توفي سنة 597هـ[141].

وأبو عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني، ركن الدين، قدم من المغرب إلى مصر فوجد بها القاضي الفاضل والعماد والأصفهاني، " فعلم أنه ليس في طبقتهم فسلك ذلك المنهج الحلو والأنموذج الظريف"، عمل كتابه المنامات والرسائل المشهورة باسمه[142].

وقد كان نور الدين من المهتمين بالصوفية فبنى لهم عدداً من الروابط والخوانق في جميع البلاد الواقعة تحت حكمه، وإيقاف الأوقاف التي أدرت عليه أموالاً كثيرة، ومن خلال تقربه إلى مشايخ الصوفية، وحضوره مجالسهم وتواضعه لهم[143].

وهذا أمر أدى إلى إنشاء الخوانق على يد رجال دولته مثل أبي بكر مجد الدّين محمد بن أنوشتكين، المعروف بابن الداية، وقد عرف الخانقاه الذي بناه باسمه خانقاه ابن الداية[144].

3.1 قصيدة المدح والصراع مع الفرنجة:

كان لأحداث الصراع بين المسلمين والفرنجة أصداء واضحة في قصيدة المدح في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة في القرنيين السادس والسابع

الهجريين، فقد نهض الشعراء المدّاحون بدور كبير في أحداث الصراع، وسأتناول ذلك ضمن المحاور التالية:

مواكبة قصيدة المدح لأحداث الصراع.

تمجيد البطولة.

دور الشعر في المواجهة.

أولاً: مواكبة الشعر لأحداث الصراع:

رصد الشّعراء الشّاميّون أحداث الصراع التي احتدمت بين المسلمين والصّليبيّن، منذ أن وطئت أقدام الغزاة الديار الإسلاميّة، غير أن هذا الرصد لم يكن منتظماً في مرحلة الهزائم، ومن ثّم فإنّ صورة هذه المرحلة لا تبدو واضحة في الشّعر الشّامي، فما وصلَنا من هذا الشّعر كان قليلاً إلى حد بعيد، مما يدعو إلى السؤال: هل ضاع هذا الشعر أو أنه لم يصل إلينا، ولا سيما أننا ما زلنا نفتقد كثيراً من دواوين تلك الفترة؟ وهل الشاعر العربي لا تجود قريحته ويتضاءل صوته عند الهزائم؟ وهل لغياب شخصية القائد البطل الذي يستهوي الأفئدة بجهوده، في أثناء تلك المرحلة أثر في ذلك؟

ومن أشهر القصائد التي قيلت في مرحلة الهزائم قصيدة لابن الخياط الدمشقي سنة 517هـ، مدح فيها الأمير عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق، وحضه على الجهاد، مطلعها[145]:

فَدَتْكَ الصواهل قُبّاً وجُردا ... وشُمَّ القبائل شيباً ومُرْدا

وقد دقَّ الشاعر في قصيدته ناقوس الخطر، لعله يوقظ النفوس المتخاذلة، لتقف في وجه الغزاة الذين تفيض نفوسهم حقدا على الإسلام وأهله:

أنوماً على مثل هدِّ الصفاة ... وهزلاً وقد اصبحَ الأمُر جدّا

وكيف تنامون عين أعنٍ ... وَتَرْتُمْ فَأَسْهَرْتُموهَنَّ حقْدا

وَشَرُّ الضّغائنِ ما أقبلتْ ... لديه الضغائنُ بالكفر تُحْدا

بنو الشرك لا ينكرون الفسادَ ... ولا يتركون مِنَ الفتكِ جُهْدا

وحيــن يصور الشاعر الأجواء النفسية التي خيمت على الناس، وهم يعانون وطأة الهزائم، فإنّه يقدم صورا مؤثرة للرعب الّذي دبَّ في نفوس الفتيات والأمهات بسبب خوفهن على أعراضهن وأعراض بناتهن:

فِكــم مــن فــتاة بهــم أصــبحت تــدقُّ مــن الخــوف نحراً وخدّاً
وأمّ عِواتــــقَ مـــا أن عَرَفـــنَ حّـــراً ولا ذقـــن فـــي اللـــيل بَـــردا
تكـــاد عليهـــن مـــن خـــيفة تـــذوب وتـــتلفُ حـــزناً ووجـــدا

وقــد شهدت مرحلة الهزائم هذه بعض الوثبات الإسلامية ، ففي سنة 513هـ انتصــر المسلمون بقيادة الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق 516هـ على الصليبيّن فــي معــركة الــبلاط، وقتل من الغزاة خلق كثير[146]. وبعد أن عاد المسلمون من المعــركة قال ابن العظيمي (ولد سنة 483) قصيدة مجد فيها هذا النصر، إلاّ أنّه لم يصلنا منها غير بيتين هما[147]:

قــل مــا تشــاء فقولــك المــأمول وعلــيك بعــد الخــالق الــتعويلُ
واستبشــر القــرآن حيــن نصرته وبكـــى لفقـــد رجالـــه الإنجـــيلُ

وفــي ســنة 523 أوقع سيف الدّين شجاع الدولة سوار بن أبتكين[148] بعساكر الفــرنجة، ودخل حماة بالرؤوس والأسارى، ومرة أخرى نسمع صوت ابن العظيمي يتغنّى بهذا الظفر في قصيدة، لم يبق منها إلاّ أوّلها[149]:

أبــت عــزمات جــدك أن تســامي وجــل علــو قــدرك أن يــرامى

وفــي الســنة نفسها هاجم الصليبيون دمشق، فتصدى لهم تاج الملوك بوري، حــتى انخذلوا وانهزموا[150]. وفي هذه المناسبة قال ابن القيسرانيّ 548 هـ قصيدة، مطلعها[151]:

الحــقُّ مبــتهجُ، والســيفُ مبتســمُ ومــالُ أعــدا مجير الدينِ مُقْتَسَمُ

ومنذ أن بزغ نجم عماد الدّين زنكي بدأ المسلمون مرحلة جديدة من الصراع، وهــي مــرحلة ردة الفعــل، وقد بدأ الشعراء يرصدون أحداث الصراع رصداً شبه منــتظم، حيث أصبح بالإمكان استقراء الأحداث من الشّعر بشكل يوازي استقراءها مــن المصــادر التاريخية، فقد تجمَّع حول عماد الدّين طائفة من الشّعراء الشّاميّن

الّذيــن أخــذوا يتبارون في تسجيل انتصاراته، وكأنهم وجدوا فيه البطل الرمز الذي ينافح عن الدين، ويحمي الأمة.

ففــي ســنة 532هــ هاجم ملكُ الروم والصّليبيّون شيزر، فاستنجد صاحبها بعمــاد الدّين؛ فــأنجده، فرحل الروم عنها بعد أن أقاموا فيها أربعة وعشرين يوماً، فتــبعهم عماد الدّين، وظفر بطائفة منهم[152] وقد وصف ابن قسيم الحموي (توفي بعد 540هــ) الحال في قصيدة، أوّلها[153]:

بعــزمك أيّهــا الملــك العظــيمُ تَــذِلُّ لــكَ الصِّــعابُ وتســتقيمُ

وفــي ســنة 534هــ حاصر عماد الدّين " حصن بارين" بين حلب وحماة، فراسل الصليبيون في طلب الأمان، فأمّنهم، ودخل المسلمون الحصن[154]، وقد سجل ابن القيسرانيّ 548هــ، هذا الفتح بقصيدة بدأها بقوله[155]:

حــذارِ مــنّا وأنّــى يــنفعُ الحَــذَرُ وَهْــيَ الصوارمُ لا تُبقي ولا تَذَرُ

ولا بن منير الطرابلسيّ قصيدة في الموقعة ذاتها، مطلعها[156]:

فدتــــك الملــــوك وأيّامُهــــا ودامَ لنقضــــك إبــــرامُها

وفــي ســنة 539هــ فتح عماد الدين الرّها، وكان فتحا عظيماً وقد هنأ ابن القيسرانيّ عماد الدين بهذا الفتح في قصيدة أولها[157]:

هــو الســيف لا يغنــيك إلا جلادُه وهــل طــوّق الأ ملاكَ إلاّ نِجادُهُ

وشــارك ابــن منــير الطرابلسيّ في تسجيل هذا الانتصار، فتحدث عنه في مواضع متعددة من شعره، كما خصص له قصيدة أولها[158]:

صــفاتُ مَجْــدك لفــظٌ جــلَّ معناهُ فــلا اســتردَّ الّــذي أعطاكه اللهُ

وتــتوالى الانتصارات العسكريّة في عهد نور الدين، وبدت هذه الانتصارات علــى الــرغم من بعض الانتكاسات التي تخلّلتها، وكأنّها مدٌّ إسلاميٌّ حثيث يستنقذ الــبلاد من المحتلّين، وكان هذا المد يُغْري الشّعراء بالقول، ومن ثَّم كثر الشّعر في عهــد نــور الدين كثرة فائقة، وقد استهل نور الدّين انتصاراته باستعادة الرّها سنة 541هــــ، وكــان الصــليبيّون قد انتهزوا فرصة موت عماد الدين وانتزعوها مرة أخرى، وفي هذه المناسبة قال ابن القيسرانيّ قصيدة بدأها بقوله[159]:

أمـــا آنَ أنْ يَـــزْهقَ الـــباطلُ وأنْ يُـــنجِزَ العِـــدةَ المـــاطِلُ؟

وقـد خاض نور الدين في سنتي 542،543هـ عدة معارك مع الغزاة استعاد بهـا عـددا من المواقع الهامة[160]. وقد رصد ابن منير هذه المعارك وتغنّى بها في مواضـع متفرقة من شعره في إطار تمجيده لبطولات نور الدين، ومن ذلك قصيدة، مطلعها[161]:

غـدا الديـن باسـمك سـامي العلم أميـن العمـاد مكيـن القـدمْ

وأخرى أولها[162]:

لقـد أوطـأتَ ديـنَ الله عِـزًّا أديـمُ الشّـعريين له رغـامُ

وفـي سنة 543 ثأر نور الدين من الأعداء في إثرِ هزيمة لحقت بجيشه[163]. وفي هذه الموقعة قال ابن القيسرانيّ قصيدة أولها[164]:

يـا ليـتَ أنَّ الصـدَّ مصـدودُ أوْلا فليـتَ الـنوم مـردودْ

وفـي سـنة 544هـ نهـض نور الدّين بعسكره إلى الإفرنج في الموضع المعروف بـ " إِنَّب" من نواحي حلب، فقتلوهم وغنموهم، وَوُجِدَ قائدُهم صريعاً فيمن قـتلوا[165]، وأنشـد ابـن القيسـرانيّ قصيدة هنأ فيها نور الدّين بهذا الفتح، استهلها بقوله[166]:

هـذي العـزائم لا مـا تّدعى القضبُ وذي المكـارم لا مـا قالت الكتبُ

ولابن القيسرانيّ قصيدة ثانية في هذا الفتح، مطلعها[167]:

تفـي بضـمانها البـيض الحـداد وتقضـي ديْـنَها السـمُر الصِّعادُ

وكـان ابـن منـير الطرابلسيّ أكثر احتفالاً بهذا الظفر، فقد ذكره في غيرما قصيدة، منها قصيدة أنشدها نور الدين في أرض المعركة، أولها[168]:

أقـوى الضـلال وأقفـرت عرصاتُه وعـلا الهـدى وتبلجّـت قسماتُه

وتستمر الحركة الجهاديّة صاعدة في عصر نور الدّين، ويستمر الشّعراء في التغنـي بالانتصارات التي يحرزها المسلمون، وكانت هذه الانتصارات متلاحقة، لذا لـم تعـد القصـيدة الجهادية في هذه المرحلة مُخصَّصة لمعركة واحدة، وإنما غَدَت

سـجّلاً حافلاً للمعارك المظفّرة التي خاضها المسلمون، فإذا ما تغنّى الشّاعر بنصر تداعـى إلـى ذاكـرته سلسـلة مـن الانتصـارات الأخرى كما في قول ابن منير الطرابلسيّ[169]:

ويَـوم " بَسُـوطا" بَسَـطْتَ الحمَـامَ ... علـى الهضْـبِ منْ رُكْنِها فأنْهَدَمْ
وَ " بُصْـرى" و " صَـرْخدَ" لو لمْ تثُرْ ... داركـاً لكانـا رَد يفـيْ إرَمْ
ويـوَم " بَسَـرْ فُـودَ" جَرَّعْـتَهُمْ ... أُجاجـاً أغصَّـهمُ واصْـطَلَمْ
وَفَـوْقَ " العُـرَيمة" غشَّـاهمُ ... عـرامُ جيوشِـكَ سَـيْل العَـرِمْ

وقد تخلّل هذا المدَّ بعضُ الانتكاسات، وكان من أخطرها انهزامُ المسلمين في موقعـة " البقـيعة" قرب حمص سنة 558هـ [170]. وقد اعتذر ابن الدّهان الحمصيّ 582هـ عن هذه الكسرة في قصيدة مطلعها[171]:

ظـبى المواضي وأطراف القنا الذبل ... ضـوامن لـك ما حازوه من نفل

ويواصل صلاح الدّين السَّير على درب الجهاد، ليبدأ المسلمون سنة 583هـ أعظـم هذه الانتصارات، كان أولها استرداد طبرية، وقد قال ابن الساعاتيّ 604 هـ في هذا النصر قصيدة، مطلعها[172]:

جَلَـتْ عـزماتُك الفَـتْحَ المبيـنا ... فقـد قـرَّتْ عـيونُ المسْـلِمينَا

وبعـد هـذه الموقعة احتمى الصّليبيّون بـ "تلّ حطين" ولجأوا إليه، فلاحقهم المسـلمون، والـتقوهم هـناك، وهزموهم[173]. ثم تطلّع صلاح الدّين إلى السواحل الشّـاميّة، ففتح عكا، وصيدا، وبيروت، وتبنين، ويافا، وأرسوف، وغزة، وعسقلان، وغيرها[174]. وقد واكب الشّعراء هذه الانتصارات وتغنّوا بها، بيد أنهم لم يفردوا لكلّ فـتحٍ قصـيدةً، لذا جاءت قصائدهم معرضاً لهذه الحروب المظفّرة، من ذلك الأبيات التالية التي قالها العماد الأصفهانيّ[175]:

وقـد طـابَ ريّانـاً علـى طـبريّة ... فيا طيبَها مغنىً، ويا حُسْنَها مَرْسَى
وعكـا، ومـا عكـا، فقدْ كان فَتْحُها ... لإجلائهـم عَنْ مُدْنِ ساحلهم كَنْسَا
وصـيدا وبـيروتُ وتبنيـن[176] كلّها ... بسـيفك ألفـى أنفهُ الرّغمَ والتَّعْسا
ويافـا وأرسـوف وتبـنى وعـزّة ... تَخذْتَ بها بين الطّلى والظّبا عُرْسا

وفـــي عســـقلانَ الكفـــرُ ذلَّ بملككُـــمْ فمـــنظرهُ، بـــل أمْره أرْبَدّ وأرْجَسَّا

وتـــبلغ الانتصـــارات الصـــلاحيّة ذروتها عند فتح بيت المقدس، ويبلغ شّعر الجهـــاد ذروته كذلك، حيث تسابق الشّعراء، من بلاد الشّام ومن غيرها، لتمجيد هذا الفتح، والتغني به، وتصوير أصدائه في نفوس الأمة[177]. فقد استهلَّ الرشيد النابلسيّ إحـــدى قدسياته بأبيات تعظّم النّصر، وتعبّر عن فرحة الناس به، فتصوّرُهُ أملاً كبيراً طال ترقّب الأمّة له، حتى إنّ بعضَهم قَطَع على نفسه النّذور إذا ما تحقّق[178]:

هـــذا الـــذي كانـــت الآمـــال تنـــتظرُ فلـــيوفِ للهِ أقـــوامٌ بمـــا نَـــذَرُوا
بِمِـــثْل ذا الفَـــتْحِ لا واللهِ مـــا حُكِيَـــتْ فـــي سالفِ الدَّهرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ

وتفـــيض نفـــسُ ابـــن الساعاتيّ بمشاعر الإكبار والإجلال، وأحاسيس النشوة والفرح حين نقل للأمة البُشرى بهذا الفتح[179]:

أعـــيّاً وقـــد عاينـــتُهمُ الآيـــةَ العُظْمَى لأيّـــةِ حـــالٍ نَذْخـــرُ النَّثرَ والنَّظْمَا
وقـــد ســـاغَ فتحُ القدسِ في كلّ منطقٍ وشاعَ إلى أن أسْمَعَ الأسَل الصَّمَّا

وحين نقل العمادُ الأصفهاني نبأ فتح القدس للخلافة العباسية، نوَّهَ بهذا الإنجاز العظـــيم الـــذي حققّـــه صلاح الدين وعجز عنه الآخرون، فدفع به عادية الكفر عن الإسلام والمسلمين[180]:

أَبْشِـــرْ بفـــتحٍ أمـــيرَ المؤمنيـــن أتى وصـــيتُه في جميع الأرض جَوَّابُ
مـــا كـــانَ يَخْطـــرُ فـــي بالٍ تَصَوُّرُهُ واستُصْـــعِبَ الفَتْحُ لمَّا أُغلِقَ البابُ
وخـــامَ عـــنْه الملـــوكُ الأقدمون وقَدْ مَضَتْ على النَّاس من بلواه أحْقَابُ

غـــير أن الصّليبيّين أعادوا الكرّة ثانية، ونفذوا الحملة الصّليبيّة الثالثة صوب القـــدس ســـنة 587هـــ [181]، وقدَ عرَّضَ الرشيد النَّابلسيّ، بالغزاة في قصيدة لم يبق منها إلا ثمانية أبيات تبدأ بقوله[182]:

وَيْـــحَ الفـــرنجة بـــلْ وَيْل أسّهم أوَمَا فـــيهم لبيـــبٌ علـــى العلاتِ يعتبر

وقـــد تصـــدعت صفوف الأمة بعد وفاة صلاح الدّين، وتصارَعَ أبناؤه على السلطة، فوجد الصّليبيّون في ذلك فرصة سانحة لاكتساح بعض المناطق وتدميرها، ففـــي سنة 614هـــ هاجم الصّليبيّون منطقة حوران، وتمادوا في زحفهم إلى الجهات

الجنوبـيّة من بلاد الشّام، مدّمرين كل ما في طريقهم. وقد صور ابن عقيل الزرعي سـنة 622 هـ الخراب الذي أصاب هذه البلاد، وكيف أن أهلها هاجروا منها خوفا من الغزاة، تاركين ديارهم خاوية على عروشها[183]:

جـارَ الـزمانُ علـى سكانِ حورانا ... لا كان دَهْرٌ قضى بالجَورِ لا كانا
أخْـنَى وخـانَ وقـد كان الوفيَّ لهمْ ... لا غـرو للدهر إن أخنى وإن خانا
صـاحَ الجـلاءُ بهـم صوتاً فما لبثوا ... أنْ جَـاوَبُوه جماعـاتٍ ووحدانـا
فأصـبحتْ دِمـناً تلـك الـرّبوع لهم ... وَبُدّلـتْ بَعْدَهُـم بومـاً وغرْ بانا
كـم بين بُصْرى إلى الرّمثا إلى طَفَسٍ ... مـن الخَراب إلى ما حول نَجْرانا
ولسـت أنسـى حِـبالاً والسَّراة وما ... أصـاب مـابَ إلى ما حولَ عمَّانَا
أسـراً وقـتلاً ونهـباً حيـن أذكـره ... يهـيجُ تذكـارُه للقلـبِ أحـزانَا

وفـي سنة 616 هـ استولى الفرنج على دمياط[184]، فقال ابن عقيل الزرعي قصـيدة حـث فيها الملك الأشرف موسى على إرسال المدد لأخيه لإنقاذ المدينة من أيدي الغزاة، ومما قاله فيها[185]:

نـاداك عيسـى فاسـتجب لدعائـه ... أَسْـعِفْه أنـت اليوم أفضلُ مُسعِفِ
لـو[186] أنّـك الدّاعـيه لـبّى مُسرعاً ... بالمشـرفيّة والـرّماحِ الـرعَّفِ
دمـياطُ مِصْـرُ، ومصْـرُ أرمينـيَّةٌ ... والخَصْم أنت، وقد حكمت فأنْصِفِ
أصْـرِخ أخـاك ولا تضـع مـا قاله ... بـتعطفٍ فـي شـعرِه وتلطّـفِ
فهلـمَّ يـا موسـى لعيسـى ناصـراً ... ومحمـد، وانهـض بغـير توقُّفِ

وكان تسليم الملك الكامل القدس للصّليبيّن سنة 626 من أكثر أحداث الحروب الصّليبيّة خطورة، حيث وُقّعَتْ بين الكامل والغزاة معاهدة صلح مدتها عشر سنوات، أخـذ الصليبيّون بمقتضاها القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا، وقد " استعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألّم ما لا يمكن وصفُه"[187]، وعُقِدَ فـي دمشـق مجلس وعظٍ رُثِيَتْ فيه المدينة بقصائد شجيّة، من ذلك قصيدة مشهورة لابن المجاور 643هـ مما قاله فيها[188]:

أعَيْنِـيَ لا تَرْقَـيْ مـن العَـبَراتِ ... صـلي في البُكا الأصالَ بالبُكراتِ

لعــلَّ ســيولَ الدمــعِ يطفــئُ فيضُها توقُّــدَ مــا في القلب من جَمَراتِ
ويــا قَلْــبُ أسْــعِرْ نــارَ وجدِكَ كلَّما خَبَــتْ بادّكــارٍ يبعــثُ الحَسَراتِ

ونــدب أبو محمد عبدالرّزاق الرسعني[189]، المدينة في قصيدة استهلّها بدعوة المســلمين إلــى إعــلان الحــداد وإقامة المآتم على القدس الشريف، مصوّرا هول المصيبة، حتّى إنّ النّاس لا يكادون يُصدّقون ما حدث[190]:

تعــالوا نقيمُ الحُزْنَ في مَجمَعِ الأنسِ ونَصْــبغُ أثــوابَ المصيبةِ بالنَّقْسِ
ونعمــلُ للإســلامِ أعظــمَ مــأتمٍ كما أنَّ عُبّادَ الطواغيتِ في عُرْسِ
مــناماً أرى أم يقظــة مــا ســمعتُه أحقــاً عــبادَ الله أمْ خاننــي حِسّي

وفــي ســنة 637هــ استرد الملك الناصر القدس ثانية من الفرنجة، غير أنّ أصداء هذا الفتح تكاد تكون معدومة في الشّعر الشّاميّ.

وقــت واكــب الشّعر معارك التحرير التي خاضها المماليكُ ضد الصّليبيّين، وعــبَّر الشّــعراءُ عن فرحتهم بالنتائج المظفّرة لهذه المعارك؛ ففي سنة 682 استردَّ الملــك المنصور حصن المرقب، فهنأه الشعراء بذلك، منهم شهاب الدين محمود في قصيدة أوّلها[191]:

الله أكــبر هــذا النصــرُ والظفــرُ هــذا هو الفتح لا ما تزعم السِّيَرُ

وفــي سنة 690 هــ فتح الملك الاشرف عكا[192] موجهاً بذلك الضربة النهائية للوجــود الصليبي في بلاد الشّام، وقد مجّد شهاب الدين محمود هذا الظفر بقصيدة، أوّلها[193]:

الحمــدُ لله زالــت دولــةُ الصــلبِ وعزَّ بالتركِ دينُ المصطفى العربي

ويلاحظ من العرض السابق أن الشّعراء الشّاميّين قد رصدوا أحداث الصراع بيــن المسلمين والصّليبيّين، وأنَّ هذا الرّصَد غدا شبه منتظم بعد أن تزعّم الزنكيّون ردة الفعل الإسلامية، وأنه كلما تصاعدت الحركة الجهاديّة كثر الشّعر.

والســمة العامــة لــنهج الشّعراء في رصد الأحداث أنّهم كانوا يأتون بالمَعْلَم الكبــير للواقعــة، ويرســمون الخطوط العامة لما حدث بالفعل، وقد يقدمون بعض التفصــيلات، مما يكسب هذا الشّعر قيمةً " تاريخةً"، ولكنها تاريخيةٌ ملوّنةٌ، إذ جاءت

ممـــزوجة بمشّـــاعرهم، ومصـــوّرةً للانفعـــالات التي أثارتها الأحداث في نفوسهم، وموجهـــة لتحقيق أهداف الجماعة الإسلاميّة، ومن الأمثلة على ذلك قصيدة ابن منير الطرابلسيّ في معركة إنّب، فقد استهل الشّاعر هذه القصيدة بأبيات تعبّر عن مشاعر الفرح والابتهاج بهذا النصر الذي أعاد للإسلام عصوره الأولى[194]:

أقـــوى الضـــلال وأقفرت عرصاتُه ... وعـــلا الهـــدى وتبلّجـــتْ قســـماتُهُ
وانـــتاش ديـــنَ محمـــدٍ محمـــودُ ... مِـــنْ بعْـــدِ مـــا عُلّـــتْ دماً عَبَراتُهُ
ردَّتْ علـــى الإســـلامِ عَصْرَ شبابِهِ ... وَثَـــبَاتُه مِـــنْ دونـــهَ وَثَـــبَاتُهُ

ويستغرق تمجيد البطل والإشادة به أبياتا كثيرة من القصيدة، حيث خلع عليه الشاعر مجموعة من الفضائل الخلقية والحربية، أمّا الحدث الرئيس في هذه المعركة، وهـــو مقـــتل الـــبرنس صاحب إنطاكية، ورفع رأسه على سنان الرمح، فقد تحدث الشاعر عنه في الأبيات التالية:

وسَـــقىَ الـــبرنْسَ وقـــد تَبَرْنَسَ ذِلّةً ... بالـــرّوجِ مُمْقَر ما جَنَتْ غدراتهُ [195]
ومضـــى يؤنّـــب تحتَ " إنّب" همةً ... أمْسَـــتْ زوافِـــرِ غـــيّها زفـــراتُهُ
أســـدٌ تـــبوّأ "بالغـــرنْف"[196] فَجَأتَـــهُ ... فتـــبوّأتْ طـــرفَ الســـنانِ شـــواتُهُ
دونَ الـــنّجوم مغمّضَـــاً، ولطالمـــا ... أغْضَـــتْ وقـــد كـــرّتْ لها لحظاتُهُ
فجلوتَـــهُ تبكـــي الأصـــادقُ تحـــتَه ... بـــدمٍ إذا ضـــحكتْ له شـــمَّاتُهُ

ولم تفت الشّاعر الّذي عرف خطر هذا القائد الفرنجيّ أن يقارن بين حاله قبل هذه المعركة وحاله بعدها:

مـــا انقـــادَ قـــبلك أنفُـــه بخِـــزامهِ ... كـــلاًّ، ولا همَّـــت لهـــا هَدْراتُـــهُ
طَـــيّان (خَلْف) "السَّرح" طالَ زئيُره ... نَطَقَـــتْ سُـــطاك لهُ فطـــالَ صمُاتُهُ

وتوحي مشاعر الظّفر إلى ابن منير بأن يقول:

الـــيومَ ملّكَـــكَ القـــراعُ قلاعَـــهُ ... متســـنّماً مـــا استشـــرفَتْ شـــرفاتُهُ
وغـــداً تُحِـــلّ لـــك الحلائـــلُ أسهمٌ ... مُـــــتوزعاتٍ بَيْنهـــــنّ بـــــناتُهُ

ويتّضح مما سبق أن ابن منير قد حاول أن يسجل الواقعة في شعره، وأنه أتى بالحدث الرئيس فيها، وأطال الوقوف عنده، وأشار إلى نتائجه إلاّ أنّه صوّر أكثر من

ذلك، فقد صوَّر ابتهاجَ الأمّة بهذا الظفر، وإعجابَه ببطولة نور الدّين، وبغضه الشديد للغزاة مُمَثَّلين في شخص هذا القائد الصريع.

ثانياً: تمجيد أبطال الصّراع

ظهر في بلاد الشّام في القرن السّادس الهجريّ عدد من القادة الّذين أبلوا في جهـاد الأعـداء بلاءً حسناً، واستطاعوا بجهودهم أن يوحّدوا الأمّة ويُعبّئوْا طاقاتها لمواجهـة الغزو الصّليبيّ، بالإضافة إلى قيادة الجيوش والمشاركة الفعلية في القتال، ونلتقـي فـي هـذا العصر ثلاثة من القادة الكبار الّذين أبلوا في جهاد الأعداء بلاءً حسناً، وهم: عماد الدّين زنكي، ونور الدّين محمود، وصلاح الدّين الأيوبيّ.

وقد عني الشّعراء الشّاميّون بتمجيد بطولات هؤلاء القادة، والإشادة بمآثرهم، ولعـلّ أبرز صورة قدّموها لهم هي صورة المجاهد في سبيل الله، وما يقتضيه هذا الجهـاد مـن صفات الشجاعة والإقدام، ولم يكن هؤلاء الأبطال قادة حرب وحسب، وإنّما كانوا رعاة أمة كذلك، لذا حرص الشّعراء على التغني بمزاياهم قادة صالحين، يسهرون على مصلحة الرّعيّة، وينشرون الأمن والعدل في أرجائها.

فقـد صوّر ابن قسيم الحمويّ عمادَ الدّين زنكي قائداً عسكرياً مهيباً، ومقاتلاً صلداً شجاعاً، يفتك بالأعداء، ويسقيهم كؤوس الرّدى يقول[197]:

إذا خطـرَتْ سـيوفُك فـي نفـوسٍ ... فـأوّلُ مـا يفارقهـا الجسـومُ

ولـوْ أضـمَرْتَ للأنـواء[198] حَرْباً ... لمـا طَلَعَـتْ لهيبـتك الـنّجومَ

أيَلـتَمِسُ الفِـرنج لديـك عفـواً ... وأنْـت بقَطـعِ دابـرها زعـيمُ

وكَـمّ جَرَّعـتها غصـص المـنايا ... بَـيومٍ فـيه يَكْـتَهِلُ الفطـيمُ

أمّـا صورته في نفوس الرّعية فهي صورة الملك العادل الذّي طال انتظاره، يقول:

ومـا أحَيَيْـتَ فيـنا العَـدْل حـتّى ... أُميـتَ بسـيفِكَ الزّمـنُ الظّلـومُ

وَصِـرْت إلـى الممـالك في زمانٍ ... بـهِ وبملِكـكِ الدّنـيا عَقـيم

وقد أورد أبو شامة المقدسيّ في كتابه "الرّوضتين" ستّ قصائد قالها ابن منير الطرابلسيّ في مدْح عماد الدّين استوحى فيها القيم والمثل الإسلامية في رسم صورة شخصـيّته، فهو يُضفي عليه في الأبيات التّالية مجموعة من الفضائل المستمدة ممّا

عُـرف عـنه مـن عـدل في الحكم، وشجاعة في القتال، وإخلاص في الدّفاع عن الدّين[199]:

أيـا مُحْيِـيَ العَـدْلِ لمّـا نَعـا ... هُ أيـامى الـبرايا وَأيْـتامُها
وَمُسّـتَنْقذَ الدّيـن مـن أمّـةٍ ... أزالَ المحاريـبَ أصْـنامُها
ولَفّـتَ لهـا تقتفـيك الأسـو ... دُ، والبـيضَ والسُّـمْرُ آجامهـا
جَـزَرْتَ جزيـرتَها بالسّـيو ... فُ، حـتى تشـاءَ مهـا شَـامُها

وَيصـوره فـي قصيدة ثانية سيفاً أصلتَه الله على رقاب الغزاة، وقائداً يتزعّم حركة الجهاد، وحاكماً تقياً يسوس رعيّته بالعدل والإحسان، يقول[200]:

يـا صـارماً بيميـنِ اللهِ قائمُـه ... وفـي أعالـي أعـادي الله حدّاهُ
مَلْـكُ تـنامُ عـن الْفَحْشـاءِ هَمّتُه ... تُقـىً وتَسْـهَر للمعـروف عَيْناهُ
مشـمّراً وبـنو الإسـلام في شُغُلٍ ... عَـنْ بَـدْءِ غَرْسٍ لهم أثمارُ عُقْباهُ
يـا مُحْيِـيَ الْعَـدْلِ إذْ قامَتْ نوادبُه ... وعامِـرَ الجـودِ لمّـامَحَّ مَغْـناهُ

ومـدَح ابـنُ القيسرانيّ عمادَ الدّين زنكي بغَيْر ما قصيدة تغنّى فيها بمنافحته عـن حوزة الدّين، ونوّه بشجاعته وقوّة بأسه، وما يتحلّى به من مهارات قتاليّة، من ذلك قوله[201]:

سَـمَتْ قـبّة الإسْـلام فخْراً بطوله ... ولـمْ يَـكُ يسمو الدّين لولا عمادهَ
وذادَ قسـيمُ الدَّولـةِ ابـنُ قسـيمها ... عـن اللهِ مـالا يُسـتطاعُ ذيـادُهُ
وجامحـةٍ عـزَّ الملـوكَ قـيادُها ... إلـى أنْ ثـناها مَـن يَعِـزَّ قيادُهُ
فَأَوْسَـعَها حـرَّ القـراع مؤيّـدٌ ... بصـير بتمريـنِ الأَلدّ لدادُهُ[202]
كـأنّ سـنا لمْـعِ الأسـنّةِ حَوْلـهُ ... شـرارُ، ولكـنْ فـي يَدَيْهِ زنادُهُ
فاضـرَمها ناريـن: حَـرْباً وخدْعةً ... فمـا راعَ إلاّ سـورُها وانهـدادُهُ

وكان حظّ نور الدّين من تقريظ الشّعراء وثنائهم أكثر من حظّ أبيه، ولعلّ هذا يعود إلى أنّ عماد الدّين كان يمثّلُ شخصيّة الإنسان العسكريّ، والحاكم الحازم الذّي يبـثّ الهيبة دون أن يستهوي الأفئدة[203]، وقد أبرز الشّعراء صفات نور الدّين قائداً عسـكريّاً، ومقاتلاً شجاعاً، وحاكماً عادلاً، وإنْساناً تقيّاً عابداً، فقد خلع ابن القيسرانيّ

عليه مجموعة من الفضائل المستوحاة ممّا عُرف عنه من جهادٍ للنّفس، وإخلاصٍ في التّديّن، وشجاعة في القتال، وعَدلٍ في الحُكْم، وحرصٍ على مصلحة الرعيّة، يقول[204]:

ذو الجهاديـن مـن عـدوّ ونَفْـسٍ ... فَهْـوَ طِـولَ الحـياةِ فـي هيجاءِ
مِـنْ لهُ طاعـةُ الصوارمِ في الحَرْ ... بِ ولَـيُّ الأعـناقِ تحْـتَ اللّواءِ
قـدْ فَضَـحْتَ الملـوكَ بالعَدْلِ لمَّا ... سِـرْتَ فـي النّاس سيرةَ الخلفاءِ
قاسـماً مـا مَلَكْـتَ في النّاسِ حتّى ... لقَسَـمْتَ الـتّقى علـى الأتقـياءِ

ويَعـبّر ابن القيسرانيّ عن مشاعر الجماعة الإسلاميّة حين يثني على الدّور الـذّي اضطلع به نور الدّين في بَعْثِ الأمل في نفوس الأمّة، وتعبئة طاقاتها، والسّير بهـا علـى دَرْب الجهـاد، بعد أن كانت عاجزة عن مواجهة العدوّ حيناً من الدّهر، يقول[205]:

رَدَدْتَ الجهـادَ الصّعْب سهلاً سبيله ... ويَـا طالَمـا أمْسى ومسلكهُ وْعرُ
وأطْمَعْـتَ في الإفرنْج من كان بأسُه ... تَخَـوّفَ أنْ يعـتادَه مـنْهم فِكْـرُ
وأقحَمْتَ جُردَ الخيل أعلى حصونَها ... ولوْلاك لمْ يهجمْ على كافرٍ كُفرُ
ومَـن يدّعي في قتلِكَ الشّرك شِرْكةً ... إذا لـمْ يَكُـنْ عنْد القوافي لهُ ذِكْر

ويَرْسـمُ ابـن منـير الطّرابلسيّ في الأبيات التالية صورة معبّرة لجهاد نور الدّين، فيصوّر الإسلام قَدْ صُوّح نبتُه، فما زال هذا القائد يتعهّده ويذود الأعداء عَنْه، حتىّ أوْرق شجُره، وأيْنَعَ ثمرُه:

وَهَبْـتَ للإسـلامِ وهـو مصـوَّحٌ ... فاهـتزّ أهضـابٌ، ورقّ نجـودُ
لا تَعْـدَ مَـنْ هـذا المقلّـدُ أمّـةٌ ... مُلْقـىً إلـيْه لَرْعـيها الإقليدُ[206]
الـورْدُ قُـرٌّ، والمسـارح رحـبة ... والـرّفْد مَـدٌّ، والظّـلالُ مديـدُ
والمُلـك ممـدود الرّواق منوّر الـ ... آفـاق، وضـّاء المـنى محسـودُ
فـي دولـةٍ مُذْهـبٌ نَشْـرُ ربيعِها ... نُشـرِ الرّفاتُ وأثْمَر الجلمودُ [207]

ويصـوّرُ ابنُ منير نورَ الدين في قصيدة أخرى مجاهداً دفع عن بلاد الشّام عادية الكفر، وحقق لها الأمن والطمأنينة والقوة، يقول[208]:

لقـد ألـبَس الشّـام هـذا الإبـاءُ ... لَبوُسـاً مـن الأمْـن لَيّـناً وَثيْراً

تَدارَكْـــتَ أَرْماقَـــهُ والقلـــوبُ نَوافِـــرُ أن يســـتجنّ الصّـــدورا

وَيَسْـتَوحي العمـاد الأصفهانيّ معاني المدح التي خلعها على نور الدّين من مرافقـته لهـذا البطل، ومعايشته له، وحضوره الغزو معه، لذلك فقد جاءت الأبيات التالية أشبه ما يكون بتقرير عن شخصية نور الدّين وبعض وقائعه [209]:

يـا واحـداً في الفضل غير مُشَارَكٍ أقْسَـمْتُ مـالك في البسيطةِ ثانِ
أحْلـى أمانـيك الجهـادِ وإنّـه لـكَ مـؤذِنٌ أبـداً بِكـلّ أمـانِ
كـمْ بِكْـرِ فَـتْح ولّـدتْ ظباك مِن حَـرْبِ لقمْع المشركينَ عوانَ[210]
كـمْ وقْعـةٍ لكَ في الفرنْجِ حديثها قَـدْ سـارَ فـي الآفـاقِ والبُلدانِ

وَ يَخْلَـع أسـامة بـن مـنقذ على نور الدّين مجموعة من الفضائل الحربية والخلقيّة، فينوّه بجهاده، وعدله، وحبّه للخير، وأناته، بقول[211]:

ملَـكَ عـادلٌ، أناربَـهِ الدّيـنُ، فَعـمَّ الإسـلامَ مِـنْ الشّـروقَ
مَالـهُ عـن جهـاده الكفـرَ والعَـدْ لِ وفِعّـل الخَـيْرات شُـغْلُ يعوقُ
هـو مِـثْلُ الحُسـام: صَـدْرٌ ثقـيلٌ ليّـن مَسُّـهُ، وحَـدٌّ، ذَلـيقُ[212]
ذو أنـاةٍ يخالهـا الغـرُّ إهْمـا لاً، وفـيها حَـتْفُ الأعادي المُحيقُ

وَقـدْ نالَ صلاحُ الدّين من التّمجيد والمَدْحِ ما لمْ تَنَلْه شخصيّة أخرى، وتمثّل الشّـعراء فـيه الفضائل الحربيّة والخلقية مرسومة، وعدّوه نموذجاً للحاكم الصالح، والمجـاهد الشّـجاع، والإنسان التّقي، فقد قدّمه فتيان الشّاغوريّ في الأبيات التّالية حاكمـاً تفاعلـت في نفسه بطولة السّيف، والفضائل الخلقية، ومثالية الحكم، فصوّره قائداً مجاهداً، ومحارباً شجاعاً، وحاكما عادلاً، ونوّه بَمأثرته الكبرى، وهي فتح مدينة القدس، وتحرير المسجد الأقصى المبارك[213]:

أهْـدى صـلاحُ الدّيـن للإسلام إذْ أرْدَى قَبـيلَ الكَفـر مـا لمْ يُكْفَرِ

رَبَّ الملاحـم لـمْ يـؤرّخْ مـثْلها العلمـاءَ قِدْمـاً فـي قديَـم الأعصُـرِ
مِـنْ رامَ مـنْ كـلَّ الملوك مرامَهُ تُخْفِـقْ مسـاعيهِ ويَكْـبُ وَيَعْـثُرِ

يـــا ناصـــرَ الإســـلام فُزْتَ بِمْوردٍ حَسَنِ النَّثَا في [214]العالمينَ وَمَصْدَرِ
الـــبحر أَنْـــتَ لـــكَ السَّـــواحلُ باعثاً سُـــحبَ الجـــبا جـــوداً وقاذف جَوْهرِ
أنْشَـــأتَ ملحمـــةً تُمِـــلّ مقـــاتلُ الْفُرســـانِ بـــالعددِ الـــذي لـــم يُحْصَـــرِ
فلقَـــدْ وأَدْتَ الشِّـــرْكَ يَـــومَ لقيـــتَهم وَغَـــدَوْتَ للإســـلامِ عَيْنَ المُنشِرِ
وأَرَيْـــتَهم لمّـــا الـــتقى الجمعـــانِ بالْســـبَيْتِ المقـــدّسِ هَـــوْلَ يَـــوْمِ المحْشَـــرِ
ورَدَدْتَ ديـــنَ الله بعـــد قطوبـــه بالمسْـــجدِ الأقصـــى بِوَجْـــه مسفِرِ

والصـــورة التـــي رسمها ابن الدّهان الحمصي لصلاح الدّين تتفق والصّورة المثالـــية للحاكم كما تتصورها الجماعة الإسلامية، فقد قدّمه في الأبيات التّالية رجلاً فـــيّاض الـــنّفس بالمشـــاعر الكريمة، وقائداً غيوراً على الدّين والأمّة، ومقاتلاً شديد البأس، صلْب العُود[215]:

كـــريمُ علـــى العافين كالغيث مُسْبلاً شـــديدُ على العارين كاللّيث مُشبِلا
حـــياةٌ إذا يَرْضـــى، حمامٌ إذا سطا قديـــرُ إذا يعفـــو، عفيفٌ إذا خلا
وحُلـــوٌ إذا واليْـــتَهُ لـــذَّ أَرْيُـــه[216] لدَيْـــكَ، وإن عاديـــتَهُ عادَ حنظلا
إذا ســـيفُهُ فـــي الـــرَّوع فارقَ غمده يفـــرِّق مـــا بين الجَماجم والطُّلى
تجمَّـــع فـــيه الـــبأسُ والحلُم والنّدى وضمّ إلى الفضلِ الغزيرِ التَّفضّلا

وارْتفـــعَ العمـــادُ الأصـــفهاني بصلاح الدّين إلى آفاق سامقة في إثر تحريره لمديـــنة القـــدس، فجعلـــه أشـــرفَ من في الأرض، وأكرم الخَلْق، وتغنّى بمكارمه ومزاياه، وصوّره مَلَكاً مؤيّداً بملائكة السّماء، يقول[217]:

رأيْـــتُ صلاح الدّين أفْضَلَ مَنْ غدا وأَشْرفِ مَنْ أضحى وأكرم من أمْسى
وَقـــيلَ لـــنَا في الأرض سبعةُ أبْحرٍ ولسْـــنَا نـــرى إلاّ أنامِلَـــه الْخَمسْـــا
ســـجيّتُهُ الحُسْـــنى، وشيَمتُه الرِّضاَ وَبطْشـــتُهُ الكـــبرى، وهمّـــتهُ القعسْا
جَرىَ بالذّي تَهْوى القضاءُ وظاهَرَتْ ملائكـــةُ الرّحمن أجنادَكَ ألْحُمْسا [218]

وتَسْتشـــير الأَمجـــاد الحربيّة الّتي أَحْرَزها صلاحُ الدّين مشاعَر الإعجاب في نفس الرّشيد النّابلسيّ، فيتغنّى بها غناءً حماسيّاً يضفي على ممدوحه هالةً من العظمة والمهابة، يقول[219]:

أيّهـا النّاصـر الـذي خـذل الشر ك، فمـا يَسْـتَفيقُ بَؤْسـاً وضَـنْكا
والّـذي مـدّه إلا لهُ بُقـدْسٍ نَهكـتْ قـوةَ الضـلالةِ نَهْكـاً
مـا تـراهُ العَضْـب المهـنّد حـداً أنْـتَ أمضى شباً وأسْرَعُ بَتْكا[220]
مـا عسـاهُ الطـودُ الأشـمّ ثـباتاً أنْـت أسْـمى هضْـباً وأمتن سَمْكا
قـد قَتَلْـتَ الـزّمانَ يـا مَلْكَ خبراً وَعَرَكْـتَ الأيّـامَ بالـرّأي عَـرْكا

وَيغْـدو صلاحُ الدّين لدى عبدالمنعم الجلياني رمزاً من رموز الإسلام، ويرى في جهاده استمراراً لجهاد الصحابة في نشر الدّين الحنيف، وتبليغه للنّاس، يقول:

أبـا المظفّـرِ أنْـتَ المُجْتَبى لهدى أخْـرى الـزّمانِ علـى خُـبُرٍ بخبَرتهِ
فلـو رآك وقَـدْ حُـزتَ العُلى عُمَرٌ فـي قلةِ [221]التّلّ قضى منْ كنْ عَبْرتَهِ
ولـو رآك وأهـل القـدسِ في ولهٍ أبـو عبـيدة فـدّى مـن مَسـرّتهِ
غِـداةَ جـزّوا النّواحـي في قُمامتهِ وأعْولـوا بالتّباكـي حَـوْل صَـخْرَتهِ
دَارَتْ بـك الملّةُ الحُسْنى فَنَحنُ على عَهْـد الصّـحابة في استمرارِ ملّتهِ[222]

ونَفَـدَ الشُـعراء مـن خلال مدحهم لصلاح الدّين إلى مَدْح بني أيوب عامة، والتغنّـي بـبطولاتهم، والتّنويه بجهادهم لأعداءِ الأمّة، من ذلك الأبيات التّالية الّتي يرسم فيها فتيان صورة لفروسيّة الأيوبيّين، ويمجّد جهادهم[223]:

ألا إنمّـا أبـناء شـاذي ضـراغمُ لهـا بيـنَ آجـامِ الـرّماحِ زئيرُ
إذا ركـبوا خلـتَ الـدّروعَ علـيهم سـحائبَ لاحَـتْ تحتهُـنّ بدورُ
وإنْ حَمَلـوا خلْـتَ الأعـادي لدْيهم بغاثـاً، وهَـمْ فوق الجيادِ صقورَ
هـمُ القـومُ كـلّ القـوْمِ بأساً ونَجْدةً صـغيرَهم فـي المكـرماتِ كبيرِ

ولـمْ يُغْفِل الشّعراء الشّاميّون الدّور الذّي اضطلع به القادة الآخرون في جهاد حملة الصّليب، فقد أثنى ابن القيسرانيّ على الجهود الّتي بذلها تاج الملوك بوري في تحصـين دمشـق وتقويـتها من أجل صد الاعتداءات الصّليبيّة عنها[224]، وأعجب العـرقلة الكلبيّ بقيادة مجير الدّين أبق صاحب دمشق، وأشاد بُحُسْن بلائه في جهاد حملـة الصّـليب الذّين كان قد استفحل شرُّهم[225]، ونوّه أسامة بن منقذ بجهاد معين الّدين أنر إثر الهزيمة الّتي ألحقها بالصّليبيّين في بصرى وصرخد[226]،ومدح العماد

الأصفهانيّ أسد الدّين شيركوه بغير ما قصيدة، ممجّداً بطولته في جهاد حملة الصّليب، ومصوّراً فتكهُ بهم، وتقتيله لهم[227].

فإذا ما انتقلنا إلى الشّعر الذّي مجّد البطولة والأبطال في القرن السّابع الهجري فإننّا نلاحظ أنّه لم تعد هناك شخصيّة محوريّة كنور الدّين أو صلاح الدين تستقطب أنظار الشّعراء، بل تعدّدت هذه الشخصيّات، وأخذ كلّ ملك من ملوك الأيوبيين يواجه الفرنجة منفرداً في علاقات عسكريّة أو سياسيّة فيها المدّ والجزر، ومن هؤلاء القادة الّذين أشار الشّعراء بأمجادهم العربيّة الملك الأشرف موسى؛ فقد مدحه راجح الحليّ في قصيدة نوّه فيها بجهاده في سبيل الله، مبيناً أنّ مكّة المكرمة تعتزُّ بجهاده، ويعدّ الذّود عن بلاد الشّام ذوداً عن الديار الحجازية، ويصفه بأنّه مجير للدّين، ومطفئ لنار الكفر، ويشبه بالنبي موسى- عليه السلام- في ضربه طريقاً في البحر لإنقاذ قومه من الهلاك، يقول[228]:

جهادٌ به عزّت أباطح مكّةٍ ... وسرّت بما لله فيك من السّرِ
ذَبَبتَ عن البيت الحرامِ ويثربٍ ... وعند أُناسٍ أنّ ذلك عن مصرِ
أكان لهذا الدّين مَلْكٌ يُجيرُهُ ... سواك، ويُجري ما حَوَيْتَ من الأجرِ
فكانت لموسى ضربةُ البحر آيةً ... وكانت لك الآيات في البّر والبحرِ

ومن القادةِ الذّين مَدَحهم راجح الحلّي الملك الكامل الأيوبّي مشيداً بدوره في طمأنة الأمّة وبث الشّعور بالثقة والأمن في نفوسها، ومقارناً بين هذا الملك وغيره من الملوك الّذين يختلقون الأعذار لإبرام الصلح مع الفرنجة، وعقد المعاهدات، يقول[229]:

سكنتَ هذا الدّهر في حركاتهِ ... مِنْ بعدما كادت تغول غوائلُ
وقطعتَ كيدَ الشركِ منتظراً له ... يوماً، وَوَصْلُ الحقِ فيه تَواصُلُ
في حين تنقاد الملوك أذلّةً ... ويحولُ عن دين النّفاقِ مُختالِ

ومدح الشّاعر نور الدّين الإسعرديّ الملك الناصر يوسف عند عودته من قتال الفرنجة، في المنصورة سنة 648هـ، ووصفه بأنّه حمى الإسلام من طغيان الشّرك، وأنّ ملّة الدين الحنيف قد عزّت به، كما ذلّت به الفرنجة، يقول[230]:

حَمـــى حمى ساحة الإسلام حين محا الطغيانُ، فالشرك لم يثبت له هُضُبَ
عـــزّت بـــه ملّـــة الدّين الحنيف كما ذلّـــت بصـــولتهِ الأوثـــانُ والصلبُ

وهكذا فإننا نرى أنّ شعر المدح المرتبط بأحداث الصراع في القرن السّابع لم يعـــد وقفاً على بطلٍ بعينه، وإنّما تعددت نماذج البطولة، كما رآها الشّعراء، لذا فإننا نجد أنفسنا في هذا الشّعر أمام معانٍ مكرره معروفة قد تداولها الشعراء من قبل.

ثالثاً- دَوُر الشّعر في المواجهة

تَعـــدَّى الشّـــعراء الشّـــاميّون في القرن السادسِ الهجري مهمّة النقل والسّردِ لأحـــداثِ الصـــراع إلى اتخاذ مواقف تُساند الأمّة في المواجهة العسكريّة ومن هذه المواقـــف وضـــع الصراع في إطاره الإسلاميّ الشامل، باعتباره صراعاً بين أمّتين مختلفتين في العقيدة، ومِنْ هنا فإنّ هذه المشاعر الإسلامية الدّافقة الّتي غمرت شعر المدح، اتخذت أنماطاً شتى من أنماط الصّور والتعابير.

فقد عَرَّضَ ابن القيسرانيّ بمعتقدات الصليبيّين وذلك عندما تحدّثْ عن انتصار المسلمين في معركة الرّها[231]:

لقـــد كـــان فـــي فـــتح الـــرّهاءِ دلالةٌ علـــى غيرِ ما عند العُلوجِ اعتقادُه
يُـــرَجّونَ مـــيلادَ ابـــن مـــريم نُصرةً ولـــم يغـــنِ عـــند القومِ عنه ولادُهُ

ونَقَـــل ابنُ منير الطرابلسيّ الصراع العسكريّ إلى تَصارع العقائد حين مَجَّدَ انتصار المسلمين في معركة إنّب، وذلك إذ يقول[232]:

أقـــوى الضـــلالُ وأقفَـــرتْ عَرَصاته وعـــلا الهـــدى وتبلّجـــت قسماتُه
وانـــتاش ديـــنَ محمّـــدٍ محمـــودُه مـــن بعـــد مـــا عُلّت وماً عَبَراتُه

وإثـــر الانتصـــارات المتتالـــية التي حقّقها نورُ الدّين، مَثّل ابُن منيرٍ الإسلام شخصاً يكاد يُقبل الأرضَ الّتي يسير عليها هذا البطل المجاهد، حيث قال[233]:

فلـــو قـــد مُـــثّل الإســـلامُ شخصـــاً لرشّـــفَ مـــا وطئـــتَ من السّلام

والمعـــركة في شعر أسامة بن منقذ معركة بين حزبين: " حزب الله" و"حزب الكفرِ والطغيان" وذلك حين يقول[234]:

بـــكَ قـــدِ أعـــزَّ الله حـــزبَ جـــنودهِ وأذلَ حـــزبَ الكَفـــر والطّغـــيان

ومَـنْ أهـداف هذا الصراع تحرير " بيت المقدس" من الغزاة غير المؤمنين الذّين عطّلوا الشّعائر الإسلامية فيه[235]:

ونـرتجعَ القـدسَ المطهّـر مـنهمَ وُيتْلى بإذنِ اللهِ في الصَّخرةِ الذّكرُ

ويستبين القارئ في الأبيات التالية، الطابع الدّيني الذّي أضفاه فتيانُ الشّاغوريّ على معارك التحرير التي خاضها صلاح الدّين[236]:

وكـم قلعـةٍ انكحتَها السّلم [237]عاصماً وطلقـت مـنها بعد عصمتها الكفرا

فغـنىّ بهـا الإسـلامُ رافـع صَوته يُغـرّدُ، والأعـداءُ تـنظرها شزرا

وجاشـت جيوشُ الشّرك تطلب ثأرها لديـك فكـانوا الهَدْيَ ينتظرُ النّحرا

وصـوّر عبدالمـنعم الجليانـي الحماسة الصّليبيّة التي اضطرمت في نفوس الفـرنجة إثـر استعادة المسلمين لمدينة القدس، والبواعث الدينيّة التي كانت تحفزهم على التطلّع إلى احتلال هذه المدينة مرّة أخرى وذلك إذ يقول[238]:

لمّـا سـبي القدسَ قالوا كيف نتركها والـربّ فـي حضـرةٍ منها تَمثُلُهُ

فكـم ملـيكٍ لهـم شقّ البحارَ سرى لِينصـروا القـبرَ والأقـدارُ تخذلهُ

ومـن المعانـي الّتي كثيراً ما تلقى الدّارس لشّعر المدح التفاتُ الشّعراء إلى الماضـي، واسـتحياء بعض المواقف الّتي تتبوّأ مكانة سامية في التراثِ الإسلاميّ، ومقارنـتها ببعض الوقائع والشخصّيات الإسلاميّة في عصر الحروب الصليبيّة، فقد أوحـى انتصـارُ المسلمين في الرّها إلى ابن القيسرانيّ بانتصار المسلمين في "بدر" فربط بينهما إيماناً منه بأن كلتيهما نصر للإسلام، وفي ذلك إذ يقول[239]:

للهِ أيّـة وقعـة بدريّـة نصـرت صـحابتها بأيمن صاحبِ

وأمدّكـم جـيش الملائـك نصـرةً بكتائـب محفوفـةٍ بكتائـب

ونُحـسّ فـي الأبيات التالية المشّاعر الإسلاميّة الفّياضة الّتي أوحت إلى ابن السّاعاتيّ بـأن يقـرنَ القدسَ بالدّيار الحجازية، ويصّور فرحَ النّبيّ، عليه السلام، بتطهير "بيت المقدس"، من أدران الشرك، وذلك إذْ يقول[240]:

وقـد شـاعَ فتحُ القدسُ في كلّ منطقٍ وشـاعَ إلى أنْ أسْمَع الأسلَ الصُمَّا

حَـبَا مَكّـةَ الحسْـنى وثـنّى بِيَثْربٍ وأطـربَ ذيّـاكَ الضّريحَ وما ضَمّا

واستثارةً للمشاعر الإسلاميّة اعتبر ابن السَّاعاتيّ الفتحَ الصَّلاحيَّ لمدينة القدسِ مكمّلا للفتحِ العُمَريِّ للمدينةِ ذاتها، وذلك إذْ يقول[241]:

هو الفاتحُ البيتُ المقدّس بَعدما تحامتْه ساداتُ الدُّنا ومسودها
فضيلة فتحٍ كان ثانيِ خليفةٍ مِنَ القومْ مبديها وأنت مُعيدها

وكأنما أراد الشعراءُ " بإقامة الرّوابط ما بين الحاضرِ والماضي الإسلاميّ المجيد الغنيّ بشخصيات فذّة، استثارة إيحاءات فكريّة وعاطفيّة في نفوس المسلمين جميعاً، والمقاتلين منهم بصورة خاصّة، بسبب ما تتركه هذه الإيحاءات من أثر فاعل في النفوس"[242].

وقد ردَّدَ الشّعراء ذكْرَ "الصّليب"، في قصائدهم كثيراً، ولا غرو في ذلك؛ فهو شعار الحرب الّتي شنّها الغزاة على ديار الإسلام، حَيْثُ كانوا يحملون هذه الصلبان معهم في المعارك، استثارةً وتحريضاً. فقد صوَّر ابن القيسرانيّ فرار الأعداء عندما غزوا دمشق سنة 523هـ، مخلّفين "الصليب الأكبر" وراءهم، وذلك في قوله[243]:

فغادروا أكثر القربان وانجفلوا وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا

وتحدث ابن أبي الحكم الأندلسيّ عمّا كانت تضمه معسكرات الفرنجة حول دمشق سنة 543هـ من خنازير وقرابين وصلبان حاولوا رفعها على المساجد الإسلاميّة[244]:

وبينَ خيامهم ضمُوا الخنازر والقرابينا
ورايات وصلبان على مسجد خاتونا

ولِفَرطِ تشبث هؤلاء الغزاة بـ " الصليب"، فقد نعتهم الشّعراء بـ "عبّاد الصليب"[245]:

وسلْ عنه عبّادَ الصّليب، وخيلُه سواهمُ، ومَنْ تحتَ العجاج لها نحطُ

وجنودُهم " جنودُ الصّليب"[246].

كتائبُ ترمي جنودَ الصّليبِ منها بتقطيع أصلابها

وغـدا تكسـيرُ "الصـليب"، رمزاً لتفوّق المسلمين وهزيمة المعتدين، كما في قول سعادة الأعمى[247]:

قَصَـمْتَ بـه صلبَ الصليب ورُعتَه وشـهّدته لمّـا غفـا فتشـهّدا

وقول أسامة[248]:

فضـربتهم ضـرب الغرائبِ واضعاً بالسّـيف مـا رفعـوا من الصُّلبانِ

كمـا غـدا الحديـث عـن تحريـر البلدان الإسلاميّة مرتبطاً بتطهيرها من "الصّلبان"، كما في قول الحافظ ابن عساكر[249]:

وطَهِّـرْ المسـجدَ الأقصـى وحَوْزَتَهُ مـنَ النجاساتِ والإشراك والصُّلبِ

وقول العماد[250]

نفـى مـن القـدسِ صلباناً كما نُفيت مـن بيـتِ مكَّـة أزْلامٌ وأنْصابُ

وضِـمْنَ إطارِ الحرب العقائديّة، ذكر الشعراءُ كثيراً ممّا يرتبطُ بالحياة الدّينية عـند حملـة الصّـليب، مـثل: "الكـنائس"[251] و "الرّهـبان"[252]، و"النّواقيس"[253]، و"البطاركة"[254]، و القساوسة"[255].

وفـي مقـابل ذكر هذه الألفاظ المرتبطة بمعتقدات الصليبيّين، ذكر الشعراء كلماتٍ إسلاميّة ذات دلالات خاصّة، فكثيراً ما ربطوا ما بين إبطال "الناقوس" وإحياء "الأذان" للتعبـير عـن عـودة الأرض إلـى الحظيرة الإسلاميّة، من ذلك قول ابن منير[256]:

ومـا خطـرتْ بـدارِ الشّـرك إلاّ هـوى الـناقوسُ وارتفـع الأذيـنُ

وقول العماد[257]:

وقـد شـاعَ فـي الآفاق عنك بشارةٌ بـأنّ أذان القـدسِ قـد أبطل النّقسا

وتبدو صورة الصّراع العقائدي بين الفريقين في هذه الأبيات الّتي صوَّر فيها الرّشيد النابلسيّ مدينة القدس بعد تحريرها[258]:

يـا بهجـةَ القـدسِ إذْ أضـحى بـه علـم الإسـلام مـن بعـد طيّ وهو منْتَشِرُ

يـا نـورَ مسجده الأقصى وقد رُفُعتْ بَعْـدَ الصـليب بـه الآياتُ والسّورُ

شـتّان مـا بيـن نـاقوسٍ يُـدانُ بهِ وبيـنَ ذي منطق يُصغي له الحجرَ

الله أكـــبرُ صـــوتُ تقشـــعرُ لَـــهُ شُـــمّ الـــذّرى وتكاد الأرض تنفَطِرُ

وإذ يضع الشّعراء الصراع في إطاره الإسلاميّ الشامل، فإنّهم لم يكونوا أُمناء علـــى الـــتّاريخ فحســـب، وإنّمـــا كانوا يُحقّقون أهدافاً ذات صبغة عملية تتمثل في اســـتقطاب الأمّة الإسلاميّة كافةً على درْب الجهاد[259]، وتبدو أهمية ذلك في مجتمع مثلِ المجتمع الشّاميّ الّذي تعدّدت الأجناس الّتي يتكونُ منها.

ومـــن المواقـــف التي اتخذها الشّعراءُ الحثّ والإثارة، وبثّ دعوة الجهاد في الأمة، والدعوى إلى الوقوف في وجه العدوان، وتحرير البلاد الإسلاميّة، وقد بدأت دعوة الشعراء إلى مواجهة العدوان منذ وقتٍ مبكرٍ، واتخذت هذه الدّعوة في مرحلة الهـــزائم طابعاً بكائياً يقوم على استثارة المشّاعر من خلال تصوير ما حلّ بالمسلمين مـــن ويـــلات علـــى أيدي الغزاة، من ذلك الأبيات التالية التي قالها شاعر لم تذكر المصادر اسمه[260]:

أحـــلّ الكفـــر بالإســـلامَ ضَـــيماً يطـــولُ علـــيه للديـــن النحيـــبُ
فحـــقٌ ضـــائع، وحمـــىً مـــباحٌ وســـيفٌ قـــاطعٌ، ودمٌ صـــبيبُ
وكـــم مـــن مســـلمٍ أمســـى ســـليباً ومســـلمةٍ لهـــا حَـــرمٌ ســـليبُ
أمـــوُر لـــو تأمّلَهـــنّ طَفْـــلٌ لَطَفَّـــلَ فـــي عوارضِـــه المشيبُ
فَقُـــلْ لـــذوي البصـــائرِ حيـــثُ كانوا أجيـــبوا اللهَ، ويحكـــمُ أجيـــبوا

غـــير أنّ هـــذه الـــنزعة البكائيّة سرعان ما تلاشت بعد أن تزعم عماد الدين زنكـــي حـــركة الجهـــاد، وحلّت محلّها نغمة أخرى تتّسم بالقوة، وتعبّر عن الشعور بالـــثقة. فقد عبّر ابن القيسرانيّ لعماد الدين عن آماله باستنقاذ الثغور الشّاميّة، ورسم صورة مشرفة لهذه الثغور وقد أزيح عنها الاحتلال، وذلك إذ يقول[261]:

لا فارقـــتْ ظـــلَّ محيي العدل لامعةٌ كالصّبحِ تَطْوي من الأعداء ما نشروا
ولا انثـــنى النصُـــر عن أنصار دولتِه بحيـــث كـــان، وإن كانوا به نُصِروا
حـــتى تعـــود ثغـــور الشّـــام ضاحكةً كأنمـــا حـــلّ فـــي أكـــنافها عُمَـــرُ

ويتطلع ابن منير الطرابلسيّ إلى تحرير المسجد الأقصى بعد أن رأى العزيمة المصممة لعماد الدين[262]:

وغـــداً يُلْقَـــى علـــى القـــدس لهـــا ككْـــلٌ يدرسُـــها دَرْسَ الدَّريـــنْ [263]
همـــة تُمســـي وَتضْـــحَى عـــزمة لـــيس حصـــنٌ إن نَحَـــتْه بحصـــين

وتلهج ألسنة الشّعراء بالاستثارة والتحريض في عهد نور الدين، ومن هؤلاء الشـــعراء ابـــن القيسّرانيّ الذي لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده الجهاديّة من الدّعوة إلـــى تحرير القدس والسواحل الشّاميّة. فقد صوّر تصويراً موحياً ترقُّب القدس ليوم الفـــتح، مستنهضـــاً بذلك همة نور الدين لاستنقاذها، واستنقاذ بلاد الساحل، وذلك إذ يقول[264]:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ يولـــيك أقصـــى المنى فالقدس مرتقِبُ
وأئـــذَنْ لموجـــك فـــي تطهـــير ساحله فإنّمـــا أنـــت بحـــرٌ لجَّـــهُ لجِـــبُ

ويـــنظر ابن القيسرانيّ، بعد معركة إنَّب إلى المستقبل من خلال ثقته بعزيمة ســـيده نـــور الديـــن بتفاؤل وأمل كبيرين، فيمثّل له دخوله المسجد الأقصى مجاهداً، فيحررّه، ثم يتوجه إلى استرداد السواحل الشّاميّة، وذلك إذ يقول[265]:

كأنـــي بهـــذا العـــزمِ لا فُـــلَّ حَـــدُّهُ وأقصـــاه بالأقصى وقد قُضي الأمرُ
وقـــد أصـــبح البيـــتُ المقدسَّ طاهراً ولـــيس سوى جارى الدماءِ له طَهْرُ
وقـــد أدَّت البـــيضُ الحِـــدادُ فروضها فـــلا عهـــدةٌ في عنق سيف ولا نَذْرُ
وصـــلَّتْ بمعـــراج النبـــيِّ صـــوارمٌ مســـاجدُها شـــفعٌ وســـاجدها وَتْـــرُ
وإن يَتَـــيَمَّمْ ســـاحلَ الـــبحر مالكـــاً فـــلا عجبٌ أن يملك الساحلَ البحرُ

وبعـــد أن انتظم عقدُ ملكِ مصر والشّام لنور الدين، تعالت صيحات الدعوة إلـــى الجهاد، وتحرير الأرض، وأن لم يعد ثمة عذر في ترك الأرض تحت سيطرة الغزاة. من ذلك قول الحافظ ابن عساكر مخاطباً نور الدين[266]:

ولســـتَ تُعْـــذَرُ فـــي ترك الجهاد وقد أصـــبحتَ تملـــك من مصر إلى حلبِ
وصـــاحبُ الموصـــلِ الفـــيحاءِ مُمْتَثِلٌ لمـــا تُـــريدُ فـــبادرْ فجـــأة الـــنُّوَبِ
فـــالجَدُّ والجِـــدُّ مقـــرونان فـــي قَرَنٍ والحزم في العَزْم والإدْراكَ في الطلبِ
وطهِّـــر المســـجدَ الأقصـــى وَحُوْزَتَهُ مـــن النَّجاســـاتِ والإشراك والصَّلبِ

ويـرى العماد الأصفهاني 597هـ أنّ الفرصة، بعد توحيد مصر والشام، قد أصبحت سانحة لحطم جموع حملة الصليب، واستنقاذ القدس منهم[267]:

أُغـزُ الفـرنجَ، فهـذاَ وقْتُ غزوِهِمُ ... احطـم جموعَهـم بـالذابل الحَطِـمِ
وَطهِّرِ القدسَ من رجس الصليب وثِبْ ... علـى الـبُغاثِ وثـوبَ الأجْدل القَطِمِ
فمُلْـكُ مصـر وملـكُ الشّام قد نُظِما ... فـي عقْـدِ عّـزٍ على الإسلام مُنْتظمِ

ويواصل صلاح الدين السَّير على درب الجهاد، ويكثر إلحاح الشّعراء عليه، وتحريضـهم إيـاه علـى القتال وتطهير المسجد الأقصى المبارك، ويضرب العماد الأصـفهاني بسـهم وافـر في ذلك، إذ إنّه لم يدع مناسبة تمردون أن يستحثّ فيها صلاح الدين على تحرير الأرض المحتلة، من ذلك الأبيات التالية التي يحرضه فيها علـى تقتـيل الصليبيّن، والفتك بهم، وتطهير القدس من أوضارهم، وتخليص البلاد الإسلامية منهم[268]:

فَسِـرْ إلـى القـدسِ واسْـفِكْ بـه ... دمـاءً مـتى تُجْـرِها يَـنْظَفِ
وأهـدِ إلـى الإسـبتارِ البـتارَ ... وهـدَّ السـقوف على الأسقف [269].
وخلِّـص مـن الكفـر تلـك الـبلادَ ... يُخلّصـكَ اللهُ فـي المَوْقـفِ

ولـم يقتصـر العماد في الحث والتحريض على القصيد، بل ألف كذلك لنور الديـن "رباعـيات" فـي معـنى الجهاد، ولعلّ هذه الرباعيات كانت تعبّر عن روح الجماعـة الإسلامية زمن الحروب الصليبيّة، وربما كان الجند ينشدونها وهم يقاتلون لاسـتحثاث أنفسـهم على الحركة والنشاط، ومن اجل استثارة الحميّة والحماسة في قلوبهم. من ذلك قوله[270]:

لا راحة لي في العيش سوى أن أغزو ... سـيفي طَـرِباً إلـى الطُّلـى يهتزّ
فـي ذلّ ذوي الكفـر يكـون العـزُّ ... والقُـدْرة فـي غـير جهـادٍ عجْزُ

واستثارة لمشاعر صلاح الدين، فقد صورّ له تقيّ الدين عمر، صاحب حماة، القدس "عروسا" تُزَفّ إلى من يخلّصها من الأعداء، ويصون شرفها ويفتكّ لأسرها، وذلك إذ يقول[271]:

جـاءتك أرض القـدس تخطب ناكحاً ... ياكُفْأهـا مـا العُـذْرُ عن عذرائها
إيـهٍ صـلاحَ الديـن خُذْهـا غـادةً ... بكـرا، ملـوكُ الأرض من رُقَبائها

كـــم خاطـــبٍ لجمالهـــا قـــدْ ردّه عـــن نـــيلها أنْ لـــيس مـــن ألفائها

ولـــم يـــنفك الشّعراء الشّاميّون، بعد معركة حطين وفتح القدس، يحثّون على استئصال الوجود الصّليبيّ من السواحل المحتلّة، وخاصة مدينة صور التّي أصبحت مكان تجمُّعٍ للصّليبيّين الذين تدفّقوا إليها. فقد دعا العماد الأصفهاني صلاح الدّين إلى إنهاء الاحتلال الصّليبيّ لسواحل الشّام كافةً، وأنْ لا يبقي أحداً من الغزاة فيها، وذلك إذ يقول[272]:

قُـلْ للملـيك صـــلاحِ الدّيـــن أكرم منْ يمشـــي على الأرض أومن يركب الفَرسا
مِـــنْ بعـــدِ فتحك بيت القدس ليس سوى صـــورٍ، فـــإن فُتحـــت فاقصد طرابلسا
أثِـــرْ علـــى يـــومِ أنطرســـوس ذا لجبٍ وابْعـــثْ إلـــى لـــيل أنطاكـــية العَسَسَـــا
واخْـــلِ ســـاحلَ هـــذا الشّـــام أجمّعـــه مِـــنَ العُـــداةِ ومَـــنْ في دينهِ وكَسَا [273]

ويستشـــعر عبدُالمنعم الجلياني الخطرَ المحدقَ بالقدس عندما عزم الصّليبيّون علـــى قصـــدها فـــي حملتهم الثالثة، فيستنهض همّة صلاح الدّين لحمايتها والدفاع عنها[274]:

فحـــامِ عـــن حوطَةِ البيتِ المقدّسِ لا خَوْفٌ، وحاشاك منْ خَوفٍ ولا ضررُ
هـــو الشـــريف وقـــد ناداك معتصماً فمـــا علـــى مَجْـــدِه مـــن بَعْدِها حَذَرُ

واســـتمّر الشّعراء في التحريض على الجهاد بعد عصر صلاح الدّين، داعين القـــادة المسلمين إلى الانتقام من الأعداء، والفتك بهم، وتحرير ما تبقى من الأرض فـــي أيديهم. من ذلك قول ابن عقيل الزرعي مخاطباً الملك المعظم عيسى بعد فتحه بانياس[275]:

هـــم شـــيدوا بـــاطلاً فاهدم قواعَدهُمْ وأضـــرموا قبســـاً، فابعـــث لهم شُهَبا
وفـــرقوا الســـهم، فاجعلهم له غرضاً وأضـــرموا الـــنار، فاجْعَلْهم لها حَطَبَا
قـــد كنتَ ترعى لهم حتىَّ الجِوار وَقدْ جـــاروا، فـــلا تَرْعَ من أسبابهمْ سَبَبَا

ومـــن المواقـــف التـــي تنـــبّه إليها الشّعراء الشّاميّون في سياق الدور الّذي اضـــطلعوا بـــه فـــي دعم الأمة ومواجهتها العسكريّة، ما يطلق عليه اليوم "الحرب النفسية". فقد أدرك الشّعراء أهمية هذه الحرب في رفع معنويات الأمة ودعم جبهتها الداخلـــية، لذلك تعدّوا نقل الأحداث في إطارها المجرّد إلى تقديمها في صور تبعث

علـــى الـــثقة وتحقّـــق أغراض الجماعة الإسلاميّة. فقد استوحى الشّعراء قوله عليه السلام: " نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر"[276]، عندما صوروا الفزع الذي تثيره سمعة جيوش المسلميّن في قلوب الأعداء، من ذلك قول منير الطرابلسيّ:

إنْ ســـارَ ســـارَ، وقَـــدْ تقَّـــدم جيشُه رَجْـــفٌ يُقصِّـــع فـــي اللّهـــا دُعَّارَها

ويجرّد ابن القيسّرانيّ من الخوف والذعر سرايا تنهض نحو مواقع العدوّ بعد أن تنثني سرايا خيل نور الدين من العبث فيها[277]:

وإذا ســـــرايا خـــــيلِهَ قَفلَـــــتْ نَهَضَـــتْ ســـرايا الخَـــوْفِ والذُّعْـــرِ

وتقويـــة لمعنويّات الأمّة، لم يفتأ الشّعراء يهدّدون الأعداء بهذه الجيوش كلّما استشعر قوتّها، فقد انتشى ابن السّاعاتيّ 604هـــ بالنّصر الذي أحرزه المسلمون في حصـــن المخـــاض، فهـــدّد الأعداء هاتفاً في وجوههم: أنّ هذه الدّيار ليست بدياركم فاخرجوا منها[278]:

أيَسْـــكنُ أوطـــانَ النبيّـــن عصـــبةٌ تميـــنُ لـــدى أيمانِهـــا وهـــي تَخْلفُ

نصـــحتَكم، والنُّصْحَ في الدّين واجبٌ ذَرُوا بيـــتَ يعقـــوبٍ فقد جاء يوسفُ

ويـــندفع ابـــن الدّهان الحمصيّ 581هـــ إلى وعيد الأعداء الذين ظنّوا أنّهم آمـــنون لـــبُعد ديارهمْ، فيهدّدهم ببأس صلاح الدّين وسطوته الّتي بإمكانها أن تقتحم عليهم هذه الدّيار[279]:

لا يَغْـــرُرَنّ الـــرّومَ بُعْـــدُ ديـــارهمْ إنّ الخلـــيج لديـــك أقـــربُ مَشـــرعِ

لـــو أنّ مِـــثْلَ الـــبَحْر ســـبعة أبْحـــرٍ مِـــنْ دونهـــمْ وأرَدْتَهـــمْ لـــمْ تُمْـــنَعِ

وترسيخاً للاطمئنان في نفوس الأمّة، فقد تغنّى الشّعراء بانتصارات المسلمين، وتحدّثوا عنها بلهجة ملؤها الثقة بالنّفس، وقدّموها في إطار من التفاؤل والاستبشار، فقد عدّ ابن القيسرانيّ انتصار المسلمين في الرّها سنة 539 هـــ مطلع فجر جديد في مواجهة الغزو الصليبيّ[280].

فـــتحُ الفـــتوحِ مبشّـــراً بـــتمامهِ كالفجـــر فـــي صـــدر الـــنّهارِ الآيبِ

وعـــبَّر ابن منير الطرابلسيّ عن ابتهاج المسلمين باستعادة مدينة الرّها، وذلك إذ يقول[281]:

فَـتحْ أَعـادَ علـى الإسـلامِ بِهْجـتهَ فَافْـترّ مَبْسـمُهُ واهـتزَّ عِطْفـاهُ

وحين تغنَّى شهاب الدّين محمود بطرد الفرنجة من عكّا، عدَّه فتحاً لم يكن له مثـيل مـن قـبل، لذلـك فإنّ النّثر والشّعر عاجزان عن تصوير عظمته، وإدراك حقيقته[282]:

يـا يـوم عكّـا لقد أُنسَيتْ ما سبقت بـه الفـتوح ومـا خـطّ في الكُتُبِ
لـم يـبلغ النّطق حدّ الشّكر منك فما عسـى يقـوم به ذو الشّعر والخطبِ

وكمـا تغنَّى الشّعراء الشَّاميّون بالانتصارات، فإنهم اعتذروا عن الهزائم التي مُنـي بها المسلمون، وقللوا من شأنها. فعندما قُتل السلاَّرقول سنة 501هـ هبَّ ابن الخيّاط الدمشقي يدفع عن المسلمين ثقل الحادثة، ويثبّت قلوبهم، ويشد أزرهم؛ فأطلق لسانه بإنذار الصّليبيّين وتهديدهم بأن يوم الثأر قريب، وأن الأيام المقبلة ستكون حرباً عليهم، وذلك إذ يقول[283]:

لا يُطْمـعُ الأَعـداءَ يـومُ سـرَّهم إنّ الـرَّدى فـي طيّ ذاك المَطْمَعِ
الـثأر مضـمونُ وفـي أيمانـنا يبـيض كخاطفـة الـبروق اللمَّعِ
قـد آن للدّهـر المضَـلّ سـبيلَهُ أن يسـتقيم علـى الطّريق المَهْيَعِ
مسـتدركاً غلـط الليالـي فـيكمُ متنصِّـلا مـن جُرمها المُسْتَفْظِعِ

وعـندما هُـزم المسـلمون في معركة البقيعة سنة 558هـ قال ابن الدّهان الحمصـي قصـيدة اعتذر فيها عن نور الدين ومدحه. وقد استهل الشاعر قصيدته بأبـيات تحدّث فيها إلى ممدوحه، ورسم الطريق إلى إدراك الثأر ، ونزّهه من عار هذه الهزيمة، وجعلها قدرا مقدوراً[284]:

ظُـبى المواضي وأطراف القنا الذّبلِ ضـوامنٌ لـك ما حازوه من نفلِ
ومـا يُعيـبكَ مـا نـالوه مـن سَلبٍ بالخَـتْل، قد توتر الآسادُ بالحيلِ
وإنّمـا اخلـدوا جُبْـناً إلـى خُـدَعٍ إذْ لـم يكـن لهم بالجَيْش من قبَلِ
واسـتيقظوا وأراد اللهَ غفلـتَكَمْ ليَـنْفُذَ القـدرُ المحـتومُ في الأزلِ

وحتى لا تضعف هِمةَ المسلمين، ولا تنكسر قلوبهم، فإن الشاعر- على الرغم من اعترافه بغلبة الأعداء- يستصغرهم، ويستصغر النصر الذي حققوه، ولا يراه شيئاً كبيراً:

بني الأصيفر ما نلتم بمكركمُ والمكر في كلّ إنسان أخو الفشلِ
وما رَجعْتُمْ بأسرى خاب سعيكمُ غير الأصاغرِ والأتباع والسَّفَلِ
سَلبتمُ الجردَ مُعْراةً بلا لُجُمٍ والسُّمَر مركوزةُ، والبيض في الخِلَلِ

وتثبيتاً للمسلمين، يضرب ابن الدهان لهم المثل بما كان للرسول عليه السلام وأصحابه في يوم حنين:

لهم بيومِ حُنَيْنٍ أسوةٌ وهمُ خَيْرُ الأنامِ وفيهم خاتمُ الرسلِ

وقد بذل الشعراء الشّاميّون وسعهم في الإزراء بالصليبيّين وقيادتهم، والاستهانة بأمرهم، والانتقاص من قدرهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزائم. فقد صورّ ابن قسيم الحموي بأسلوب ساخر الحيرة التي وقع فيها ملك الروم عندما رأى جيوش عماد الدين[285]:

وأبصر في المفاضة منك جيشاً فأحْرن لا يسيرُ ولا يقيمُ

وبأسلوب تهكّمي لاذع يصوّر ابنُ منيرٍ الطرابلسيّ أرض أنطاكية تنبذ أميرها لما رأت ظلمه لها، وعجزه عن الدفاع عنها[286]:

لما وعاها سَمعَ أنطاكيّةٍ سَرتِ الوقارَ، وكَّشفت أستارَها[287].
فاليوم أضحت تستذمُّ مجيرَها مِنْ جَوره، وغدت تذمّ جوارَها
علمت بأن ستذوقُ جرعَة أختها إنْ زرَّ أطواقَ الخِباءِ وَزَارهَا

وَيَصِلُ الاستخفاف والاستهانة بجند الأعداء الغاية في قول فتيان الشاغوريّ[288]:

لمّا سَبَيْتَ نساءَهم وقتلتهم ودَّ الذكورُ بان تكون إناثا

التحذير من الخطر الصليبي

وينبغي ألاّ يُظنَّ أن الشّعراء إذ يستهينون بالعدو ويقللون من خطره، أنهم بذلك حجبوا عن أعين الأمة ما يخفيه المستقبل من أخطار، وأوهموا المسلمين أن

التغلب على العدو كان أمراً ميسوراً، وإنّما كانوا في الوقت نفسه مدركين أطماع هذا العدو وأهدافه، وداعين إلى الوقوف في وجهه بقوة وحزم، لذلك فإن الموقف التالي الـذي تبـنّوه إزاء الصـراع هـو: تحذير المسلمين من الخطر الذي يمثّله الوجود الصليبي على الإسلام: عقيدة وإنسانا وأرضاً. فقد كان ابن القيسّرانيّ على وعي تامّ بالعداوة المتأصلة في نفوس حَمَلة الصّليب على الإسلام وأهله، فصوّر تحفزهم على قتل المسلمين وامتلاك أموالهم عندما غزوا دمشق سنة 523هـ [289]:

سَـرَوا لينتهـبوا الأعمـارَ فانتُهـبُوا قـتلاً، ويغتنموا الأموال فَاغْتُنِمُوا

ووجّه ابنُ قسيم الحمويّ الأنظار إلى أطماع ملك الروم في امتلاك بلاد الشّام كلّها عندما هاجم شيزر، وحاول احتلال حماة سنة 532هـ [290]:

ومـا جـاءَ كلـبُ الروم إلاّ ليحتوي حماةَ، وما يسطو على الأسد الكلبُ
أراد بهـا أن يملـك الشّـام عـنوةً وقـد غُلبت عنه الضراغمةُ الغُلّبُ

ويصوّر ابن منير الطرابلسيّ خطورة هؤلاء الغزاة الوافدين على جماعة المسلمين، حتى كادت البلاد تخلو من أهلها لولا دفاع نور الدين عنها[291]:

لـو لـم يقـم منصـلتاً دونـه لـم نلـق فـي أقطارهـا سـلما

وإيماناً من ابن منير بوحدة الأرض الإسلاميّة، لم ينفكّ عن تبصير المسلمين بأنّ هذا العدّو سيدهم العراق[292]، وأنّه يشكلّ خطراً على الديار الحجازية[293]:

لـو لـم يكـن دون مِنىً فات المُنى وأُقْعِـد الفائـزُ مـن قوامِهـا
وامـتكَّ مـاءَ مكـةٍ وراضـعٌ يقصـرُ بـاعُ الدهـرِ عن فطامِها
وصـار كالجَمْـر الجمـارُ وخـلا مـن أهلـه الأشـرفُ مـن مقامِهاُ

وصـدق ابن منير، فقد طمع الغزاة في غزو الديار المقدسة، وعقدوا العزم علـى قصـد المسـجد النبوي الشريف، إلاّ أن وقوف صلاح الدّين في وجوههم، وتصدّيه لهم قد وضع حدّاً لأطماعهم، وفي ذلك يقول ابن السّاعاتيّ[294]:

لـولاك أمَّ البيـتَ غـير مُدافـعٍ وأسـال سَـيْل نـداه في بطحائِهِ

وقـد عـبَّر عبدالمـنعم الجلياني تعبيراً صريحاً عما كان يضطرم في نفوس الغزاة من كراهية شديدة للمسلمين، حتى أنهم طمعوا في أسرهم وسبيهم، فاصطحبوا

معهم التجّار ليبيعوهم في أسواق النّخاسة، كما صوّر الشاعر مطامعهم التي لا حدود لها في امتلاك الديار الإسلاميّة، وانتهاب خيراتها، وفي ذلك إذ يقول[295]:

أَتَـوْا بجَـبال[296] أُبرمـت لإسـارنا فَسُـقْناهُمْ فـيها قطيـناً مجـدَّدا
وسـاموا تِجـاراً تشـترينا غوالـياً فبعـناهمُ بالرّخص جهراً على الندا
وقـد أُقْطِـع الكـندُ العـراقَ موقّعاً فَـأُودِعَ سِـجْناً وسط جلّق مؤْصَدا
وأقسـم أن يَسْـقيْ بدجلـة خـيلَه فمـا ورد الأردنَّ إلاّ مصـفَّدا

الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة والوحدة

أدرك الشّـعراء الشّـاميّون أنّ ضعف المسلميّن وتفرقهم كان هو الباب الذي ولـج مـنه الغزاة إلى ديار الإسلام، ومن ثّم تعالت دعواتهم إلى الأخذ بأسباب القوة والوحدة، إيماناً منهم بأن ذلك هو السبيل الوحيد لصدّ المعتدين، وتحرير البلاد منهم. وقد اتّخذت هذه الدعوات مظاهر شتى، منها استهلال القصائد الجهادية بمطالع تمجّد القـوة، وتتغـنىّ بهـا. فعندما فتح عماد الدين زنكي الرّها سنة 539هـ مدحه ابن القيسـرانيّ بقصيدة افتتحها ببيت مجد فيه الاحتكام إلى السيف في مقارعة الأعداء، وتأسيس الدول[297]:

هـو السَّـيف لا يغنـيك إلاّ جـلاده وهـل طـوّق الأمـلاك إلاّنجادُه

وعـندما هُـزمَ المسلمون في حصن البقيعة سنة 558هـ استهلّ ابن الدهان الحمصي قصيدته التي قالها في الاعتذار عن هذه الهزيمة بمطلع بيّن فيه لنور الدين أنّ القوة هي السبيل لإدراك الثأر من الأعداء[298]:

ظُـبى المواضي وأطراف القنا الذُّبل ضـوامنُ لـك ما حازوه من نَفَلِ

ويستوحي فتيان الشّاغوريّ أجواء الانتصارات التي أحرزها المسلمون بقيادة صـلاح الديـن سـنة 583هـ فيستهلّ قصيدة قالها في تلك المناسبة بمطلع يوحي بشعور الغلبة، وبالإيمان بالقوة سبيلاً إلى بناء الممالك واحتيازِها[299]:

تُبْـنى الممـالكُ بالوشـيحِ الأَسْـمَرِ والبـيضُ تلمع في العَجاجِ الأَكْدرِ

وقـد أخـذ الشّـعراء الشّاميّون يقارنون بين أحوال بلاد الشّام، وهي ضعيفة مفككـة، وأحوالها بعد أن تحّصنت بالقوة، ويوجّهون أنظار الأمة إلى المكاسب التي

تحققــت لهم جرّاء الأخذ بأسباب القوة، فهذا ابن القيسرانيّ يقارن بين عهدين: عهد نــور الدّيــن الذي، سَهّل للمسلمين طرق الجهاد، وكسر حاجز الخوف في نفوسهم، وعهد الحكام الّذين تخاذلوا عن مواجهة العدو[300]:

رَدَدْتَ الجهــادَ الصــعب سَهلا سبيلُه ... ويــا طالمــا أمسى ومسلكهَ وعْرُ
وأطْمَعــتَ في الإفرنج من كان بأسه ... تخــوّف أن يعــتاده مــنهم فِكْــرَ
وأقحمــت جردَ الخيلِ أعلى حصونها ... ولــولاك لم يهجم على كافرٍ كُفْرُ

وحين أشاد أبو المرهف النميرى- 588هــ بصلاح الدّين، رسم صورة زاهية لمــا آلــت إلــيه بــلاد الشّام بعد أن تولّى هذا القائد أمرها، وشد عراها، وحصّن نواحيها[301]:

ولمــا ملكــتَ الشّــام عــزّتْ ربوعُه ... ونــال المُــنى ســكانُه والمؤمّلا
أزلــتَ بــهِ الــتكديرَ مــن كل مَوْردٍ ... وأخْصَــبْتَ مِنْه كلّ ما كانَ أمْحَلا
وأضــحى بــك الإســلام عزةَ جانبٍ ... كــأنّ له فــوق المجّــرة مُعْــتلَى
شَــدَدْتَ عُــراةُ بَعْــد طول انفصامِها ... وحصّــنت منه كلّ ما كان مُهْمَلا

غير أن الشّعراء الشّاميّن رأوا أن هذه القوة لا تستكمل بغير الوحدة الجامعة بيــن أنحاء بلاد الشّام وغيرها من البلاد الإسلاميّة، لذلك لم يفتأوا يحثّون الأمة على ضــمّ صفوفها، وحشد قواها لمواجهة العدو والمشرك. فقد كتب أسامة بن منقذ إلى أبــي الغارات طلائع بن رزّيك قصيدة دعاه فيها إلى موالاة نور الدين، ومعاضدته، وشدّ أزره[302]:

وَأشْــــدُدْ يديــــك بــــودّ نــــور ... الدّيــــن، وألْــــقَ بــــه الــــرِّجالا
فهــــوَ المُحامــــي عــــن بــــلا ... دِ الشّــــام جَمْعــــاً أنْ تُــــذالا

وقد حثّ العرقلة الكلبي 567هــ نور الدّين على قصد مصر، ولم يَر أنّ ثمة مجالاً للتباطؤ عنها[303]:

إلــى كــم ذا التوانــي فــي دمشــقٍ ... وقــد جــاءتكمُ مصــرٌ تَهــادَى
عــروسٌ بعلُهــا أســدٌ هصــورٌ ... بعــيدُ المعتديــن ولــنْ يُصــادا
ألا يــا معشــر الأجــناد ســيروا ... وراء لوائِــهَ تَلْقَــوا رشَــادا

وعـــندما تـــمّ لـــنور الديـــن توحيد مصر والشّام ابتهج الشّعراء، وعدّوا ذلك نصرا للإسلام، من ذلك قول العماد الأصفهاني[304]:

فملـــك مصـــرَ وملـــك الشّام قد نُظما ... فـــي عقـــد عزٍ من الإسلام منتظمِ
والســـنّة اتّســـقَتْ، والـــبدعة انمحقتْ ... وعـــاودت دولـــةُ الإحسان والكرمِ

ولما دبّ الشّقاق بين أفراد البيت الأيوبيّ، واستحكمت الوحشة بينهم بعد وفاة صلاح الدين، نهض الشّعراء الشّاميّون يدعون إلى نبذ الخلاف، ومن هؤلاء الرشيد النابلســيّ الــذي قال قصيدة ذكر فيها ما جرى بين الأيوبيين، وربأ بهم أن ينقسموا على أنفسهم، وأن تتفرق كلمتهم هذا التفرق المنكر[305]:

لـــم يكـــن لائقـــاً بـــنجل صـــلاح الدّيـــن حـــالٌ معذوقـــة بفســـادِ
حـــاشَ لله مـــا عهدنـــا الـــنجوم الزهـــر يُدْعـــى لشـــملها بـــبدادِ
أرأيـــت الأشـــبال يخـــرج يومـــاً ... خُلُقُهـــا عـــن خلائـــقِ الآســـادِ
أيمـــا والـــدٍ بِـــهَ رحـــمْ الله الـــبرايا وأيمـــا أولادِ

ويســـتجيش الرشـــيد النابلســـيّ مشاعر بني أيوب، فيذكّرهم بوشائج القُرْبى، مضمّناً ذلك دعوة إلى نبذ الخلاف، وتسخير قوتهم لجهاد الأعداء:

آل أيـــوب طـــال بـــاع المعالـــي ... إنْ جنحـــتم لـــرقّة الأكـــبادِ
جـــرّدوها عـــزائماً قاطعـــاتٍ ... لـــيس تَمْضَى السيوفُ في الأغمادِ

لا تَـــنُوا فـــي رعايـــة الديـــن والدُّنـــيا بـــذبٍ عـــن الهُـــدى وذيـــاد

وقصـــيدة الرَّشـــيد تمثّل حرصه على وحدة الجماعة الإسلامية، وإخلاصه لها تمثيلاً صادقا، ولكن هذا الصوت قد ضاع في غمار الخلافات التي استطاع شرّها بين ذوي القُرْبى.

تـــمَّ فـــي الصـــفحات الســـابقة دراسة عدة جوانب من جوانب قصيدة المدح المتصـــلة بالحـــروب الصّـــليبيّة، وهـــي: مواكبة الشعر لأحداث الصراع، وتمجيد البطولة، ودور الشّعر في المواجهة. وقد بينت الدراسة أن الشّعراء الشّاميّين واكبوا الحـــروب الصـــليبيّة فـــي مراحلها المختلفة، بيد أن هذا الشّعر كان قليلاً في مرحلة الهـــزائم، وأنـــه كلمـــا ســـارت الحـــركة الجهادية صعداً تبارى الشّعراء في تمجيد الانتصـــارات والتغني بها، حتى غدا كثير من قصائدهم معرضا للانتصارات التي

أحـــرزها المسلمون في سياق حركة الجهاد، وليس تصويراً لمعركة معينة، مما حال بينهم وبين الولوج في طبيعة كلّ معركة، ليقدّموا وصفا تفصيلياً لها.

وبينت الدراسة أن الشّعراء الشّاميّن نقلوا صورة أمينه للصراع، حين قدّموه فـــي إطاره الإسلامي الشامل، لذلك كثرت في قصائدهم المعاني المستمدة من عقائد المتحاربين. وظلّت أنظار الشّعراء تستشرف المستقبل، فكلّما تحقق نصر رتّبوا عليه نصـــرا آخر، ومن ثمّ لم يوفروا جهدا في الحثّ والتحريض، ودعوة الأمة لمواصلة الجهاد لتحرير البلاد. وطمأنةً لجماعة المسلمين ودعماً لمعنوياتهم، فقد قدم الشعراء الانتصـــارات الإسلامية في غاية الفرح والاستبشار، كما اعتذروا عن الهزائم الّتي منـــي بها المسلمون، وقللوا من شأنها، وهدّدوا الصّليبيّن، وأزروا بهم، وحطّوا من قدرهـــم. غـــير أنّهـــم- في مقابل ذلك- لم يغفلوا أخطارَ الغزاةِ وتهديداتِهم للإسلام: عقـــيدةً وإنســـاناً وأرضـــاً، لذا دعوا إلى الأخذ بأسباب القوة والوحدة الجامعة التي تُحصّن الأمة، وتحميها.

الفصل الثاني

المدح التقليدي

كـــانَ المـــدحُ مـــن الموضـــوعات الأثيرة لدى شّعراء الشّام زمن الحروب الصليبيّة، فقد استفرغ الشّعراء كثيراً من أشعارهم في تقريظ حكّام البلاد، ووزرائها، وقضـــاتها وعلمائها، وأعيانها، وقد كانت الحروب الصّليبيّة أحد المؤثّرات الرئيسية في المدح، حتّى غدا لدينا نمطان منه.

الأوّل المـــدح الحماسيّ الّذي يرتبط بأحداث الصراع ارتباطاً مباشراً، ذلك أنّ الشّعراء الذين وصفوا الوقائع الحربيّة كانوا ينظرون إلى قصائدهم على أنّها قصائد مـــدح يتغنّون فيها بالفضائل الحربيّة والخلقيّة للبطل الممدوح، ويصفون الأحداث من خلال دوره فيها.

والثّانـــي المـــدح التقلـــيدي الـــذي كان يُنْشد في المناسبات العامّة، والخاصّة، وهو موضوع الحديث في هذا الفصل.

ويُلاحظ أنّ المدح بنوعيه قد قلَّ القولُ فيه في الرّبع الأوّل من القرن السادس الهجـــريّ، وأنّ جُلّ المدائح كانت في حكّام دمشق آنذاك، وأنّ أكثرها كان للشاعر ابـــن الخيّاط الدمشقيّ؛ ولعلّ هذا يعود إلى الهزائم المتلاحقة الّتي مُنيت بها الأمّة في تلـــك الفـــترة، وافتقاد الشخصيّة التي تستهوي الشّعراء، وتستقطب اهتمامهم؛ لذا فقد انـــتعش المـــدحُ الحماســـيّ ونما في ظلّ الزنكيّين، وتكاثر وازدهر بنوعيه في بلاط الأيوبيّين.

وقـــد استوعبَ الشّعراءُ الشّاميّون في مدائحهم المثُلَ التي تقوم عليها المَدحة العربيّة، وأوّل ما يُعرَضَ له من هذه المدائح تلك التي قيلت في ملوك البلاد وقادتها، وتكـــاد تتمـــثّل فـــيها جميعاً المُثُل والقيم نفسُها، فقد مدحهم الشعراءُ رعاةً للمسلمين يسوســـون الأمّـــة بالعدلِ ويحكمونها وفق دستور الشّريعة، ومدحوهم قادةً للجيوش وأبطالاً لمعارك الجهاد، ومدحوهم في أنفسهم وأخلاقهم ومن هذه المدائح ما قاله ابن الخيّاط الدمشقي في تاج الملوك بوري مشيداً بِكرَمه، وشجاعته، وسموّ أخلاقه، وعلوّ همتّه، وعفتّه[306]:

إذا نحــنُ قُلْــنا الــبدْرُ والبحرُ والحيا فقــد ظُلمــت أوصــافه غايــةَ الظُّلــم
وأيْســـر حـــقٍ للمكـــارمِ عـــندهُ إذا هــو عــدَّ الغُــرْمَ فــيها مِنَ الغُرْمِ
يَــروحُ ســلوباً للــنُّفوسِ مَــع الوغى ويغــدو ســليباً للثــناء مــع السِّــلم
ولا يَعْــرفُ الإحجــامَ إلاّ عــن الخَنا ولا يُــنْكِرُ الإقــدامَ إلاّ علــى الــذّمِ
خفــيفٌ إلــى العلــياءِ والحمدِ والنّدى ثقــيلٌ عَــنِ الفحشــاءِ والبغــي والإثمْ

ويَكبرُ ابن الخيّاط في تاج الملوك جهاده للغزاة وغَنَاءِه في حربهم[307]:

مكــابدُ أيّــام الجهــادِ وَموئــل العــبادِ وحاميــهم وقــد قــلّ مِــنْ يحمــي
ومقْــتَحِمُ الأجــبال يَــوْمَ تمنّعَــتْ ذَئــابُ الأعــادي فــي ذوائــبها الشُمِ
غــداةَ يغــورُ السَّهمُ في السَّهمِ والقنَا بحيــثُ القــنا، والكلْمُ في موضعِ الكلْمِ

ويُــنوِّه ابــن الخــيّاط في قصيدة أخرى بدولة تاج الملوك التي كَفلت للرّعيّة الأمن الشّامل، والعيش الرَّغد، وذلك إذ يقول:

أمّــا الــزّمانُ فقــد أضــحى بدَولــتِه نصْراً حكى الرَّوْضَ، والطّلاب قد نجحُوا
والعيشُ متّســـعٌ، والأمْــنُ مُقْتَبَــلٌ واللّهــو مُسْــتَخْلَصٌ والهــمُّ مُطَّــرَحُ

وَتقِــلَّ المدائــحُ التقليديّةِ في الزنكيين بصورة تسْترعي النّظر، ويبدو أنَّ نورَ الدّين لم يكن يحبّذها ويشجّع عليها[308]، إلاّ أنّ هذه المدائح قد تكاثرت وازدهرت في بــلاط بني أيوب، وهي مدائح أكثر من أنّ يُحاط بها في هذا الموضع، ومن الشعراء الذّيــن أسهموا في مدح ملوك الأيوبيين العمادُ الأصفهاني، وفتيان الشّاغوريّ، وابن السّــاعاتيّ، فقــد ذكر أبو شامة المقدسيّ فيما ينقله عن كتاب " البرق الشاميّ "، أنّ العمــاد الأصــفهاني مــدح الملــك تقيّ الدين عمر بقصيدة سينيّة تشتمل على مائة وأربعيــن بيــتاً أنشدها إيّاه في ثالث رمضان سنة 582هــ[309]، ولم يورد أبو شامة مــنها إلاّ سبعة وعشرين بيتاً جَّسد فيها العمادُ المثاليّه الحربيّة والخلقيّة للممدوح، إذ وصفه بالشجاعة الفائقة، والبأس الشديد، والكرم الفيّاض، والرأي السديد، وميّزه عن غيره من الملوك الآخرين في المبادرة إلى الانتصار للحقّ والذود عنه. يقول:

إذا صــال فــالمغلولُ ألــفٌ مدرَّعٌ وإن جــاد فالمبذولُ ألفٌ مكيَّسُ [310]
ولــيس بِمغــبونٍ علــى فضل رأيه و يَغْبــنُ فــي الأموال منْه ويُبْخسُ

إذا أطلــقَ الملك المظفَّرُ في الوغى أعنَّــتهَ، فالشَّــمس بالــنَّقع تُحــبَسُ
فِــداكَ ملــوك لا يلــبّون داعــياً وكلُّهــمُ عــن دعوة الحَق يُخنِسُ [311]

ويشيد العمادُ بالدّور الذي اضطلع به تقي الدّين عمر، وغيره من بني أيوّب، في جهاد حملة الصليب:

لهــم كــلَّ يــوم فــي جهادِ مُثلّثٍ إذا نصروا التوحيدَ فيءٌ مخمّسُ [312]
إذا مــا تقــيّ الدينِ صالَ تساقطَتْ لأقدامــهِ منْ عصبْةِ الشّرك أرْؤُسُ
ومــــا عمــــرٌ شــــبيهُ سَــــمِيِّهِ شديدٌ على الأعداء ثبتٌ عمرَّسُ [313]

ومدح العمادُ الأصفهاني عزّ الدّين فرّوخ شاه، ابن أخي صلاح الدّين بقصيدة مطوّلــة أثــنى فيها على شمائل الممدوح، وصوّره كريماً مطبوعاً على فعل الخير، وملاذاً للسّائلين والمحرومين، وهادياً مرشداً للضالّين، يقول:

ملــك يجيــبُ خطــابَ كــلّ مؤملٍ ويجــيرُ من عضّ الخطوبِ العُضَّه [314]
مــنْ لــم يُجــبْ بسوى نَعَمْ سؤّالهُ ولمُعْتفــيهِ بلاولــن، لــم يَجْــبَه
مُــتكرِّمٌ بالطّــبعِ لا مُــتكرِّهٌ شــتّانَ بيــنَ تَكــرُّمٍ وتكــرُّهِ
بِــيَديهِ نُجْــحُ المُرْتَجــي، وإلــيهَ قصْــدُ المُلْتَجــي، ولديْــهِ رُشــدُ الأتْــيَهِ

وينفذ الشاعر من الثناء على فرّوخ شاه في ذاته، إلى تقريظ بني أيوب كافّة، فإذا همْ قومُ أجواد، تفيض نفوسهم بالمشاعر الكريمة، فحازوا بذلك المراتب الرفيعة الّتي قصرَّ عن بلوغها غيرهم، يقول[315]:

أنــتمْ بنــي أيّــوب أكْــرَمُ عصبةٍ هــذا الــزّمان بفخــرِ سؤددهم زُهي
عَذُبــت مواردكُــم وطابــتْ للورى وصــفت، فلــم تأسن، ولمَ تَتَسنَّه [316]
مــا يدّعــي ملــكُ بلــوغ محــتمِ إلا لغــول له مســاعيهم: صَــهِ

ومدَحَ فتيان الشّاغوريّ كثيراً من ملوك الأيوبيّن، وقد أسّس مدائحه لهم على ما تحلّتْ به شخْصيّاتهم من مزايا وفضائل، وما تَمتّعتْ بهِ دُولهُم منْ قوّةٍ ومَنعة، وما أُثِرَ عنْهم من شجاعة وإقدامٍ في ميادين الجهاد، وما امتازوا بهِ من عدالة في سياسة الرّعيّة، ومن أمثلة ذلك قصيدة قالها في الملك الأمجد صاحب بعلبك، مطلعها[317]:

ضُــربَتْ لزينــبِ بالغُوَيْــرِ خــيامُ مغلــى الغوَيــر[318] وســاكنيه ســلامُ

والقصيدة أشْبه ما تكونُ بخطبةٍ يُمجّدُ فيها الشّاعرُ الملك الأمجد من خلال تمجيده لدولته التي أرسى أركانها على قاعدة منَ القوّة، يقول:

هي بَعْلَبَكٌ سَمَتْ بمجْدُ الدّين بَهرَم شاهَ دانَ لشَأوهِ بَهْرامُ [319]

فجنودُهُ الأُسْدُ الضّواري ما لها ... إلاّ القنا يومَ الوغى آجامُ

وجيوشه كالرّمحِ وهو سِنانُه ... عن قَلْبِ جيْشٍ مالهُ إحْجَامُ

تَبْكي عيونُ الشّرك منه لَفتكه ... بالمشركين ويضحك الإسلامُ

ويستمرّ الشّاعر على هذا النّحو من المدح، ويخلص منه إلى الإشارة بعناية الممدوح بالرّعيّة، والتنويه ببلاغته وفصاحته، يقول:

يا ذا الأيادي البيض والمننِ الّتي ... تَحْيا بها الفقراءُ والأيْتَامُ

لله رَبّك صلّ وانْحَرْ مُخْلصاً ... فلشانئيك الذلّ والإرْغامُ

وبِكَفّكَ القلمُ الّذي دانَتْ لهُ ... شرقاً وغرْباً في العُلا الأقلامُ

ثم يْستأنف الشاعرُ التغنّي بدولة الملك الأمجد، مُنوّها بازدهارها فيقول [320]:

لك دولةٌ دُوَلُ الملوك بأسْرها ... في كلّ مكرمةٍ لها خُدّامُ

أعضاؤها متناسباتٌ في العُلا ... مثْلُ الفرائدِ زانهنّ نِظامُ

ومدح فتيانُ الشّاغوريّ الملكَ الظاهرَ غازي بالشجاعةِ الفائقةِ والنّوال الغَدْق، والجهاد المخلصِ، يقول[321]:

إذا ما غياثُ الدّين غاث بجودهِ ... جَرَتْ فوق أُكُم[322] المعتفينَ سيولُ

مواهبُه كُوْم الذّرى وسلاهبٌ ... ففيها رغاء مُطربٌ وصهيل [323]

إذا ما غزا غازي الأعادي فكلّهمُ ... بغاثٌ [324]عليها بالبُزاةِ يصولُ

به نُصِرَ الإسلامُ حتّى كأنّما ... أتى النّاسَ من بعدِ الرّسول رسولُ

وطُلّ دمُ الأعداء حتّى ديارُهُمْ ... رسومٌ عواف بَعدْهمْ وطُلولُ

ومِنْ مَدّاحي بني أيوب ابنَ السّاعاتي، فقد أثنى في إحدى قصائده على عدلِ الملك الأفضل، وحُسْنِ قيامِه على شؤون الرعيّة، وأجلّ كرمه وشجاعته، وبَجّل أخلاقَه وشمائله، يقول[325]:

عادِلُ حُكْمهُ على الخَطْبِ عادٍ ... كافلٌ همُّهُ البَريّةِ كافِ

هــو فــي السِّــلم والوغى واهبُ الآ لاف جـــــوداً وهـــــازمُ الآلافِ
مـــانحٌ معتفـــيه مـــالَ الأعـــادي أيّ مُحْـــــيٍ وأيُّمـــــا مـــــتْلافِ
كفُّــه والحســامُ غيْــثُ علــى الأبــ ـــطــالِ يســطو بِــبَارقِ خَطّــافِ
طاهـــر الخِـــيم [326]والخَلائـــقِ والأفعـــالِ زاكـــي الفـــروع والأوصـــافِ

ويَرسم الشّاعر صورة زاهية لدمشق في ظلّ هذا الملك:

أصْـبَحتْ جلّـقٌ بـــه جـنّة الخلـــ ـــدِ وباتَـــتْ فســـيحةَ الأكْـــناف
لا تـــرى غـــيرَ عيـــنِ مـــاءٍ بهـــا نجـــلاءَ فـــي وجْـــهِ روضـــةٍ مئْـــنَاف[327]

ويعطـــفُ الشّـــاعر فـــي قصيدتهِ على بني أيّوب عامةً، فيمدَحهم، ويبالغ في بعض هذا المدْح مبالغةً ظاهره:

إنّمـــا أنـــتمُ لـــنا يـــا بنـــي أيْـــ ـــــوبَ رُكْـــنٌ نَؤُمّـــه بـــالطّوافِ
طُلْـــتُمُ العالميـــن أصْـــلاً وفـــرْعاً بقديـــمٍ مـــنْ مَجْدكـــمْ أو مُضـــافِ
ووجـــوهٍ مخلوقـــةٍ مـــنْ حـــياءٍ ونفـــوسٍ مـــن جَوْهـــرٍ شَـــفَّافِ

ومـــن الشّعراء الّذين مدحوا بني أيّوب ابن عُنين، ومن مدائحه قصيدة توسّل بها إلى الملك العادل أن يأذن له بالعودة إلى دمشق؛ استهلّها بقوله[328]:

مـــاذا علـــى طـــيف الأحبَّة لو سرى وعلـــيهم لـــو ســـامحوني بالكَـــرَى

وقد رفَع الشّاعر في قصيدته الممدوح مكاناً عليّا، فجسّد في شخصيته نموذج الملـــك العادل الذي يتّصف بالعفو والحلم، والقائد المظفّر الذي يتحلّى برباطةِ الجأش وثبات القلب واليقظة ونفاذ البصيرة، يقول:

العـــادلُ الملـــك الـــذّي أســـماؤه فـــي كـــلّ ناحـــيةٍ تشـــرّف منـــبراً
وبكّـــلِ أرضِ جـــنّةٌ مـــن عدْـــله الـــضّـــافي أســـال نـــداهُ فـــيها كوْثـــرا
عـــدْلٌ يبيـــتُ الذئب منْه على الطّوى غَـــرْثانَ، وهو يرى الغزالَ الأعْفَرا [329]
مـــا فـــي أبـــي بكرٍ [331]المعتقدِ الهدى شـــكٌّ يريـــبُ بأنّـــه خـــيُر الـــورى
نَسَـــخَتْ خلائقـــه الكـــريمةُ مـــا أتى فـــي الكتْبِ عن كسْرى الملوك وقيصراً
ملـــكٌ إذا خضَّـــتْ حلـــومُ ذَوي النّهى فـــي الـــرَّوع زادَ رزانـــةً وتوقّـــرا
ثبْـــتُ الجـــنانِ تُـــراعُ مـــن وثـــباتهِ يـــوم الوغـــى وثـــباتهِ أسْد الشرى[330]

يَقـظٌ يكـادُ يقـول عمَّـا فـي غـدٍ بـبديهةٍ أغْنَـتْهُ أنْ يَـتفكَّرا
حلِـمٌ تَخـفّ لهُ الجـبالُ، وراءهُ عـزْمٌ ورأيٌ يحقـر الإسـكنْدرا
يعفـو عـن الذَّنـبِ العظـيمِ تكرُّما ويصـدُّ عـن قـول الخـنا مُتَكـبِّرا

ومـدح عبدالمـنعم الجلياني الملك العزيز عثمان بغيرما قصيدة، منها قصيدة فـريدة أسماها " الواصفة العزيزيّة الموسويّة ذات الحكم العلميّة والأمثال السّياسيّة". وقـد أودَع الشّاعرُ قصيدته نظراته في الحكم، وبَسط أمام الملك العزيز الأسس الّتي يـنهض علـيها الملك، وما يجَبُ أن يكون عليه الحاكمُ المسلمُ في أخلاقه ومعاملاته وسياسته، يقول[332]:

هـي العـزائمُ لا بـيضٌ وَخرْصانُ بهـا استباحَ العُلى الأيقاظ أو صانوا
الملـك دعـوى إذا ما العزمُ صدَّقَها أَتَـتْ فـتوحٌ لهـا في الخلقِ بِرْهانُ
فالصّـدْقُ فـي القولِ والأفعالِ قاعدةٌ لكـلّ أمـرٍ لهُ فـي الـنّاسِ بنـيانُ
الملـك يُبـتاعُ طوعـاً أو كراهـيةً والعـزْم والجـود والإقـدامُ أثمـانُ
إنّ النّشـاط حـياةٌ ضـوعفت رُتَـباً ولـيس يُحَسـبُ في الأحياء كسْلانُ
سياسـةُ الملـك وزنٌ لا يقـومُ بـهِ إلاّ قـويّ له الإحسـانُ مـيزانُ

ويواصـلُ الشاعر إبداء آرائه ونظراته في الحكم، وكأنّه يوّجه الملك العزيز إليها، ويبصّره بها، ثمّ يخلص من ذلك، فيفيض في مدحه، والإشادة بدولته، والتئام شؤون الملك والرّعية لعهده، والتغنّي بشجاعته وجهاده، يقول:

لله أنـت عمـادَ الديـن مـن ملـك هـزَّ الـبلادَ كمـا تهـتزّ أغصـانُ
وثبَّـت القـدمَ الأهـدى بوْطأتـهِ كمَـا رسَـتْ للجـبالِ الشـمِّ أركانُ
الطاعـن الصَّـفِ شزراً وهو مبتسمُ والواهب الألف سرّاً وهو خجلانُ[333]
ورافـع الغبـن عـن أجـناس ملته والفضـل فـي الرَّدْع للغّبان إحسانُ
وواضـع الـوزن في قسطاسِ حكمتهِ والعَـدْل في الوضع للميزانِ رجحانُ

ويبالغ الشاعر في مدح الملك العزيز، فيقول:

فأنـت إسـكندرُ فـي عصـرنا وبذا أبـوك بشّـرنا حـيّاهُ رضـوانُ
فقـال يخـرجُ من ظهري فتىً رَشِدٌ تطـوى له الأرض ثبت الجأش ديّانُ

سَـــمّعتُه خـــبراً حـــتّى أرانـــيَهُ هــذا الملــيكُ العزيــز الشأن عثمانُ

واســتّمر الشّعراءُ السابقون وغيرهم يمدحون بني أيوب، ويَرَوْنَ فيهم المثالية الخلقــيّة، والحربيّة، ومثالية الحكم التي ترجوها الرّعية منهم، ولا تشكل الأمثلة الّتي سبق الاستشهاد بها إلا جزءاً يسيراً من مدائح هؤلاء الشّعراء.

وشَــمل الشّــعراء الشّــاميّون بمدائحهم وزراء البلاد ومقدَّميها فقد مدح ابن الخــيّاط الدّمشــقي، وزراء دمشق وأعيانها، ومن ذلك قوله يمدح الوزير المفرّج بن الصــوفيّ مــنوّها بكرمهِ، وأريحيّته، وتُعلقه بالمجد، وعلّو همته، ومضاء عزيمته، وشجاعته[334]:

لــو أنّ مــن يــروي حديث سماحه يــرويه عــن صَــوْب الحَيا ماصُدِّقا
صَــحِبَ الــزّمانَ وكــان يبْساً ذاوياً فســقاه بالمعــروفِ حــتّى أوْرَقــا
عشــقِ المحــامدَ وهــي عاشــقةٌ لهُ وكذلــك مــا بَــرِحَ الجَمــالُ مُعَشَّقَا
لا يْمــنَحُ الإحســانَ إلاّ شــاملاً خــيرُ الْحــيا مــا عــمَّ مــنْه وطبَّقا
تلقــاه فــي هــيجاءِ كــلّ ملمّــةٍ بطــلاً إذا شَــهدَ الكــريهةَ حَقَّقــا
كالمشــرفي العَضْــبِ إلاّ أنَّــهُ أمْضــى شَــباً مِــنْها، وأبْهرُ رونَقَا

ويشــيدُ ابــن الخــيّاط بكفاية الوزير ابن الصوفيّ، وسداد رأيه، مجلاً عدلّه وعنايــته بمصــالح الخلق في دمشق، ومعظماً إخلاصه في عمله، وصدق نيّتهِ في حكمهِ، وحرصه على مدينته، يقول:

إنَّ الــرّبابةَ لا تلــيقُ بغــير مَــنْ مُــذْ كــانَ، كانَ بثَدْيها مُتَمَطّقا [335]
بغَــــنائها مُــــتَكَفّلاً وبَفضْــــلِها مــــتوحّداً، وبُمْلكِهــــا مُــــتحقّقَا
كَــمْ فــيكَ مجــتَمعاً مِنَ الْحَسَناتِ ما يُعْيــي وَيُعْجِــزُ فــي الورى مُتَفَرّقا
أمّــا دمشــقُ فقــد حَــوَتْ بك عزّةً كرُمــتْ بِهَا عنْ أن تكونَ الأبْلقَا [336]
حَصَّــنتَها بسَــدادِ رأيــك ضــارباً ســوراً علــيها مــن عُلاكِ وخَنْدقا
أمطــرْتَها مــن فــيْضِ عدلّــكِ أنْعماً لا تُعْــدِمُ الــرّوّادَ روضــاً مونقــا

ومَدَح ابنُ الخيّاط الوزيرَ المزدَقاني[337] بما يتلائم وشخصيته في الدّولة، فأثني علــى أمانته في النهوض بأعباء الحكم، ونوّه بالمكانة المرموقة التي تبوأها لدى تاج الملوك بورِي، وأشادَ بعزمهِ وحزمهِ وكرمهِ وتدينُه، يقول[338]:

أميـنَ الملـكِ حَسْـبك مـن أميـنٍ ... وُقيـتَ نوائـب الزّمـنِ الخـؤون
ليُهـنِ الملْـكَ أنّـك بـتَّ مـنْه ... بِمْـنزِلةِ الخَديـنِ مـن الخدينِ [339]
ولـو تُحـابقـدْرِكَ كنْـتَ مـنْهُ ... مكـانَ الـتّاج مـن أعلى الْجبين[340]
سَـمَوْتَ بهمّتـي عـزمٍ وحـزمٍ ... وطلْـتَ بشـيمتي كـرمٍ وديـنِ
فمـا تـنفكُّ مـن فضـلٍ عمـيمٍ ... علـى العافـي ومِـنْ فضـلٍ مُبينِ

ومِـنَ الـوزراءِ الممدّوحين الجوادُ الأصفهانيّ، وزير الشّام، والموْصل، فقد مَدَحـه ابن منير الطرابلسيّ، وابنُ القيسرانيّ، والعماد الأصفهانيّ، والعرقلة الكلبيّ، وابن قسيم الحمويّ، ومِنْ "جماليّاتِ" ابن القيسرانيّ الفائقة قصيدة مطلعها[341]:

ليـتَ القلـوبَ علـى نِظـامٍ واحـد ... لـيذوقَ حَـرَّ الوجْـدِ غـيرُ الواجدِ

وقد تّغنّي ابن القيسّرانيّ في هذه القصيدة بأخلاقِ ممدوحهِ وشمائله، وتفنّن في الثناء عليه، والتقريظ له، يقول:

فَلتَعلَمَـنْ ظُلَـمُ الحَـوادثِ أنّنـي ... يمَّمْـتُ أزْهـر كالشّـهاب الواقـدِ
يُمضـي العـزائم وهـي غيرُ قواطع ... مـا السّـيفُ إلاّ قـوّةٌ فـي السّاعدِ
يَلْقَـاكَ فـي شـرفِ العُلى متواضِعاً ... حـتّى تـرى المقصودَ مثلَ القاصدِ
وإذا دَنَـتْ يُمـناه مـن مسـترفذ ... لـمْ تـدْرِ أيّهمـا يميـنُ الـرّافدِ
أمنـيّةٌ للمعتفـي، ومنـيّةٌ ... للمعـتدي، وشـريعةٌ للـوارد
وَلِـعٌ بأسـهم فكـرهِ، فـإذا رمـى ... أصـمى بها غرض المدى المتباعدِ

وَينوّه ابن القيسّرانيّ بالوزير جمال الدّين ويشيد بسياسته الرّشيدة، وإصلاحاته السّـديدة، وأوامره النّافذة الحكيمة، ونزاهتهِ في أموال الدّولة، وإخلاصهِ في الحكم؛ ويرى أنّه قد صان بذلك كلّه البلاد، وأشاع في النّاس الأمن والعدل، يقول[342]:

يتصـرّف المتصـرّفون بأمْـرهِ ... عـنْ حُكْـمِ أمْـرٍ نـافذٍ لا نـافدِ
ولقـد لَحَظْـتَ المُلْكَ منهوبَ الحمى ... مـنْ جانبـيه، فكنْـتَ أوّل زائـدِ
ربّيـتَ بيـت المـال تربـية امرئٍ ... يحـنو علـيه بهـا حـنوّ الوالـدِ
أشْـعَرْتَ نفسـك مـنْه يـأسَ نزاهةٍ ... ومنحـت همّـك مـنْه بأسَ مجَاهدِ
فَممَـالكُ السّـلطانِ سـاكنةُ الحَشَـا ... مِـنْ بَعْـدِ مـا كانَتْ فريسةِ طارِدِ

وأشادَ ابن منير الطرابلسيّ بالإصلاحات التي أجراها الوزير جمال الدين في الأماكن المقدسة بالدّيار الحجازية، وعنايته بها، يقول[343]:

كسَـــا الحَرَمين لبســـةَ عـــبد شـــمسٍ ... وهاشـــمَ غرَّتـــي نسْـــل الخلـــيلِ
وللـــبلد الأميـــن أجـــدَّ أمْـــناً ... تكـــنّف مـــثله جـــدثَ الرّســـولِ
عشـــيتُم يـــا ولاة الأمْـــر عمّـــا ... أتـــيحَ لهُ مِـــنَ الأثـــرِ الجمـــيلِ

وظـــلَّ العلـــم الشّاتانيّ مخلصاً لهذا الوزير بعدَ أنْ نُكِب[344]، فقال فيه يمدحُه ويســـلّيه، مشـــيراً إلـــى ســـمعتِه الحسنةِ الّتي طبّقت الآفاقُ، وحاثّاً إيّاه على التجّمل بالصّبر، ومعرّضاً بالذّين سعوا فيه[345].

مـــا حَـــطَّ قدْرَك مِن أوْجِ العُلا القدرُ ... كـــلاّ ولا غَـــيَّرت أفعـــالَك الغِـــيَرُ
أنْـــتَ الـــذّي عـــمَّ أهلَ الأرض نائلُه ... ولـــمْ يَـــنلْ شَـــأْوَه فـــي سُؤْدُدٍ بَشَرُ
ســـارَت صفاتُك في الآفاقِ واتّضَحَتْ ... وصَـــدَّق السَّمعُ عنها ما رأى البصرُ
فاصـــبرْ لصَـــرْفِ زمانٍ قد مُنيتَ بهِ ... فآخـــر الصـــبْر يا طوْدَ النُّهى الظَّفَرُ
فمـــا تـــرى أحداً في الخلق يْسلمُ منْ ... صـــروفِ دهـــرٍ لهُ فـــي أهلهِ غيَرُ
سَـــعَوا بَقصْـــدِك ســـرّاً فاستَتبّ لهمْ ... ولـــو سَـــعَوْا نحوْهُ جهْرا لما قَدَرُوا

وبـــالغَ فتـــيانُ الشّاغوريّ في مدحِ الوزير صفي الدّين بن شكر، وبدر الدّين مـــودود والي دمشق، إذ زادت قصائده فيهما على العشرين، وقد حرَص الشّاعر في مدحاتـــهِ لابـــن شـــكر على إبراز مآثره في دمشق، وأياديه عليها، والتنويه بحسن سياســـته، وســـمّو أخلاقه، من ذلك قوله يذكر له تحسينه للمسجد الأمويّ في دمشق، وهمتّه البعيدة في حمل مسؤولية الحكم[346]:

فالمســـجدُ الجـــامعُ المعمـــورُ حيـــن دعـــا الـــوزيـــر لبّـــتهُ آيـــاتٌ مُبْيَـــناتُ
فـــأفْعَمَ الصَّـــحْنَ إحســـاناً ومكـــرُمةً ... فللدّعـــاءِ له صـــيتٌ وأصـــواتُ
ترخـــيمه ضـــدّ ترخـــيم الـــنّداءِ ففـــي ... هـــاذاك نقـــصٌ، وفـــي هذا زياداتُ
قـــدْ أصـــبحَ ابـــن علـــيّ راقياً رُتباً ... حُسّـــادُهُنَّ علـــى البَأوِ[347] السَّماواتُ
مُعـــوّداً لفعـــالِ الخـــير قدَّمَـــه ... قُدّامَـــه، فَلَـــهُ فـــي الخـــيرِ عاداتُ
للأولـــياءِ ولايـــاتٌ بهـــا لبســـوا الـــ ... آلاتِ مـــنه، وللأعـــداءِ ويْـــلاتُ

وأثـنى فتـيان في مدائحه لبدر الدّين مودود على خصاله ومكانته السياسيّة، وصـوّر ازدهار دمشق بعهده وسعادة الرّعية به، كما في قوله يصفه بسداد الرأي، وينوّه بفَضْله على الدولة، ويحمد له مواقفه في الدّفاع عن البلاد وحماية ثغورها:

ألا إنّ بـدر الديـن لـولا ضـياؤه ... لِصـرْنا إلـى لـيْلٍ من الظّلم مُظلمِ
يقـوم معـوجَّ الأمـور بـرأيهِ ... ومـا كـان لـولا رأيُـهُ بـالمقوّمِ
فـآراؤه للـثّغر كانـت مفاتحـا ... فَصِرْنَ له الأقفالَ من كلّ صيْلَمِ [348]
فُملْـك صـلاحِ الديـنِ وارزِنـادُهُ ... بـه مُسْـتَتِبٌّ في سحيل ومبرمِ [349]
بسـيرتهِ أمسـتْ رعيـتُه ترى الـ ... دُعـاءَ لهُ فرْضاً على كلّ مُسْلمِ [350]

ويشيد فتيان في قصيدة أخرى بعدْل بدر الدّين مودود، وسياسته الحميدة لأهل دمشق، منوّها بعهده السعيد الذي أظلّهم، يقول[351]:

لقـد بـثّ بـدر الدّيـن أنوارَ عدْله ... وإحسـانهِ حـتّى انجلـى كلّ غيهبِ
دمشـقُ بـهِ مـن زارهـا كلّما أتى ... يوافـي بهـا طيـباً وأنْ لـمْ تُطيّبِ

وكَـثُرَ القول في مدح القضاة في الشّعر الشاميّ إبّان القرن السادس الهجريّ، ولعـلّ هـذا يدلّ على المكانة السّامية التي كانوا يتبوّؤنها في المجتمع، ومن أشهر هـؤلاء القضـاةِ، القضـاةُ الشّهرزوريوّن، وقد راوح الشّعراء في مدائحهم لهم بين الإكـبار لعدلهـم وتقواهـم، والتـنويه بعلمهـم وسداد آرائهم، والإعجاب بأخلاقهم وفضائلهم، والثناء على شرفهم وأصالة نسبهم، فقد مدح ابن القيسرانيّ القاضي نجم الديـن[352] بقصـيدة نـوّه فـيها بعدله وكرمه، وأطرى مهارته في استنباط المسائل والأحكام، يقول:

يقضـي فيعدلُ في القضاءِ، وإن يملْ ... مـيْلَ السَّـماحِ رأيـتَ غُبنَ الجائرِ
حُذِفَـتْ أسـانيد الـرواة لمجـده ... حمْـلاً علـى مَتْـنِ الحديثِ السَّائرِ
فصـوادقُ الآحـادِ مـن أخـبارهِ ... نَسَـخَتْ وجوبَ العلم بالمتواتر [353]
أقْضَـى القضـاةِ إذا تغلغـل فكـرهُ ... فـي شـبهةٍ، والْحُكْـم حُكْم الظّاهر

ويشيد ابن القيسرانيّ بنسب القاضي مجد الدين، وبآبائه الأكرمين[354]:

قـفْ يـا منافسَـه وراءَك صـاغراً ... فلـه الـتقدُّم كابـرا عـن كابـر

مــن مَعْشــر نــالوا العلى فتوزّعوا رُتَــبَ الجــلالِ علــى محيط دوائرِ
قــومٌ إذا صَــدَرَ الــورى عنْ نِسْبةٍ ضَــربوا بُقــرْبى في العُلى وأواصرِ

ومَــدَحَ ابــن القيســرانيّ القاضي كمالَ الدين الشهرزوريّ بغير ما قصيدة، ويستشــفّ مــن هذه المدائح نهوض هذا القاضي بمسؤوليّات القضاء على خير ما يكون النهوض، واعتماد الدولة عليه في سفاراتها الخارجية، بسبب مكانته المرموقة ورأيــه الثاقــب من ذلك قصيدة أسبغ عليه الشّاعر فيها مجموعة من الفضائل الّتي تُمــثّلُ ســجاياه النبيلة، وأخلاقه الحميدة، راسماً له صورة المصلحَ الّذي يقوم بفضّ الخصومات بين أمراء المسلمين، يقول[355]:

أيــا ســيّد الحكّامِ هل من إصاخةٍ [356] علــى حيــن لا يصغي إلى الحمدِ سيِّدُ
تقلّــدتَ أحْكــامَ القضــاءِ وإنّمــا قضــاءُ اللّيالــي بعــض مــا تــتقلّدُ
وَوَلّــتْكَ أعْــناقَ المعالــي ســيادةٌ نِيَابــتُها فــي الشّــرقِ والغَرْبِ سُؤْدُدُ
فَلــيْمُلْكِ وجْــهٌ ســافرٌ عــن سَــفارةٍ يؤكدهــا مــنْك الــولاءُ المؤكّــدُ
أَنامَــتْ مســاعيك الظــبى في جُفونها فَهَــلْ لَــكَ فــي تنبــيهِ رأيــك مرْقدُ
وَدَاوَيْــتَ فــيها ناظــرِ السّــيفِ بَعْدما مضى وهو طرْفٌ من دَمِ الحرب أرمَدُ

ومــن أعــلام القضــاةِ الّذين قرّظهم الشّعراء، القاضي محي الدين ابن زكي الدّيــن، فقد مدَحَه ابن السّاعاتي بقصيدة ذكر له فيها أياديه البيضاء في إقامة أحكام الشّــريعة، وَبسْــط العــدْل، وعــرَّض بشــانئيه واصفاً أيّاهم بالعجز عن مجاراته، يقول[357]:

شــيَّدْت يــا قاضــي القضــاةِ محمّداً خُطــط العُلى ورفَعْت سَمْكَ[358] بنائها
ونَشَــرْت أعــلامَ الشّــريعة بعْدمــا طُويــت، فَســارَ العَــدْلُ تَحت لوائها
كــيفَ السّــبيلُ إلــى مَــداك لعَاثــرٍ يبغــي الــنّجومَ الزّهــرَ فــي عَلْيائها
يــبسِ البــنَانِ يــذمُّ مــنْك خلائقــاً ردَّت وجــوه السّــائلين بمائهــا

وأثنى فتيان الشّاغوريّ على القاضي محي الدين، ووصفه بالدّقة والتحرّز في مسائل العلم، والتفرّد في البلاغة، يقول[359]:

لا تَأْمــنُ العلمــاءُ الخَــوْضَ في خطأٍ إلاّ إذا مــا توخّــوا مــا توخّــاهُ
ولا يطــيقون أن يــأتوا بــنادرةٍ بديعــةِ الوصْــفِ إلاّ وهْــيَ إنْشــاهُ

فـــلا محـــامد إلاّ مـــن مكارمـــهِ ولا محاســـن إلاّ عـــن ســـجاياهُ

وتوَجَّـــهَ الشّـــعراءُ بمدائحهم إلى العلماء، ومن ذلك ما مدَح به ابن القيسرانيّ الصـــائن ابـــن عساكر[360]، مصوّراً المكانة التي تبوّأها في المجتمع بسبب تقدّمه في العلم، وتعمّقه في الفقه، ومناهضته للأفكار المضلّلة. يقول[361]:

بشّـــرْتَ بـــالمَجدِ التّلـــيد ملكْـــتَهُ فـــي الـــنّاسِ قُـــبل بشـــارة الأمـــلاكِ
تقديـــمُ علمْـــكَ بالإلـــه تَيَقُّـــناً مـــن حيـــث كـــان تأخُّـــر النسّـــاكِ
فـــي المذهـــب الأمـــم الـــذي لا ينتهي فـــيه بمُعـــتَّقَدٍ إلـــى الإشـــراكِ
سِـــرٌ يفـــرّق بيـــن كـــلّ مصـــدّقٍ بَـــرّ وكـــلّ مشـــبهٍ أفّـــاكِ
حـــزت الهـــدى واستشـــعروا بضلالةٍ فتَتّـــيهُوا فـــي صَحْصَـــحٍ دَكْـــدكِ[362]

واســـتمدَّ فتيان الشّاغوريّ مادّة مدحه لبهاء الدّين القاسم بن عساكر[363]، نجل صاحب تاريخ دمشق، من الجهود العلميّة لأبيه، منوّها بالتّاريخ الذّي ألّفه عن مدينة دمشق، يقول[364]:

أشْـــهِرْ بـــهِ فـــي نَشْـــر تاريخـــه المـــشُـــحونِ بالفَصْـــل وسِـــحْر البـــيانْ
دعـــى ســـوامَ السَّـــمْع فـــي نقْلـــهِ بيـــنِ مـــروج نَبْـــتُها الزَّعْفـــرانْ
ســـماعهُ اشـــهى إلـــى الكـــبّ مـــن مثالـــثِ العـــودِ وضَـــرْبِ المثانْ [365]
دمشـــقُ بالـــتّاريخ مغـــبوطةٌ محســـودةَ مـــن كـــلّ قـــاضٍ ودانْ

ومـــدَح الـــبديُع العامـــريّ الطبيب ابن المطران مَدْحاً مَزَج فيه بين الإشادة بصفاته، الخُلقيّة، والثناء على قدراته العلميّة، يقول[366]:

رؤيـــاهُ لـــلأدواءِ حاســـمة فكـــمْ مُشْـــفٍ شـــفاهُ بذلـــك الوجـــه البهـــي
الألمعـــيّ الأريحـــيّ المُرْتجـــي واللّوذعـــيّ الفيلســـوف المِـــدْره [367]
العـــالم الحَـــبْر الـــذي حـــازَ الغِنـــي وحـــوى العلى طفلاً فلبّ ومازُهي[368]
وإذا الخلائـــقُ أشْـــبَهَتْ أمـــثالهاَ فـــي الأكرميـــن فمـــا له مـــن مشْبهِ

ومِمّـــنْ قـــرّظهم شـــعراءُ الشّام في القرن السادس الهجريّ، زعماءُ القبائل العربيّة، فقد مدَح ابن القيسّرانيّ عزّ الدين العقيلي[369] زعيم قلعة جعبر، وأعادَ لنا في مَدْحـــه صـــوراً مـــن صـــفات ســـادة القبائل، إذْ نظر إلى الممدوح في إطار قومه

وعشـــيرته، فنوّه بأخلاقه وأخلاقهم، وبما عُرف عنهم من شجاعة في القتال، وسخاءٍ في العطاء، وحماية للجار، ووفاءٍ للعهدِ، وأصالة في النَّسب، يقول[370]:

يـــا طالـــباً ذَلـــي بجـــامحِ غـــيّهِ ... أو مـــا سَـــمِعْت بِعـــزّ آلِ مُسَـــيَّبِ[371]

الحافظيـــن ذمـــارَهم فـــي جـــارهمْ ... والعاقديـــــن ذمـــــامهم للأجنبـــــي

والرّاكبيـــن الظبـــي فـــي بـــارقٍ ... والنّازَليـــن مـــنَ القَـــنا فـــي مِضْرَبِ

والحاتميـــن الكاتميـــن مـــن الـــنّدى ... مـــا شـــاعَ فـــي العربيّ والمستَغْرِبِ

قَـــوْمٌ إذا اســـتَبَقوا علـــى أحســـابهم ... جلـــبوا لعـــزّ الدّيـــن أكْـــرمَ مَنْســـبِ

مَلـــكٌ تواصـــلُه الفضـــائل رغْـــبة ... فـــي مجْـــدِهِ مـــنْ أبْعَديـــنَ وأقْـــرَبِ

جمـــعَ القلـــوبَ علـــى محـــبّةِ ملكهِ ... مـــا عـــندهُ مـــن رأفـــةٍ وتحبّـــبِ

ومـــدح فتيان الشّاغوريّ الأمير سيف بن تُبَّل[372] أحد زعماء القبائل العربيّة في بلاد الشّام، بقصيدة استرجع فيها صفات السيادة العربيّة، مكْبراً للممدوح، إعزازه لمن يلوذ به، وإكرامه لجيرانه، وصراحة نسبه، وشجاعته، وسخائه، يقول:

أكْـــرِمْ بـــهِ ملكـــاً عزيـــزاً جـــادُهُ ... لـــم يَخْـــشَ نـــابَ نوائـــبِ الحَدَثـــانِ

مـــنْ دوحـــةٍ عربـــيّة تُبلـــيّةٍ ... أفـــنانُها يَنَعَـــتْ بكُـــلّ مجانـــي

فحســـامُه يـــومَ الوغـــى بذِمامـــهِ ... يَغْـــري فـــراش[373] حواجِبَ الفرسانِ

حامـــي الذّمـــارِ مُشـــتّتُ العـــزماتِ مشـــغولٌ بـــيْوم نـــدىً ويـــومِ طِعـــانِ

مـــا أثْمَـــرتْ يـــومَ الهـــياجِ رماحـــه ... إلاّ عمـــــائم لابســـــي التّـــــيجانِ

مـــا حـــاتمُ الطائـــي إلا عَـــبدُه ... شَـــتّانَ بيـــن الكفـــرِ والإيمـــانِ

يهـــب الهنـــيْدة والـــرّعاءَ ووجهـــه ... طلـــقٌ وكـــلَّ طِمَـــرّةٍ وحصَـــانِ[374]

الفصل الثالث

صور أخرى من المدح

1.3 أولاً:المدائح النبويّة

ازدهـرت المدائـح النـبويّة في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة ازدهاراً كبـيراً، وقـد تضـافرت مجموعة من العوامل التي أدّت إلى ذلك، لعلّ من أبرزها الشـعور الدّينيّ الذّي أخذ يتنامى في النفوس بسبب الحروب الصليبيّة، ومن ثمّ عمل شـعراء المديـح النـبويّ على بسط سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أمام الناس ليقتدوا بها، ولا سيمّا تصوير جهاده لكفّار قريش، وصبره على مواجهتهم، وشجاعته فـي ميادين القتال، وكأنّ الشعراء أرادوا من النّاس أن يتّخذوه أسوة حسنة في ذلك، ويتحلّوا بصفاته، ويتخلّقوا بأخلاقه.

وقـد وُجـد بعض الشّعراء من ربط بين مدح النبيّ عليه السلام والتعريض بالغـزاة علـى نحـو مباشر، كما في أرجوزة لشرف الدين الأنصاري في المديح النبويّ[375]:

حَـــتَّى تِيمّمَـــتْ علـــى احتـــياط
قـــبر النبـــيّ الهاشـــمّي السَّـــاطي
علـــى ذوي الإلحـــاد والإقســـاطِ
ومـــنذر السَّـــاعة بالأشـــراط
والحاشـــد المـــاحـــي ذنـــوب الخاطـــي

وقـد كان لمجالس الوعظ الّتي كانت تعقد في دمشق وغيرها بهدف استثارة الـنّاس وتحريضهم على الجهاد أثر كبير في تكاثر المدائح النبويّة، فقد كان الوعّاظ ينشـدون من أشعارهم وأشعار غيرهم، القصائد المشحونة بالمعاني الدينيّة، والتوسّل بالرّسول الكريم، والحديث عن سيرته العطرة، فقد ذكر ابن خلّكان في سياق ترجمته للشّاعر علي بن عبدالصّمد السخاوي، وهو من أعلام الشّعراء الّذين مدحوا الرّسول الكريم خبراً مفاده: " ورأيته بدمشق والنّاس يزدحمون عليه في الجامع لأجل القراءة، ولا تصـحّ لواحدٍ منهم رؤيته إلاّ بعد زمان، ورأيته مراراً يركب بهيمة وهو يصعد

إلى الجبل وحوله اثنان أو ثلاثة، وكلّ منهم يقرأ ... وهو يردّ على الجميع ولم يزل مواظباً على وظيفته إلى أن توفّي بدمشق سنة 642هـ"[376].

يضاف إلى ذلك ظهور المحامل في بلاد الشّام، واحتفال الناس بتوديع الحجّاج واستقبالهم، وقد أدهشت هذه الاحتفالات ابن جبير، ونقل مشاهد منها تصوّر احتفاء الناس بمواكب الحجيج، وذلك في قوله: "ومن عظيم أمرهم تعظيمهم للحاجّ، على قرب مسافة الحجّ منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله؛ فهمْ يتمَّسحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تَبرّكاً بهم، ومن أغرب ما حُدِّثناه من ذلك: أنَّ الحاجّ الدمشقيّ مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام الّذي هو عام ثمانين، خرج النّاس لتلقّيهم الجُّم الغفير نساءً ورجالاً، يصافحونهم ويتمسَّحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة"[377].

ومن العوامل الّتي أدّت إلى ازدهار المدائح النبويّة شيوع فكرة المجاورة في الديار الحجازيّة، حيث ينقطع بعض العّباد إلى الإقامة في المسجد النبويّ عند قبر الرّسول صلى الله عليه وسلّم، يتفيَّئون ظلال الطمأنينة بقربه، وكان بعض الشّعراء يقصدون الحجاز لهذا الغرض، ويجاورون فيها زماناً، ويتهادون بينهم لأشعار في مدح الرّسول الكريم عليه السّلام، وقد عبّروا فيها عمَّا يشعرون به من إجلال لهذا المقام الكريم، وما يحور في نفوسهم من مشاعر دينيّة جيّاشة[378].

واتّخذ بعض الشعراء المدحة النبويّة وسيلة للتحدّث عن أحوال العرب، وما صار إليه أمرهم بعد أن سيطر الأعاجم على مقاليد الحكم، كما عبَّر عن ذلك شمس الدين بن العفيف التلمسانيّ في قوله[379]:

أرضَ الأحبّةِ من سَفْحٍ ومنْ كُثُبِ ... سقاك منهمُر الأنواء من كثبِ
قوم هم العربُ المحمّي جارهم ... فلا رعى الله إلاَّ أوجة العرب
أعزّ عنديَ من سمعي ومنَ بصريِ ... ومن فؤادي ومن أهلي ومن نشبي

وليس من السَّهل إحصاءُ الشّعراءَ الشاميّين الّذين مدُحوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلّم زمن الحروب الصّليبيّة، ونذكر منهم هنا علي بن عبدالصمد السخاويّ، وشهاب الدّين محمود الحلبيّ، والملك الناصر داود، وشمس الدين محمد بن عفيف

التلمسانيّ المعروف بالشاب الظريف، ونجم الدين بن سوار بن إسرائيل، والحسن بن صافي المعروف، بملك النّحاة، ويعقوب الشيبانّي، وابن السّاعاتيّ، وغيرهم كثير.

بــل إنّ بعضهم ألفّ دواوين خاصّة في مدحه عليه السّلام؛ فقد نظم الشاعر عليّ بن محمد السخاوي (-643هـ) سبع قصائد في مدح الرّسول الكريم ضمّها في ديــوان ســمّاها (ديوان القصائد السّبع) كما نظم الشاعر شهاب الدين محمود الحلبّي (- 725هـــ) ديوانــاً كاملاً في المدائح النبويّة أطلق عليه (أهنى المنائح في أسنى المدائــح)، وكــلا الديوانيــن ما يزال مخطوطاً، وقد جعل السخاويّ لكلّ قصيدة من قصائده عنواناً خاصاً؛ فالقصيدة الأولى عنوانها " ذات الأصول في مدح الرّسول"، والثانــية " ذات الدرر في معجزات سيّد البشر"، والثالثة والرابعة " استهلّهما بالحنين إلى المدينة المنّورة وأتبع ذلك بمناجاة الرّسول، والقصيدتان الخامسة والسّابعة سمّاها " ذوات الشفاعة"، أمّا القصيدة السّادسة فقد نظمها في وداع الزائر للمدينة المنوّرة.

وقــد كانــت بعض هذه المدائح ينظم في مناسبات معيّنة من أهمّها تلك الّتي كانت تنظم ليردّدها الحجيج وهم يقصدون في طريقهم إلى الديار الحجازيّة، وبعضها كان يقولها الشّاعر في الحضرة النبويّة الشريفة، ومنها ما كان يقال عند وداع الديار الحجازيّــة والعــودة إلــى الدّيار، ومنها ما كان ينظمه الشعراء وهم في أوطانهم يعبّرون فيها عن أشواقهم وحنينهم للحجاز والحضرة النبويّة الشريفة.

وهــذا التــنوّع فــي المناسبات لا يعني الاختلاف في محتوى المدحة النبويّة بصــورة عامّــة، ما عدا مقدّمات هذه المدائح الّتي كان الشّاعر يراعي فيها مقتضى المناسبة؛ فإذا كان الشّاعر مقيماً في وطنه مثلاً ورأى مواكب الحجيج تقصد الحجاز كــان يطلــب من المسافرين أن يحملوا سلامه إلى الديار المقدّسة ويسلمُوا على قبر الرّســول الكــريم نــيابة عنه، وينقلوا أشواقه ومواجده، كما في قول شهاب الدين محمود الحلّبي يخاطب صديقاً له نوى أداء فريضة الحجّ[380]:

بــاللهِ إلاّ مــا حملــتَ رســا ... لتــــيِ نحــــوَ الرّســــولْ

وإذا وصــــلتَ إلــــى العقــــيقِ ... وفــــزتَ فــــيه بكــــل ســــولْ

ووفقــــتَ مــــن بــــاب السّــــلام ... بذلــــك الظــــلّ الظّلــــيلْ

ونظــــرتَ مــــا بيــــن السّــــتور ... إلــــى معــــارجِ جبرئــــيلْ

فالـــثمْ ثـــراه وجـــلَّ عـــن شـــوقي عَـــرى العـــبء الثقـــيلْ
واكتـــب رســـالة لوعتـــي فـــي الـــترب بـــالدمع الهمـــولْ
وقـــل السَّـــلام علـــيك يـــا خـــير الـــورى مِـــنْ كـــلّ جـــبِلْ
يـــا خـــيرَ مـــن يُســـرى إلـــيه بكـــلّ صَـــعْبٍ أو ذلـــولْ

أمّـــا المـــودّع للديار الحجازيّة فيستهل قصيدته بعبارات الوداع وذكر أشواقه وأسفه، وتصوير دموعه الغزيرة، كما في قول السخاويّ[381]:

إذا كـــان اشـــتياقك لا يـــزولُ ولـــم يقـــعِ التـــباعدُ والرَّحـــيلُ
فكـــيف بـــنا إذا جـــدَّ التنائـــي ولـــم يوجـــدْ إلـــى اللقـــيا ســـبيلُ
ولـــيس البيـــن عـــنه بمســـتطاعٍ ولـــيس إلـــى إقامتـــنا وصـــولُ
كـــأنَّـــا مـــن لقـــائك فـــي مـــنامٍ نُسَـــــرُّبه وَمَدَّتـــــهُ قلـــــيلُ
ســـنرحلُ فـــي غـــدٍ لا عـــن ملالٍ وَنُحـــوِلُ حيـــث لا يُغنـــي الحويـــلُ

ويصـــف نجـــم الدين بن إسرائيل، وهو في طريقه إلى الحجاز، البرقَ الذّي يلوح من المدنية المنوّرة هادياً بالإبل إلى الطريق، ونور الهدى الذّي يرافق الحجّاج ويســـيرُ معهم أيّنماً ساروا، ونسمات الديار الحجازية الّتي تهبّ فتستحثهم على السَّير حتىّ يخطوا بالوصول. يقول[382]:

كلَّمـــا خِفْـــنَ فـــي القفـــارِ ظـــلالا لاحَ بـــرقٌ مـــن طيـــبةِ فهداهـــا
حيـــث نـــور الهـــدى يلـــوح سناه وريـــاح الـــنّدى تفـــوح شـــذاها
أيّهـــا الظاعـــنون دعـــوةَ نفْـــسٍ حـــدَّدتْ كـــثرةُ الخطايـــا خُطاهـــا
كـــم تَمنّـــتّ لقـــاءَ تلـــك المعانـــي وتحـــولُ الأقـــدارُ دونَ مُـــناها

والمحور الرئيسي في المدحة النبويّة هو مدح الرسول الكريم صلّى الله عليه وســـلّم، وقد قام هذا المدح على مجموعة من المعتقدات الدّينية والحديث عن سيرة الرسول عليه السَّلام، وتصوير المثالية الخلقّية له.

وقـــد تردَّد في هذا المدائح الحديث عن الحقيقة المحمديّة، ومفادها أنّ محمداً صـــلى الله علـــيه وســـلم، أصـــل الأنوار " ومنه انبعثت منذ الأزل أنوار النبّوات، واغترفَتْ من بحره العلوم، وتفرَّعت عنه الحقائق، وانبعثت منه أسرار الجمال"[383].

ولا يكاد حديث شهاب الدين محمود الحلبّي عن الحقيقة المحّمدية يختلف عن المفهوم السَّابق، فمحمد عليه السلام، خاتم الرسل في البعثة، وهو الأول فيهم بالنور الأزليّ الذي تنقَّل في أجسادهمْ حتَّى حل في جسده الطاهر، يقول[384]:

يـــا مّـــنْ بـــه الرّسلُ الكرامَ توسَّلوا فغـــــدا توسُّـــــلهم بـــــه مقـــــبولاً
يـــا خـــاتم الرّســـلِ الكـــرامِ وأوّلٌ فـــــيهم وآدمُ طيـــــنةٌ مجـــــبولا

وتحَّدث ملك النحاة الحسن بن صافي عن فكرة النور المحّمديّ وصوَّر أزليّة هـــذا الـــنور وتعاقبه في الأنبياء منذ آدم إلى أن تمثل في صورة محّمد عليه السلام وذلك إذ يقول[385]:

يـــا خـــاتم الأنبـــياءِ قاطـــبةً أتـــاك لفـــظُ الثَّـــناءِ يَسْـــتَبِقُ
كنـــتَ نبـــياً وطيـــنَ آدم مجـــبولٌ وتلـــكِ الأنـــوار تـــأتلقُ
وَعُـــدْتَ فيـــنا تدعـــو إلـــى سُـــبل الحـــقّ فقـــد أُوضـــحتْ بـــك الطـــرقُ

وعـــرض ابن السّاعاتي لهذه الفكرة، وتوسَّع في الحديث عنها، واستوحى في ذلـــك معـــتقدات الصوفّية، وكيف أنّ محمداً عليه السلام، علّة الإبداع والخلق، ومنه يســـتمّد الكون أسباب وجوده، ولولاه لم يُخلق نهر ولا بحر، ولم تك شمس ولا قمر، يقول[386]:

هـــو البشـــيرُ الـــنّذير العَدْلُ شاهدُهُ وللشـــــهادة تجـــــريح وتعديـــــلُ
لـــولاه لـــم تـــك لا شمسٌ ولا قمر ولا الفـــراتُ ولا جـــاراهُ والنّـــيلُ
ولـــم يُجـــبْ آدمُ فـــي حالِ دعوتهِ نَعـــمْ، ولـــم يـــك قابـــيلٌ وهابـــيلُ
مُـــرتّل الوحـــيِ يـــتلوه ويدرسُـــهُ ولـــم يكـــنْ لكـــلامَ الله ترتـــيلُ
فســـيِّد الرّسْـــلِ حَقـــاً لاخفـــاء بـــه وشـــافعُ فـــي جمـــيع الـــناسِ مقبولُ
بَثَّـــتْ نـــبوَّتَه الأخـــبارُ إذْ نَطقَـــتْ فحدَّثـــتَ عـــنه تـــوراةُ وإنجـــيلُ

وانطلاقاً من فكرة الحقيقة المحّمديّة فإنَّ شهاب الدين محمود الحلبيّ يرى أنّ إسماعيل – عليه السَّلام– قد اختُصّ بالفداء لأجل الرسول صلى الله عليه وسَّلم، ومن أجلَه كرَّم الله آباءه وأجداده الّذين تنقَّل في أصلابهم، يقول[387]:

أنْـــتَ المـــبوَّأُ مـــن ذؤابـــةِ هاشـــمٍ شـــرفاً أنـــاف علـــى الكواكـــبِ طولا
بـــك كـــرَّم الله الجـــدودَ وطهّر الـــ أبـــــاء إذْ ولـــــدوك جـــــيلاً جـــــيلا

وبــك اســتفادَ أبوك أعظم عصمةٍ أَصْــحَتْ علــى كــرم الــنّجار دليلاً
ولــــك المقـــامُ وزمـــزمَ ولأجلـــك اخـــتَصَّ الفـــداءُ أبـــاك إســـماعيلا

وقــد اســتوعب الشّعراء في مدائحهم النبويّة السّيرة العطرة للرسول الكريم استيعاباً دقيقاً وعرضوا تفصيلاتها على نحو يدلّ على تمثلهم العميق لها، فلم يتركوا حادثــة صغيرة ولا كبيرة تتعلق بها إلاّ تناولوها بصورة أو بأخرى، وأكثر ما يبدو هــذا في شعر شهاب الدين محمود الحلبّي، ولعلَّ هذا يعود إلى أنّه ألّف ديواناً كاملاً في مدحه عليه الصلاة والسَّلام.

فقد وصف شهاب الدين محمود الحلّبي المشهد الأوّل للوحي، حيث تنزّل عليه مــن الســماء وهو في غار حراء، ورسم صورة مؤثّرة للرّسول وهو يستقبل التّبليغ الأوّل، ويصف الأحوال الّتي اعترته، وذلك إذ يقول[388]:

جــاءه بالوحـــي جـــبريل وقَـــد ألــفَ الوَحــدةَ فـــي غـــار حـــرا
قـــال: أقـــرأ فاعـــتراه وجَـــلٌ ثـــمَّ مـــا فارقـــه حـــتَّى قـــرا
وأراه عـــندما صـــلّى بـــه صـــفةَ الفـــرْضِ علـــى مـــا أمـــرا
يـــا له يومـــاً قضـــى الله بـــهِ للهـــدى فـــي خَلْقـــه أنْ يَظهَـــرا
أشـــرقَ الأفـــقُ بـــه حـــتّى غـــدا مِـــنْ ضـــياء الشّـــمسَ أبهـــى منظرا

وكــثر الحديــث في ذلك العصر عن المعجزات النبويّة سواء أكان ذلك في الشــعر أو فــي تأليف الكتب الّتي ترصد معجزاته عليه السّلام، مثل (الوفا بأحوال المصــطفى)، لعبدالرحمــن بن الجوزي، و (شمائل الرّسول ودلائل نبوّته وفضائله) لابــن كثــير. ومــن المعجزات الكبرى الّتي أطال الشعراء الوقوف عندها المعجزة القرآنــية الخــالدة، وقد تحدث شهاب الدين الحلبيّ عن هذه المعجزة، وتناول أوجه مــتعدّدة لجوانــب الإعجــاز فيها، مثل حديثه عن الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم، وتحدّيه للإنس والجنّ أن يأتوا بآية من مثله، وإقرارهم بالعجز، كما في قوله[389]:

خصّـــه الله بالكـــتاب الـــذّي أذْ عَـــنَ قَسْـــراً له مطـــيعٌ وعاصـــي
أعجـــز العالميـــنَ إنســـاً وجـــناً فأقـــرّوا بالعجـــز لا عـــن تواصـــي

ويـتَحَّدث الحلبـيّ عـن عناصر أخرى لمعجزة القرآن الكريم، فهو دستور الأمـة، ومصدر تشريعها، ودليلها في الدنيا والآخرة، كما أنّه يتضمَّن علم ما مضى من العصور، يقول[390]:

والكـتابُ الّـذي تّحـدّى بـه الخَلْـق والكـتابُ الّـذي تّحـدّى بـه الخَلْـتى
فـيه أحكامـنا وعلـمُ الـذّي يـأ وأنـباءُ مـن مضـى فـي الدهـور
ودلـيلٌ فـي موقـف الحشـر يهد يـنا سـناه ومؤنِـسٌ فـي القـبور
وشـفيع أيضـاً لقاريـه فـي المو قِـفِ يحظـى بجاهِـهِ المـبرورِ

ويخرج شهاب الدين الحلبيّ من الحديث عن المعجزات السماوية إلى عرض الكرامات النبويّة، ويذكر عدداً منها، مثل نبع الماء بين أصابعه، واستمطاره للسماء، وإحـلال البركة في الطّعام وتكثيره، وإثمار النخل الذّي غرسه لسلمان الفارسي في عامه التالي، والحجر الذّي رقّ للرسول عليه السّلام وهاجه الحنين إليه، فسلّم عليه عـند مـروره من جانبه، وتسبيح الحصا بين يديه [391]، ومن هذه الكرامات النبويّة حنين الجذع الجاف اليابس الذّي لا روح فيه، إليه عليه السلام عندما فارقه الرسول صلى الله عليه وسلم وصعد المنبر، ويرى الشاعر في ذلك موعظة تدعو الناس إلى الاقـتراب من تعاليم الإسلام صائغاً ذلك على نحو منطقيّ مقنع، فإذا كان الجماد لم يصبر على فراقه عليه السلام، فكيف حال البشر، وفي ذلك يقول[392]:

وحنيـنُ الجـذعِ فـيه عظـةٌ لامـرئ أزمَـعَ عـنه سَـفَرا
أيـن يلقـى القـبر مـن فارقـه وجمـادٌ لـم يجـدْ مصـطبرا
مـا حنيـن المـرء لـو أحـرَقَهْ بَعْـد جـذعٍ حـنَّ أمـراً مـنكرا

وعرض يعقوب الدمشقي في أثناء مدحه للرسول الكريم لبعض معجزاته عليه السَّـلام، ومنها تنزّل القرآن الكريم عليه، والإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المبارك، وذلك في قوله[393]:

وامـدَحْ إذا رمتَ إدراك النجاة غدَا وأخلـص القـولَ، فالإخلاص مقبولُ
خـير الأنـام رسول الله مَنْ نزلتْ علـيه طـه وياسـينٌ وتـنزيلُ
وكـان يأتـيه بـالوحَيْ المـنزّه إذْ يغشـاه عـند نـزول الوحي جبريلُ
وخصّـه اللهُ بالإسـراءِ معجـزةً فـيها لمـنْ شـكَّ إرغـامُ وتدلـيلُ

ويستجيش عليّ السخاويّ المشاعر حين يرسم صوراً مؤثّرة لبعض كراماته عليه السّلام، كما في قوله[394]:

ورويتَ من ماءِ المزادة أنفساً عطاشاً تقاسي الكَرْبَ من لوعةِ الصّدى
وأقْبَلَت الأشجارُ لمّا دعوَتها ولولاك ما كان البعيُر ليَسْجُدا
ولا شهدَ الضبّ الّذي جاءَ قائلاً مع الذّئب أنّ اللهَ أرْسَل أحمد

وتصعيداً للجانب العاطفي للمدحة النبويّة فقد توقّف الشّعراء طويلاً عند صفات الرسول الكريم، وعدّوه أنموذجاً للمثالية الدّينية والخلقيّة بتفرّد خصاله وسجاياه، وتميّزه عن سائر الخلق، باسطين ذلك في لفظ رقيق، ومعانٍ رائقة وصور جميلة مؤثرة، من ذلك قول عليّ السخاويّ يصف وجهه المشرق البهيّ عليه السّلام- وخلقه السّجي الرضيّ، وكرمه السخيّ، وإيمانه الراسخ الذّي مكنّه من محو الكفر، وتبديد الظلام، ونشر الهدى والنور، يقول[395]:

يا صاحبَ الوجه البهيّ كأنّما الـ قمر المنير إليه بالنّور انتمى
يا صاحبَ الخُلقِ الرضيّ فما يُرى إلاّ رحيماً مَعطياً أو مُنعماً
يا مُطلع الإيمان نوراً مشرقاً يمحو من الكُفرين ليلاً مظلما
يا خاتمَ الرّسلِ الكرامِ ومَن له الـ آياتُ تحكي في السماء الأنجما
يا سيد الهادين يا خير الورى حسباً وأوْسَعهمَ ندىً وتكرّما

ويتغنّى التنّوخيّ الحلبيّ بطيب أخلاقه عليه السلام، ولطفه ورحمته ورقّة قلبه، وإيمان النّاس بما جاء به من الدّين القيّم جيلاً بعد جيل يقول[396]:

وَرَضتَ باللطّفِ أخلاقٌ جَمَحْنَ إلى أن قادها لك أصحابٌ وتنزيل
لو كنت فظّاً غليظ القلب ما اتبع الـ قَولَ الذّي جئت جيلُ بعده جيلُ

ويقدم شهاب الدّين الحلبيّ الرّسول مثلاً أعلى في الأخلاق، فهو معدن الفضائل كلّها، والمعلّم الناصح، والدّاعي إلى الله على بصيرة، يقول[397]:

ويا مَنْ إذا ما أمّهُ الوفْدُ بالحيا بأخلاقهِ في جوده يتخلّقُ
لبَعْضُ الّذي أوتيتَ يا سيّد الورى من الفضلِ في كلِ الأنامِ مفرّقُ

وأثـــنى ملـــك النحاة الحسن بن صافي على أخلاق سيدنا محمد عليه السلام، وصوَّر المكانة السّامية الّتي يتبوَّؤها في السماء والأرض، وهي مكانة يعجز عن أن يحـــيط بها قلم، وكيف أنه مطبوع على الكلام، زاهد في الدنيا، مضمّناً ذلك صلاته وتسليمه عليه، يقول[398]:

لله أخـــلاق مطـــبوع علـــى كـــرمِ ... ومـــنْ بـــه شَـــرَفُ العلـــياء والكـــرمُ
أغَـــرّ أبْلـــجُ يســـمو عـــنْ مُســـاجلةٍ ... إذا تُذوكـــرتْ، الأخـــلاقُ والشّـــيَمُ
سَـــمَتْ عـــلاك رســـولُ الله فارتفَعَتْ ... عَـــنْ أن يشـــرَ إلـــى إثـــباتها قلـــمُ
لا مِـــنْ رأى المـــلأ الأعلـــى فراعهمُ ... وعـــادَ وهـــو علـــى الكوْنَيـــنْ يَحْتَكِمَ
يـــا مِـــنْ لهُ دانـــتْ الدّنـــيا وزُخرفـــت الأخـــرى، ومـــن بعـــلاه يفخَـــرُ النّسَـــيمُ
يـــا مِـــنْ به عادَ وجْهُ الحقّ مُتَّضحاً ... مـــنْ بَعْـــدِ أنْ ظوهرتْ بالباطِلِ الظُّلَمُ
علـــوْتَ عـــن كـــلّ مَـــدْحٍ يُسْـــتَفاضُ فمـــا الجَـــلالُ إلاَّ الّـــذي تَـــنْحوهُ والعِظَـــمُ
علـــــلاك ســـــلامُ اللهِ متَّصـــــلاً ... مـــا شِـــئْتَ، والصـــلواتُ الغُرُّ تَبْتَسِمَ

وممّـــا تفرّع عن المديح النبويّ القصائد الّتي عُرفت بـــ (الحجازيات)، وهي قصـــائد مُشربة بأنفاس الحنين إلى الديار الحجازيّة وما فيها من معالم دينية مقدَّسة، ويـــبدو أنّ مواكـــب الحجيج كانت تستثير عواطف الشّعراء الّذين كانوا غير قادرين على أداء فريضة الحجّ بسبب أو لآخر فيعتبرون ذلك شعراً دينياً شجياً، كما في قول العماد الأصفهاني[399]:

إن جئـــتما أرض الحجـــاز فـــبلغا ... ســـلامَ شـــجٍ عـــن شَـــغلهِ مـــاَ تفرَّغا
وقـــولا تركـــناه مضـــيعاً صـــبابةً ... عصى صبْرُه، والدَّمع في طوْعهِ طغى
ولا تُخـــبرا إلاّ بحـــال اشـــتياقهِ ... ففـــي ذكْـــرهِ مِـــنْ بـــرحِهِ كلَّ مُبتغى
تُرنحـــنى ذكـــراهمُ وتهزّنـــي ... كأنّـــي ســـكرانٌ إلـــى نغمـــةٍ صَغى

ويخفق قلب عفيف الدين التلمسانيّ بالحنين إلى أداء فريضة الحجّ وزيارة قبر الرســـول الكـــريم، فيتمنَّى أن يزور المدينة المنّورة الّتي شرّفها الله بأن ضمّ ترابها شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، يقول[400]

يـــا ســـاكني طيبة الفيحاء هل زمنُ ... يُدنـــي المحـــبّ لنـــيل السّوْل والأرَبِ
ضَـــمَمْتِ أعظُـــمَ مَـــنْ بأعظم مَنْ ... يســـعى إلـــيه أخـــو صـــدقٍ فلم يَخِبِ

تحــدو النــياقُ كــرامُ نحــو تربتهِ فــتملأ الأرضَ مِــنْ نُجُبٍ ومنْ نِحَبِ
يَسْــعوْنَ نحو هضابٍ طاب مَوْرِدُها كأنّمــا العــذّبُ مشــتقٌّ مــن العُذَبِ

ووصف بعض الشعراء في حجازّياتهم رحلة الحجّ، وما عانوه منها من عناء السّفر، يحدهم الشوق إلى زيارة قبر الرسول الكريم، ذاكرين المنازل الّتي يحلّون بها مــنزلاً ، كما في الأبيات التالية الّتي قالها يعقوب الدمشقيّ يصف رحلة الحجّ منذ أن خرج من دمشق إلى أن وصل إلى الحجاز[401]:

هَجَــرَ الْأهْــلَ والأحــبَّة لمَّــا قصَــد الخــالِقَ الْجــوادَ الفَــرْدا
وتــرامى عــن جلَّــق وأتــى الكُسْــوةَ[402]، والدَّمْــع قــد كَسَــا الخَدَّخَــدّا
حَــارَ لمَّــا رأى معــالمَ حَــوْرا نَ وُبصْــرى لمّــا تبصّــرَ رشْــدا
وَسَــرَى بَعْدهــا إلــى المنْهل الأزْ رَقِ، والشَّــوق قــدْ تــزايد جــدّا
عَظُــمَ الأجْــرُ بالعَظامــي لمَّــا جَــدَّ فــي قصْــدِهِ وأضْــحى مُجــدًّا
وَتَمــادى مــنه إلــى الْعُمَــريْ الْعَذْ بِ، فوافــاهُ يُفضــلُ الــثّلجَ بَــرْدا
وَأتــى مَــرَّ وهْــوَ أحلى مِنَ الشّهْـ ـــدِ أزْكــى عُذوبــةً وَأشَــدَّا
ثُــمَّ وَافَــى بُسَــيْطةً وبِسَــاطُ الشْــوْقِ يَحْــدوه والرّكائــب تُحْــدى

ووصــف يعقــوب الشَّــيبانيّ في قصيدة قالها، وهو في البيت العتيق، بعضَ مناسكِ الْحَــجِّ، فَصَوَّر الطَّائفين حول الكعْبةِ، وقد خشَعَت قلوبهم، واتَّقدَت جَذْوةُ الإيمانِ في نفوسهم، يقول[403]:

إلــى كعْــبةٍ ســوداء في عَيْنِ جاهلٍ وَفــي عَيْــنِ ذي اللــبّ المنوّرِ أنْوارُ
يَطــوفُ بهــا فــي حِنْدسِ الليل دائماً رجــالٌ هُــدىً شُــعْثَ الملابس أبْرارُ
رُؤوسُــهمُ مِــنْ خَشْــيةِ الله نُكَّــسٌ وَدَمْعُهُــمُ مِــنْ فــارطِ الذَّنْــبِ مدْرارُ
لأنْفاسِــهم مِــنْ شــدّةِ الوجْــدِ لاعِجٌ تكــاد تــراءى مِــنْهُ للمُبصِــرِ النَّارُ

وكمــا اصــطنع المتصّوفة لغة الغزل وهم يُعبّرون عن مواجدهم وتجاربهم الصــوفيّة، فإنّ بعض شعراء المديح النبويّ، وبتأثير من المتصوّفة، قد أوجدوا نمطاً جديداً من المدائح النبوية تقوم على استخدام لغة الحبّ في مدحهم للرسول صلى الله علــيه وسلم، وقد امتازت هذه الأشعار بخصائص موسيقية غنائيّة تساعد على الترنّم

بهـا في مجالس سماع الصوفيّة، كما في قول عفيف الدين التلمسانيّ معبراً عن حبّه للنبيّ بعبارة موشحة بالغزل[404]:

هـذا الّـذي أحـبّه قـاسٍ علـيّ قلـبُه
نـامَ ولـمْ يعلـمْ بمـا بـات يقاسـي قلـبهُ
واعجـباً كـم عـاج بـي دلالـه وعجـبُهُ
آهـاً لمضـني والـهِ لـم يـدرِ كـيفَ ذنُـبهُ
إنْ لاحَ بـرقٌ ظـلّ يَـرْ جـو أن يلـوح قلـبُه

إلى أن يقول:

يجـبُّ مـن آجـل الحبيـبِ كـلَّ مـن يُحـبهُ
فقصـده محمـدٌ وآلـهُ وصـحبُهُ

وإذا كـان بعض الشعراء قد وصفوا رحلة الحجّ وما كابدوه فيها من مشاقّ، فـإنَّ شعراء آخرين نحوا منحىً جديداً عرف لدى بعض الفقهاء بـ (الحجّ العقليّ)، حيـث يحجّ الإنسان بخياله ويؤدّي مناسك الحج ومشاعَره بفكره، دون أن يخلَّ بأي نُسكٍ منها.

وقـد وُجدت هذه الظاهرة لدى الملك الناصر داود حيث تضمّن ديوانه عدداً من القصائد تصف هذا اللون من الحجّ. من ذلك قصيدته الّتي أوّلها[405]:

إذا مـا انْـبَرتْ هـوجُ المهـارى يؤُمـنَّ بيـت الله مشـياً علـى القَدَمْ

وهـو في هذه القصيدة يقيم موازاةً واضحة بين هذه الرّحلة العقليّة والرَوحيّة وبيـن الـرحلة الواقعيّة الأرضيّة.... مزج الشاعر فيها بين الذكر الصّريح لمناسك الحـجّ وبيـن الرّمز الصوفيِ ومن ثمَّ فقد استغرق الشاعر في التعبير عن مواجده، والحديث عن سطوة الواردات عليه، وتجلّي الأسرار الإلهيّة له، يقول[406]:

سَـرَتْ بي مهاريِ الفكر في مهمه التّقى إلـى الله ربّ البيـت جرياً على القِمَمْ
يلـوح لنفسـي مُسْـرقاً بيـتُ قدسـه كما لاح ضوءُ الفجر في غيهب الظُّلَمْ
بـنور جـلالٍ لـم يـزلْ مـتألقّاً لـدى كـلّ سـيّارٍ إلـيه مـنَ القِدَمْ
إذا مـا أتَـتْ مـيقاتُ لقـياه أحرمـتِ ملبـيّةٍ، تسَـتنزلُ الجـودَ والكَـرَمْ

ويمضـــي الشّـــاعر فـــي رحلـــته الذهنية هذه، فيصف دخوله البيت الحرام واســـتلامه الرّكن، والطواف سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات، ورمي الجمرات، وذبح الهدي، والتحلّل من الإحرام، والتقصير، وطواف الوداع.

وممّـــا يرتبط بالمدحة النبويّة مدحَ صحابة رسول الله عليه الصلاة والسّلام، والإشادة بآل البيت النبويّ الشريف، وقد كان ذلك يأتي ضمن المدحة، النبوية نفسها، أو يُفْرد له قصائد مستقلّة، من ذلك الأبيات التالية التي وردت ضمن قصائده النبويّة، وقد مدح فيها أبا بكر الصدّيق، ونوّه بقيامه بالحقّ، ونهوضه بأعباء الخلافة، وإنفاقه أمواله في سبيل الله، وتصديقة للنبي الكريم، وسيره على هديه، يقول[407]:

وعلـــى أبـــي بكـــرٍ خليقـــتك الّـــذي ... للحـــقّ قـــامَ مـــثقفاً ومقوّمـــا
سّـــماه بالصـــدّيق صـــدقُ يقيـــنه ... ســـبق الـــرّجالَ إلـــى الـــنجاة فأسلما
وغـــدا بذيـــل المصـــطفى متمســـكاً ... وعلـــى أوامـــره يشـــدّ مصـــمّما
وأنيســـه فـــي الغـــارِ حيـــث يقول لا ... تحـــزن فـــإنّ الله أمـــنع مـــن حمـــى

وهكـــذا فقد ازدهرت المدائح في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة، وتعدّدت بواعـــثها، وتنوّعت موضوعاتها... ولم تعد مقصورة على التغنّي بمآثر النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم، وصفاته، وإنّما تجاوز ذلك للتعبير عن تجارب ارتقوا بها عن المســـتوى المـــادّي إلى آفاق روحيّة تعبّر عن مواجدهم الرّوحية، وأشواقهم الدينّية، وذلك بتأثير من الشعر الصوفيّ الذي ازدهر آنذاك.

2.3 ثانياً: المدائح الإخوانيّة

وهـــي رســـائل شّـــعرية قد يشاركها النثر في بعض الأحيان، كان الشّعراء يتراســـلون بها في حل أمورهم: جدها وهزلها على حد سواء، ولذلك استطاعت أن تـــنقل إلينا كثيراً من صور العلاقات الاجتماعيّة، والصلات بين الأقارب والأصدقاء وغيرهم خير تصوير[408].

وقـــد كـــثرت الأشعار الإخوانيّة في الشّعر الشّاميّ زمن الحروب الصليبيّة، بشكل يستدعي النظر، وقد أسهمت بعض الأسر التي اشتهرت بقول الشّعر في ذلك، إذ كـــان نفر منها يتبادلون هذه المكاتبات الشّعرية فيما بينهم، للتعبير عن مشاعرهم

ومواقفهم من المسائل التي تستجد في حياتهم، لذا فقد نقلت لنا هذه الأشعار صوراً من علاقاتهم الاجتماعيّة، وروابطهم الاجتماعيّة[409].

ومن هذه الأسر أسرة بني منقذ، فقد حوى ديوان أسامة كثيراً من المكاتبات وما ينخرط تحتها من المعاتبات بين أفراد أسرته، ومن هذه المكاتبات الشّعرية ما كتبه أسامة بن منقذ إلى عمّه سلطان بن منقذ أبي العساكر، ويشير فيها إلى تصديق عمه ما يقوله الواشون[410]:

أطاع ما قالهُ الواشي وما هَرِفَا ... فَعاد يُنْكِرُ منه كلَّ ما عرفا

ويطيل أسامة بن منقذ في استعطاف عمّه وتذكر ما حصل، فعمه قد صدَّق الأقاويل فيه، ولم يتبين صحة ما قالوه، وهو الذي أمضى عمره في إرضائه وطاعته، فيقول[411]:

وابتزَّني رأيَ عزِّ الدّينِ، مُستلباً ... من بعد ما عمّني إحسانه وضَفَا
أضافني عتبه همّاً شجيتُ به ... أبانَ عن ناظري طيب الكرى ونَفَى
أتتهُ عنّيّ أحاديثٌ مُزخرفةٌ ... ما إنْ بها عنهُ ، وهو الألمعيُّ خَفَا
لكنها وافقت من قلبهِ مَلَلاً ... لم يستبَن صحَّةَ الدَّعوى، ولا كشَفَا
أنفقتُ مذهبَ عُمري في رضاكَ، وما ... رأيتُ منفعتَ عُمرٍ واحداً خَلَفا
لكنّني اعتضتُ منه حُسنَ، رأيك لي ... فَنلتُ منه العُلاَ والعزَّ والشَّرفا

وبعد هذا العز والإحسان الذي لقيه، يلاقي أسامة بن منقذ من عمّه الجفاء والقسوة والحزن والأسى على ما كان وما أصبح، فقد لقي جفوة من ذوي رحمة وهم أقرب الناس له، فالعزة والأنفة التي كانت نفسه تحملها ذهبت بذهاب ودّ عمّه، فيقول[412]:

أريتني، بعد بشرْ، هجرةً وملىً ... وبعد برٍّ ولطفٍ، قسوةً وجفاَ
هبني أتيتُ بجهل ما قُذفتُ به ... فأين حلمُك والفضلُ الّذي عُرفاً
ما حدَّثني نفسي عند خلوتها ... بما تُعنِّفُني فيه إذا انكشفا
لكنّها شقوةٌ حانتْ، وأقضيةٌ ... حَبَني الهمَّ مذعامين، والأسَّفا

ويستمر أسامة بن منقذ في استعطاف عمّه عله يجد عنده الرحمة والتسامح بعد ما فاز بقربه ليجدَ من يفرق بينه وبين عمه فيقول[413]:

وأقصدتني سهامُ الحاسديّ على ... فوزي بقربك حتى قرطسوا الهدفاَ
وبعد ما نالني إن جدت لي برضاً ... فقد غفرتُ لدَهريَ كلّ ما سلفا
حاشاك تفدُو ظنوني فيك مخفقةً ... أو ينثني أملي باليأس منصرفاً

غير أن هذا الاستعطاف لم يجد نفعاً مع عمه، فلا يجد أسفاً أسامة بن منقذ بمكاتبة والده على تركهم لأنهم أظهروا من القسوة والقطع مالا يمكنه معالجته فيكاتب والده بقوله[414]:

لكنني أشكو قوارض من ... تلقائهِمْ، قلبي لها يَجِفُ
وملالةً منهم يبينُ على ... أثنائها الشَّنآن والشَّنَفُ[415].
قطعوا أواصرَ بيننا وشجت ... كُرماءَ، إمّا استُعطفُوا عطفُوا
أنكرتُ قسوتهمُ، وأعرمُهُمْ ... كُرماءَ، أسبابهَا الأنسابُ والسَّلَفُ
وكيفت آمالي بجودكِ أن ... تُضحي إلى الرَّغُباتِ تشْرَفُ

فأسامة قد أدرك أن الحنوّ الذي كان يلقاه من عمّه قد تلاشي، وهو يستعطفه أن يستمّر في عطفه عليه، ويمدحه بأنّه وفيّ العهد، يُذِمُّ كلّ من يلوذ به[416]:

ألفت منك حُنواً مُذ كنتُ، وقد ... فقدتُه، وشديدٌ فقد ما ألفا
وغير مُستنكرٍ منك الحنُوُّ على ... مثلي، ولو زاغَ يوماً ضلَّةً، وهَفَا
فعُدْ لأحسن ما عودتَ من حَسنٍ ... يا من إذا جَادَ وفيَّ، أو أذمَّ وَفَى
أيَّامُنا بك أعيادُ بأجمعِها ... فَدُم لنا مادَجاَ ليلُ، وما عَكّفاَ[417]

وبعد هذا اليقين من أسامة بن منقذ تضيق نفسه بالهم والحزن والأسى فيكاتب والده وبذلك يكرر طلبه من والده بترك شيزر، فهو يستميح والده للبعد حتى لا يأخذ إلا رضاه ولا يعيقه، فنفس أسامة مليئة بالألم والحزن والهم، ولم تعد تحمّل هذا الحقد فهو ثقلُ مُرهقُ لا تتحمله النفس، فحرصه على إبقاء صلات المودة لم تعد تنفع فلا يجد أسامة في نفسه قدرة على التّحَمل فقد أفسدوا عيشه وعيشهم بما لاقاه منهم من الفساد والبغض والكره، فالرحيل هو الحل بعد هذه الفجوة التي قامت بينه وبين آل عمه فيقول[418]:

أشــكوا إلـــى علياك هَمّاً ضاق عن كـــتمانهِ صـــدري، ومـــا ضـــيّقُ
أنـــا عـــائذٌ بـــك مـــن عُقوقٍ مُحبطٍ عملـــي، فعصـــياني لأمـــرك مُوبِقُ
لا تلزمنـــــي بـــــالهوان وحملـــــهِ إنَّ احـــتمال الهـــونِ ثقـــلٌ مـــرهقُ
دعنـــي وقطع الأرض دون معاشرٍ كـــلُّ علَّـــي غـــير جرُمٍ مُحنقُ [419]
أعـــيا علـــيَّ رضـــاهُم، فيئستُ من إدراكـــهِ، مـــا الـــنَّجمُ شـــيءٌ يلحقُ
قـــد أفســـدوا عيشـــي عليَّ وعيشُهم فأنـــا الشـــقيُّ بهم، وبي أيضاً شقوا
فاســـمح بـــبعدي عَنْهُمُ برِضَاكَ لي إنَّ الّـــذي ترضـــى علـــيه مُوفَّـــقُ

وعلـــى الـــرغم من تصدّع العلاقة بين أسامة وأبناء عمومته فقد لجأ إلى ابن عمّـــه محمد بن سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، يستعينه على فكاك أخيه نجـــم الدولة أبي عبدالله محمد بن مرشد من أسر الفرنج، فيشيد أسامة بن منقذ بابن عمه وبصفاته استعطافاً له مستثيراً المشاعر النبيلة في نفسه[420]:

يـــا ناصر الدين، يا ابن الأكرمين، ومن يُغـــنى نـــدى كفّـــه عـــن وابل الدِّيم
ومن حوى السَّبق في فضلٍ، وفي ورعٍ وفـــي عفـــافٍ، وفي دينٍ، وفي كرمِ
أنـــت القـــيُّ، علـــى مـــا فيك من لَسَنٍ عـــن لا، وأفصـــحُ خلقِ الله في نعمِ
هـــذا ابـــن عمـــك في أسر الفرنج ، له حـــولٌ تجرَّم[421]، في الأغلالَ والظُّلَمِ
يدعـــوك، لا بـــل أنـــا الدَّاعي نداك له يـــا خـــير مـــن علقَته كفٌّ معتصمِ
وأنـــت أكـــرمُ مـــن تثنـــيه عاطفـــةُ القُربـــي، ويـــرجوه للجُلَّـــى ذوو الـــرَّحمِ
ومـــن تكـــن أنـــت مـــولاهُ وناصـــرَهُ فكـــيف تســـطو علـــيه كفٌّ مهتَضِمِ

ومن الأسر الشّاميّة التي أكثرت من تبادل المدائح الإخوانية أسرة أبي جرادة، تضاهيها بهذا النوع من المدح، ومن هذه الأشعار التي كان يتبادلها أبناء أسرة بني أبي جرادة[422]، قصيدة قالها القاضي ثقة الملك الحسن بن علي بن أبي جرادة مع أبيه وأخيه بعد ما سافر إلى مصر، وقد بعثها إلى أبيه محملة بعواطف الاشتياق واللوعة والأسى على هذا الفراق، يقول[423]:

اســـتودع الله أحـــباباً أُشـــاهدهُم بعيـــن قلبـــي ولـــيسَ دارهـــم كثباً
أصـــبحتُ لا أرتجـــي مـــن بعد فُرقتهم خـــيلاً أفاوضـــه جـــداً ولا لعـــبا
فـــإن سُـــررتُ فإننـــي مضـــمِرٌ حَزناً أو ابتســـمت وجـــدتُ القلـــب مكتئبا

ومنها قصيدة قالها أخوه القاضي الأعَز أبو البركات بن أبي جرادة[424]، كتبها إليه من مصر يمزج فيها مشاعر الحنين والعتاب فيقول[425]:

أسكان مَصرَ هل إليكم لذي هوى ... ولو في منامِ العين وجهُه تقرُّبِ
سقى جانب الوادي الذي عقدتُ به ... قبابُكمُ، صَوبُ الحيا المتهَدِّب
فروَّضَ من مغناكمُ كلَّ تلعَةٍ ... وطفَّحَ من يطحائكمْ كلَّ مذنَبِ [426]
وهبَّتْ لكم ريحُ الصَّبابة بتحَيَّةٍ ... أرقَّ من الشّكوى إليكمْ وأعذَبِ

ومن هذه الأشعار الإخوانيات ما كان يكتب بين الصديق وصديقه تعبيراً عن مشاعر الصداقة الرقيقة، من ذلك ما بعثه القاضي ثقة الملك بن أبي جرادة إلى أسامة بن منقذ[427]:

أحبابنا فارقتكُمْ ... بعد ائتلاف واعتلافِ
وصفاءِ ودٍ غير ممـ ... ـذوقٍ ولا مُرِّ المذَاقِ
ووثائقٍ بين القلو ... ب تظل محكمة الوِثاقِ
نفقت بسوق المكرما ... تِ فليس فيها من نفاقِ
لكنني وإن اغتربْـ ... ـتُ وعزَّني قربُ التلاقي
لا بدَّ أن أتلو حقيـ ... ـقة ما لقيتُ وما ألاقي
أمّا الغرام فما يزا ... لُ به التَّراقي في التَّراقي
وكذلِكُمْ وجدي بكم ... باقٍ وصبري غيرُ باقِ
وطليقُ قلبي موثقٌ ... وحبيس دمعي في انطلاق

وتتفرع هذه الأشعار الإخوانيات لتشمل موضوعات أخرى إلى جانب العتاب والشوق مثل التهنئة بشفاء من مرض وبمولود جديد، أو عودة غائب واستهداء وتفكه وغيرها...، من ذلك ما أورده صاحب الخريدة العماد الأصفهاني من أبيات أوردها لعلم الدين الشّاتاني عندما فُصِد يوماً فغلط الفصّاد وأنفذ في عرقه وقطعه، فكتب علم الدين الشّاتاني قصيدة، لتاج الدين الشهرزوري على شكل مفاكهاتٍ إخوانيّةٍ، يشتكي فيها ألم جرحه[428]:

اسمع مقالةَ شاكٍ ... مِنْ زَحْمَةِ العُوّادِ
جارَ الطبيب عليه ... لا زال حِلْفَ السُّهادِ

بطعـــــنةٍ قـــــد تعـــــدَّتْ إلـــــى صـــــميم الفـــــؤادِ

فأجابه تاج الدين الشهرزوري بقصيدة يواسيه فيها بمرضه ويدعو له بالشفاء.

حوشـــــيتَ يـــــا علـــــم الديـــــن يـــــا فـــــتى الأمجـــــادِ
ممّـــــا يســـــوء موالـــــيكَ أو يسُـــــرُّ الأعـــــادي
وللعِـــــدى مـــــا جنـــــتْهُ شُـــــلَّتْ يـــــدُ الفَصّـــــادِ
حويـــــت وحـــــدك فيـــــنا فضـــــائلَ الأحـــــادِ
تضـــــاعفتْ فـــــيك حـــــتَّى جَلَّـــــتْ عـــــنِ الـــــتَّعْدادِ
يـــــا مـــــن أقـــــامَ نـــــداهُ فـــــي كـــــلّ نـــــادٍ يُـــــنادي
إلـــــى جـــــزيلِ العطايـــــا مـــــنه وغـــــرِّ الأيـــــادي
لأنـــــت مـــــن خـــــالص القلـــــب فـــــي صـــــميم الفـــــؤادِ
وأنـــــت أشـــــهى إلـــــى العيـــــن مـــــن لذيـــــذ الـــــرُّقادِ

وقد تناول الشعراء في إخوانيّاتهم التهاني بالمناسبات الاجتماعية، فقد رفع ابن السّاعاتيّ أبياتاً في توديع صديق له قد عزم على السفر فوجده قد تقدمه فقال[429]:

يـــا ســـائراً مـــا الصـــبرُ إلاَّ عـــن ســـواه بمســـتطاع
هـــلاَّ وقفـــت ولـــو وقـــوف الســـيل فـــي شـــرف يفـــاع
بُلغـــتَ يـــومَ البيـــن مُنـــيةُ مـــن العـــبدِ المُضـــاع
وحكمـــت فـــي القلـــب الجـــبان بســـنَّة الشـــوق الشـــجاع
هـــيهات تســـمحُ باللقـــاء وأنـــت تـــبخل بـــالوداع

وتتميز الأشعار الإخوانية على شكل مفاكهات بين الأصدقاء، منها الإمتاع والمؤانسة مثل الشهرزوري على سبيل المفاكهة بحيث صنع قصيدة لا يخلو بيت فيها من كلمة (قاع) فاستشاط علم الدين الشّاتاني غضباً فأرسل إليه الشهرزوري قصدة اعتذارية تنّم عن العلاقات الودية بينهما[430]:

لا أوحـــش الله مـــنك يـــا علـــم الدّ بـــن نـــديَّ الكـــرام والفُضَـــلا
أعَـــنْ فـــلاً ذا الصـــدود أم ملـــل حاشـــا العُلـــى مـــن ملالةٍ وحلا
هـــل جائـــزٌ فـــي العلى لربِّ عُلى أن يفـــتدي هاجـــراً لـــربِّ عُلـــى
كنـــت أخـــاً أن جفـــا الـــزّمان وفى أو ظلـــم الخطـــب جائـــراً عـــدلا

رفـيقُ رفـقٍ لـنا إذا عنفـت الـدّ هـرُ وظِـلا يسـدد الخلـلا
صـديق صـدق مـا زال إن كـذب السُّـعاة للأصـدقاء مُحقِـلا
فمـا الـذي كـدّر الصـفاء مـن الـود يـرو ورده العُلَـلا

وانـتهز بعـض الشّعراء مناسبات الأعياد لتهنئة أصدقائهم، كما في قول أبي المجـد المعـري[431]، مهنيـئاً أباه بعيد الفطر، ومستشعراً ما في أيام العيد من متعة وبهجة[432]:

تهـنّ بالصـوم وبالفطـر وعـش سـعيداً آخـر الدَّهـرِ
يـا سـيداً أفـاق جمـيع الـورى بـالعلم والـزُّهدِ بالذكـر

وقـد توسَّـلَ الشعراء بإخوانياتّهم للاستهداء (ومن ذلك ما كتبه ابن عنين من أبـيات تـدل علـى أنّه قد أهدى صديقاً له مقلمة عليها صورة الفلك فعبر عن ذلك بأبيات قال فيها[433]:

أفديـك مـن مولـى تملـك خِلَّتيَ بخلائـقٍ غُـرٍّ فأسـبح إذ ملـك
لـولال الـذي يـبدو لـنا من هيئةٍ وخلائـقٍ بشـريةٍ قلـنا ملـك
ومـا تحـتويه يـداك مـن مالٍ لنا وجمـيع مـا تأتـيه من مدحٍ فلك
تـرتاح للراحـي إلى قصى المدى كـرماً فيصـعرُ عـنده ما يمتلك
وكأنّهـا لم ترضَ ما في الأرض من عـرض لراجـيها فجاءت بالفلك
لـك فـي المعالي منزلٌ أعيا الورى لا سـوقةٌ يرقـي إلـيه ولا ملك

وقـد يرسـل الشاعر مع هديته إلى صديقه بعض الأبيات التي أشبه ما تكون بالبطاقة، من ذلك ما كتبه ابن عنين إلى الرشيد النابلسيّ[434]:

يـا أيُّها الصاحب الصدرُ الذي شهدت بفضـله ونـداهُ الـبدو والحَضَـرُ
عسـاك تقـبل شـيئاً قـد بعثـت به نـزراً فإنـي إلـى علـياك اعـتذرُ
ولـو بعثـتُ علـى مقدار فضلك أر سـلتُ الكواكـب فيها الشمس والقمر

واتَّسع ابن عنين في مداعباته الإخوانية، فضمّنها الشكوى من الفقر وطلب ما يحتاج إليه من متاع ، كما في قوله يطلب من صديق له فروة تدفئه في الشتاء[435]:

جـاء الشـتاء ولـيس عـندي فروةٌ والقـرُّ خصـم لا يُـرَدُّ ويدفـعُ

وإذا الشـــتاء أتـــى ومالـــي فـــروة ألفيـــت كـــلّ تمـــيمة لا تـــنفعُ
فوصـــف مجـــدك وهـــو جهـــدُ أليّتي ونـــداك وهـــو لكـــل خطـــب مدفـــعُ
إنـــي أبيتُ على الطوى خاوي الحشا ســـغباً وأحـــناءُ الضـــلوعِ تقعقـــعُ

وكان بعض هذه الإخوانّيات ممّا يتسلى به الأصدقاء في فصل الشتاء الّذي قد يمنع الزيارات فيما بينهم، فيتراسلون شعراً، ومن ذلك تلك المكاتبات التي جرت بين العمـــاد الأصـــفهاني وابـــن أبي عصرون[436]،فقد كتب العماد لشرف الدين بن أبي عصرون قوله عن كافات الشتاء[437]:

أيـــاً شـــرف الديـــن إن الشـــتاء بكافاتـــــه كـــــفٌ آفاتـــــهِ

وقـــد أجابه ابن أبي عصرون، بعد تأمله بهذه الأبيات، ومعرفته لمدى شوقه للقائه، واستيحاشه لتأخره، فقال له معرباً عن مدى وحشته له، والبعد الحاصل بسبب الشتاء فقال[438]:

إذا جـــــاء الشـــــتاء وأمطـــــارُه عـــــن الخـــــير حاســـــبة مانعـــــهْ
وكافاتـــــه الســـــت أُعطيـــــتها وحاشـــــاك مـــــن كافـــــه الـــــرَّابعهْ
وكـــــف المهابـــــة والاحتشـــــام لكفـــــيَّ عـــــن بـــــرّه مانعـــــه
وهمَّـــــةُ كـــــل كـــــريم الـــــنّجار بميســـــور أحـــــبابه قانعـــــه
ونفســـي فـــي بســـط عـــذري لديـــه جُعلـــتُ الفـــداءً له طامعـــه
وشـــوقي إلـــى قـــربه زائـــدٌ ومعذرتـــي إن جفـــا واســـعه

فيجيـــبه العماد بأبيات تنمّ عن مدى التقدير والاحترام للإمام بن أبي عصرون وقبول اعتذاره فيمدحه قائلاً[439]:

وهـــل كابـــن عصـــرون في عصرنا إمـــــامٌ أدلـــــته قاطعـــــه
أيـــا شـــرف الديـــن شـــرفتني بـــــإهداء رائقـــــة رائعـــــه
أطعـــــت أوامـــــرك الســـــاميات ومـــــا برحـــــت همتـــــي طائعـــــه
أرى كـــلّ جارحـــة لـــي تـــودّ ولـــــو أنهـــــا أذن ســـــامعه
وأمـــــا الشـــــتاء وكافـــــته وكفـــــك عـــــن كفـــــه الـــــرابعه
فنفســـــي مـــــنزهة بالعفـــــا مـــن عـــنها وفـــي غـــيرها طامعـــه

ومـــاذا تطـــيق إذا لـــم تكـــن بميســـــور ســـــيدنا قانعـــــه

وبذلـك نجـد أن هـذه الأشعار قد تعددت أنماطها غير أنّها كانت تصب في موضـوع واحد وهو تبيان لمدى تطور العلاقات الاجتماعية ما بين الأسرة الواحدة، والأصدقاء، وبما ينمّ عن مشاعر وأحاسيس تحمل الاحترام والتقدير من جانب، ومن جانـب آخـر صدق المشاعر في معاتبة صديق أو تذكره أو التشوق إليه أو إهدائه، وقـد كانـت هذه الأشعار صورة واضحة للعلاقات الاجتماعية بما تحمله من تعابير وأحاسيس ما بين الناس وعلاقاتهم الاجتماعيّة فيما بينهم.

3.3 ثالثاً: المدح البلدانيّ:

تعـاظم الإحساس بالمكان زمن الحروب الصليبيّة، واتّخذ مظاهر متعدّدة لعلّ أبرزها الاهتمام بالتأليف في فضائل البلدان، والتأليف في تاريخ المدن، وذلك بتبيان فضائلها، وإبراز مكانتها الدينيّة والحضاريّة وربطها بالعقيدة الإسلاميّة، وكأنّهم بذلك يسـتثيرون الأمّة للدفاع عن هذه الدّيار المقدّسة، ويؤكّدون عروبتها وإسلاميّتها، وأنّ الفرنجة قوم طارئون عليها، وأن ليس أمامهم إلاّ أن يرحلوا عنها، ومن هذه الكتب " تاريخ دمشق"، لابن عساكر، بالإضافة إلى كتبٍ أخرى ألّفها، وكان كلّ كتابٍ يحمل اسـم الموقـع الذي يتحدّث عنه، مثل: (القدس) و(فضل عسقلان) و(من نزل غزّة) و(في الربوة والنّيرب) و(في كفر سوسية) و(حرستا) و(زملكا) و(بيت لهيا) [440].

ولم يكن الشّعراء الشّاميّون زمن الحروب الصليبيّة بمنأى عن هذا الإحساس العـامّ، فقـد كـان للأمكنة والمدن الشّاميّة حضور واضح في أشعارهم، فمدحوها، وتغـنّوا بجمالها، وتحدثوا عن فضائلها ومزاياها، وصوّروا بعض مظاهر الحضارة والعمران فيها، وقارنوا بينها وبين البلدان الأخرى؛ وقد حظيت دمشق بنصيب كبير مـن هذا المدح والوصف، ولعلّ هذا يعود إلى أنّها كانت حاضرة الشّام الّتي يتوافد علـيها الشّعراء، ويليها في ذلك مدينة حلب. وقد توقّف الشّعراء طويلاً عند المشهد الطبيعّي لمدينة دمشق، ورسموا صوراً فنية جمليةً له استقصوا فيها عناصر الطبيعة المتـنوّعة معبريـن بذلك عن تعلّقهم بهذه المدينة، وافتتانهم بها، وارتياحهم لجمالها، ومن هؤلاء الشّعراء ابن الدّهان الحمصي؛ فقد مدح مدينة دمشق ووصفها في قصيدة طويلـة، وهـو وصف منبثق من الشّوق إليها بعد أنْ غادرها إلى حمص وتغنّى في

القصـــيدة بجمـــال البيـــئة الدمشقية الخلابّة، وصوّر مظاهر الإثارة فيها وقد سيطر (النّبـــت) ومشـــتقاته علـــى الصّورة الجمالية الّتي رسمها للمدينة، فبدت في صورة (روضـــة) غنّاء جادها الغيث، فانبتت مرابعها ضروباً شتىّ من الورد والشجر، كما فـــي الأبـــيات التالـــية الّتـــي اكتســـت فيها عناصر الطبيعة لبوس الحسان من بني الإنسان[441]:

واهـــاً لهـــا حيـــن حلّـــى الغيثُ عاطلَها ... مكلّـــلاً واكتَســـى الأوراق عاريهـــا
وحـــاكَ في الأرض صوبُ المُزنِ مخملَةً ... يُنـــيرها بغواديـــــة ويســـــديها
ديـــباجة لـــم تـــدع حســـناً مفوَّفهـــا ... إلاَّ أتـــــاه ولا أبقـــــى موشّـــــيها
تـــرنو إلـــيك بعيـــن الـــنَّوْرِ مخملـــهُ ... إذْ بـــات عيـــنٌ مـــن الوسميّ تبكيها

ويضيف الشّاعر إلى محاسن هذه (الروضة) عنصراً جديداً يتمثَّل في الجمال البشـــريّ الأخّـــاذ الّذي انتشى بحُسنها، فانطلق في رحابها في حيويّةٍ ونشاط، وأخذ يمارس فِعلَه في قلوب الناظرين:

فَللحـــاظ وللأســـماع مـــا اقترحـــتْ ... مـــن وجـــه شادنها أو صوت شاديها
إذْا العـــزيمةُ عـــن فـــرط الغرام ثنتْ ... قلـــباً تثـــنَّى لهـــا غصْـــنٌ فيثنـــيها
ريـــمٌ إذا جلبـــت حَيْـــناً لواحظُـــهُ ... للـــنّفسِ حـــيّا بخدَّيـــه فيُحـــيها
جـــنايةٌ طـــرفهُ المحـــورٌ جـــاء بهـــا ... ورأس عارضـــهِ المخضـــرِّ آســـيها

وتكـــبر صورة (الروضة) وتتّسع لتتحوّل دمشق إلى (جنّة) نعيم، وهنا يلتفت الشّاعر إلى بعض المأثور من صفات الجنَّة، ويخلعها على المدينة:

ونحـــن فـــي جـــنَّة لا ذاق ســـاكنُها ... بأســـاً ولا عرفـــت بؤســـاً مغانـــيها
ســـماء دوحٍ تـــردّ الشـــمس صـــاغرةً ... عـــنّا وتـــبدي نجومـــاً فـــي نواحيها
تـــرى الـــبدورَ بهـــا فـــي كـــلّ ناحيةٍ ... ممـــدودة للـــنجومِ الزّهـــر أيديهـــا

ونظـــم عبدالمـــنعم الجلياني قصيدة أسماها (القصيدة الشمّاء في نعت الغوطة الدّهمـــاء)، تغـــنَّى فيها بجمال البيئة الدمشقية، واستعرض بعض مواقع النّزهة الّتي يخرج الناس إليها، من ذلك يذكر يوماً قضاه في أحد البساتين[442]:

ويومـــنا والمـــنى تعطـــي أعنّـــتَها ... طَـــوْع القـــيادِ وتجنى حَسْبُ جانيها
والمـــرجَ كالعيـــن والأنهـــار أدمعهـــا ... وظـــلّ شـــجرائِها جفـــنٌ يغشّـــيها

كأنّـــه سَـــبَحٌ يحـــوي زمـــرّدةً أو طـــرفُ زرقـــاء مكحـــولَ مآقيها
للطَّـــرْفِ والطَّـــرّفِ فـــي مـــيدانه نُزَهٌ تأتـــي الـــنفوس به مرضى فيشفيها

وصـــوّر الشّـــعراء في سياق مدحهم للبلدان الشاميّة رحلات التنّزه الّتي كان يقـــوم بهـــا عامّـــة النّاس، حيث يخرجون إلى الطبيعة ويقضون فيها بعض أوقاتهم مســـتجمعين، وقـــد كـــثر الشّعر الّذي يمثّل ذلك، حتىّ لِيخيّل إلى القارئ أنّ بساتين دمشق كانت مُتَنزَّهاً واسعاً يفيء إليه النّاس للتمتّع بجمالها ومحاسن طبيعتها، وكأنّهم فتنوا بها فتوناً وفي ذلك يقول شرف الدين راجح بن إسماعيل الحليّ [443]في وصف دمشق[444]:

فـــانهض إلـــى خلـــس اللّـــذات منتهباً أيامهـــا وتمـــتع مـــن لياليـــها
فـــيها دمشـــقُ كمـــا تختـــار ســـافرةٌ تجلـــو علـــيك بديعـــاً مـــن معانيها
حيـــث التفـــتّ فجـــنّاتٌ مزخـــرفةٌ بالحســـن يقصر عنها وصفُ رائيها
فمـــا اجتليـــت خـــدوداً مـــن شـــقائقها إلا اجتنيـــت ثغـــوراً مـــن أقاحـــيها
أرضٌ إذا باكـــرتّها الغاديـــاتُ فـــلا راحـــت بسِـــرحَةِ نعمـــانٍ ووادِيهـــا

وأعـــرب العرقلة الكلبيّ عن افتتانه بمدينة دمشق، وابتهاجه بجمالها ولا سيّما في فصل الرّبيع، وذلك إذ يقول[445]:

والشّـــام شـــامةُ وجـــنة الدنـــيا كمـــا إنســـانُ مقلـــتها الغضيضـــة جلّـــقُ
مـــن آســـها لـــك جـــنّةٌ لا تنقضـــي ومـــن الشـــقيق جهـــنّمٌ لا تحـــرقُ
ســـيما وقـــد رَقَـــم الربـــيع ربوعهـــا وَشـــياً بـــه حَـــدَقُ الـــبرايا تحـــدقُ
فـــي نـــيرَبٍ ضـــحكت ثغـــورُ أقاحه لمـــا بكـــاهُ العـــارضُ المـــتألقُ

ويقـــترن هـــذا الشّعر الّذي تغنّى فيه الشّعراء بجمال البيئة الدمشقيّة بالحنين إلـــيها، ولا سيما لدى الشّعراء الّذين رحلوا عنها اختياراً أو قسراً، وقد صوَّر هؤلاء دمشـــق وغـــيرها تصوير العاشق المفتون بها، فتأملّوها بقلوبهم وصاغوا عواطفهم شعراً يفيض رقّة وعذوبة، ومن أمثلة ذلك قصيدة لنور الإسعرديّ قالها وهو مغترب عـــن دمشق، يدعو فيها لمدينته بدوام انهمار الغيث، مركزاً الحنين في أماكن معيّنة شـــهدت ذكـــرياته مع أحبّته، راسماً صوراً جميلة للرياض وقد عبث النسيم بزهرها الرقيق يقول[446]:

روّى دمشق فكم بها من لذّة ... ولّت لنا مأمونةَ الرّقباءِ
أيّام لا اللاحي يلوم ونحن في ... أمنٍ من الرّقباء والشُّجراءِ
ما بين نيربها وباب بريدها ... سربانّ: سربُ مهاً وسربُ ظباءَ
مرعاهمُ حيث القلوبَ وَوِرْدهمْ ... من أدمعي وربوعهمْ أحشاء
في روضةٍ عبث النسيم بزهرها ... فغدا بها متأرجحَ الأرجاء
رقصتْ بها الأغصانُ لمّا أعلنتْ ... ورقُ الحمائمِ فوقها بغناءِ
نثرتّ بها أيدي السماءِ فرائداً ... نُظمت لجيدِ الروضةِ الغناءِ

ويرتبط هذا الحنين إلى ديار الشّام بالتلذّذ بترداد أسماء المواقع الشّاميّة في الشّعر، وقد كثر هذا على نحو واضح، وكأنّ الشّعراء أرادوا أن يبثوا كل موقع في ديارهم في الأشعار الّتي يقولونها. من ذلك قول ابن عقيل الزرعيّ يتغنّى بجمال دمشق وهو ناءٍ عنها، فيذكر معالمها، وزمانه الّذي قضاه في علياء جيرون، كما يستعيد ذكرياته في ربوتها الفيحاء بين الجداول الّتي تجري مياهها بين البساتين[447]:

ذكرتُ ما لستُ أنسى من معاليها ... عصراً مضى لي على علياءِ جيرونِ
لله ربوتها الفيحاء سارحةً ... منها الجداولُ في تلك البساتينِ
فالنّيربين فواديها فما جمعتْ ... سطرى ومقرى إلى ماحَولَ جِسْرينِ

ونفذ بعض الشّعراء من مدح المدينة والتغنّي بمنظرها الطبيعيّ إلى مدح أهلها، والإشادة بهم؛ فقد قال القاضي أبو حامد الشهرزوريّ قصيدة مدح فيها دمشق وأهلها، مطلعها[448]:

سقى ربَعكَ العارضُ المغدِقُ ... وصَوْبُ الحيا أيُّها الجوسَقُ

وبعد أنْ وصف بعض القصور الدمشقيّة وما فيها من مظاهر حضارة، التفت إلى أهل دمشق، وأثنى عليهم، ونوّه بطيب معشرهم، وحسن معاملتهم، ودماثة أخلاقهم، وإحسانهم للغريب، ووفائهم لأصدقائهم، وحسن بلائهم في قتال الأعداء وشجاعتهم، يقول:

فيا أهل جلّق حيّاكمُ ... وجادكمُ العارضُ المبرقُ
فلولا لطافتكم لم تكنْ ... تطيبُ وتعذبَ لي جلّقُ
إذا خفقَ البرقُ من نحوكمْ ... يبيت فؤادي له يخفقُ

إذا مـــا الغريـــبُ ثـــوى بيـــنكم فكـــلٌّ له راحـــمٌ مشـــفقُ
وإن قـــال أعداؤكـــم عيـــبكمْ مـــلال الصَّـــديقِ فمـــا صـــدّقوا
تـــرى أيّ وقـــتٍ دُعيـــتمْ إلـــى لقـــاء العـــدوّ فلـــم تُعْـــنِقوا؟

واقـــترح بعـــض الأكابر في الدّولة النوريّة على العماد الأصفهانيّ أنّ يعمل قصيدة في دمشق، فأنشأ قصيدة مطلعها[449]:

أهـــدى النّســـيمُ لـــنا ريّـــا الرياحين أم طيـــبَ أخـــلاقِ جيراني بجِيرون

والقصـــيدة اســـتعراض لفضائل مدينة دمشق الاجتماعيّة ومحاسنها الطبيعيّة، ومظاهـــر الفتنة الجماليّة فيها؛ فهو يفضّلها على غيرها من البلدان لمّا تمتاز به من رعايـــة للفقراء والمحتاجين، وعناية بالمساكين والمنكسرين، وإقامة المنازل الخاصّة لهم. يقول:

دمشـــق عـــندي لا تحصـــى فضائلها عـــدّاً وحصـــراً ويحصـــى رملُ يبرينِ
ومـــا أرى بلـــدةً أخـــرى تماثلهـــا في الحسنِ من مصر حتّى منتهى الصّينِ
فـــي كـــلّ قطـــرٍ بهـــا وكْـــرٌ لمنكسرٍ وَمسْـــكَنٌ غـــيرُ مملـــولٍ لمســـكينِ
وإنْ مـــن بـــاع كـــلَّ العمـــر مقتـــنعاً بســـاعةٍ فـــي ذراهـــا غـــير مغـــبونِ

والقصـــيدة فـــيها كـــلّ العناصر الّتي تحدَّث عنها الشّعراء السَّابقون بصورة مـــتفرّقة؛ ففـــيها وصف لمظاهر العمران في دمشق، وتصوير أخّاذ للبيئة الطبيعية الجمـــيلة، بمـــا فـــيها من مياه وبساتين وطيور حتّى غدت المدينة لدى الشّاعر (دار النعـــيم)، وهـــو معين متاح للناظرين جميعاً، قد فتحت أبوابه للأبرار وغير الأبرار، ولـــم يقف الشّاعر عند حدود ذلك بل وصف مظاهر الجمال البشري فيها، ولا سيمّا الفتـــيات الحســـان اللواتي يخطفن القلوب بصورهن المستحسنة، وأخلاقهن العذبة. يقول:

إنَّ القلـــوب وألحـــاظ الحســـان بهـــا كالعصـــافير فـــي أيدي الشواهين
مـــن كـــلّ خاطفـــة للقلـــب مخطفـــةٍ بالخصـــر تمطلنـــي ديني وتلويني

مـــن شـــادنٍ متثنّـــي العِطـــفِ معـــتدل القـــوام مســـتعذب الأخـــلاقِ مـــوزونِ

ومـــن القصـــائد الطّـــوال الّتي قيلت في مدح دمشق قصيدة قالها الأمير أبو

الفضل إسماعيل بن أبي العساكر سلطان بن منقذ وقد جاء فيها كما قال ابن عساكر، بمحاسن دمشق مستقصاة مفصّلة[450].والقصيدة أوّلها:

يـــا زائـــراً يزجـــي القـــرومَ الـــبزّلا ... دَعْ قَصْـــد بغـــدادٍ وخـــلِّ الموصلا
لا تـــزجها لســـوى دمشـــق فإنّـــه ... ســـيطيلُ حـــزاً مّنْ تّعدَّى المفصلا

والقصـــيدة مـــن حيـــث المضمون ذات قيمة كبيرة، فهي تعبرّ عن إعجاب الشّـــاعر بمـــا شـــاهده فـــي المدينة من مظاهر دينية وتعليمية متنّوعة في المدارس والمساجد، كما في قوله:

ذو ربـــوةٍ جـــاء القـــرآنُ بذكـــرها ... ومســـاجد بـــركاتها لـــنْ تُجهَـــلا
ومـــدارس لـــم تأتهـــا فـــي مشـــكلٍ ... إلاَّ وجَـــدْتَ فـــتىً يحـــلّ المشكلا
مـــا أمَّهـــا مـــرءٌ يكـــابد حـــيزةً ... وخصاصـــة إلاّ اهـــتدى وتمـــوَّلا
وأئمـــة تلقـــي الـــدروس وســـادة ... تشـــفي النفوس وداؤها قد أعضلا

ويقـــف الشّـــاعر طويلاً عند المسجد الأمويّ، ويدهشه جمال عمارته وحسن صنعته، والتفنّن في بنائه، غير أنّ أكثر ما استرعى انتباهه الحلقات الّتي كانت تعقد لتلاوة القرآن الكريم في الصبّاح وغير الصباح. يقول:

وكـــأنَّ جامعهـــا الـــبديع بـــناؤه ... ملـــك يمـــير فـــي المساجد جحفلاً
تُلـــي القـــرآنُ بـــه وراعَ بحســـنه ... فهـــدى المصـــيخَ وحـــيَّر المتأمّلا
وتـــرى صـــبيحة كـــلَّ يـــومٍ زمـــرةً ... فـــي السّـــبع يتلون الكتاب المنزلا
وبخـــطّ ذي النّوريـــن فـــيه مصـــحف ... يجـــد الهدايـــة مـــن قراه ومن تلا

ويصـــف الشّـــاعر بعض الآثار الاجتماعيّة للصراع مع الفرنجة في معرض إشـــادته بـــأهل دمشق، فقد غدت المظاهر العسكريّة أمراً مألوفاً في شوارع المدينة، وذلك إذ يقول:

وجحـــافلٍ توفـــيِ علـــى عـــدد الحصا ... تـــذرُ المحـــرَّم بالســـيوف محلَّـــلا
تَخشـــى جمـــوعَ الشـــرك واحدَها ولا ... لـــومٌ لســـربِ قطـــاً تخشَّى أجدلا
والمـــرجع والمـــيدان مـــأهولان مـــن ... أســـد الشّـــرى أتلفت بغزلان الفلا
ولطالمـــا عانيـــتُ فـــي قطـــريهما ... خـــيلاً رواتـــع أو خميســـاً مرقِلا

تحـــدث الشّـــاعر عن كثرة الأوقاف في دمشق، وأشار إلى الأوجه التي تُنفق فيها، وانتعاش الرعيّة فيها وفي غيرها، حتّى غدت دمشق مركزاً يتدفّق إليه خيرات بلاد الشّام، ويفيض بحياة اقتصادية نشطة:

وبهـــا وقـــوفٌ لا يـــزال مُغلَّهـــا ... يســـتنقذ الأســـرى ويغنـــي العُـــيَّلا
ومعاشـــر تخـــذوا الصـــنائع مكسباً ... وأفاضـــل حفظـــوا العلـــوم تجمُّـــلا
ومُغـــلّ حـــورانٍ كســـيلٍ دافـــقٍ ... يـــأتمُّ مـــن أرجـــاء جلّـــق مَوْجـــلا
وتكاثـــرت فـــيها القنـــيّ فغـــادرتْ ... للواردیـــن بكـــلّ درْبٍ مـــنهلا

ووصـــفه شّعراء آخرون مسجد دمشق وحسنه البديع وكثرة المصلّين وطلبة العلـــم فيه شاميّين وغير شاميّين، كما وصف بعض الشّعراء الخانقاوات الّتي كانت منتشـــرة فـــي مدن الشّام، من ذلك قول محمد بن سوار بن إسرائيل الدمشقي يصف الخانقـــاه الّتي كان ينزل بها في حوران، وأجواء الخشوع والطمأنينة الّتي يشعر بها كـــلّ من يلمّ بها، حتّى غدت مهوى للقلوب، ويتحدّث الدمشقيّ عن أمر هامّ في هذه الخانقـــاوات وهـــو أنها لم تكن مجردّ دور للانقطاع للعبادة، وإنّما هي مكان يشبه الثكنة العسكريّة يتدرّب فيه المتصوّفة على حمل السّلاح. يقول[451]:

ســـقي الدَّيـــارَ علـــى علّـــياءَ حوران ... مُســـتهدِمُ الـــرّعْدِ تَسْـــكاناً وتَهْـــتانا
دارُ يُلاقـــي بهـــا العـــافونَ مَـــرْحَمَةً ... كَمـــا يُلاقـــي بهـــا الجـــانونَ غُفرانا
تُهـــوى القلـــوبُ لهـــا شَوَقاً فَلو قَدِرَت ... طـــارتْ إلـــيّها زرافـــات ووحدانـــا
حيـــثُ المواعـــيدُ تُقْنـــي، والمواهبُ لا ... تُحصى،وَعَيْنُ الرّضا لم تَعصَ إنسانا
وَمـــوردُ الفَضـــلِ مشـــروعُ لـــوارِدِهِ ... لـــم يَلْـــقَ مـــن دونـــهِ قَيداً وحِرمانا
والمُشـــرَفّياتُ لا تَنَـــبوا مضـــاربُها ... والعَمـــرُ تحمِـــلُ رايـــاتٍ وحُرســـانا
إن حلَّهـــا عـــائِدٌ ألفـــى بجانـــبِها ... دَيْـــرًا تضـــمَّنَ تســـبيحاً وتَحـــنَانا

وهـــذا الإحســـاس بالمكـــان أوجد في هذا العصر ما يمكن أن نسميّه الرحلة الشعريّة، حيث يصف الشّاعر رحلاته وتنقلاته في البلدان شّعراً، متتبعاً الأماكن الّتي يـــنزل فيها، ومشيراً إلى بعض خصائصها وسماتها، وقد كثر هنا على نحو واضح فـــي شّـــعر العماد الأصفهانيّ، ولعلّ هذا يعود إلى تَردده بين البلدان الشاميّة، وبين مصر والشّام، من ذلك قصيدة مطلعها[452]:

أجـــيرانَ جَـــيْرونَ مالـــي مجـــيرُ ســـوى عطفكـــم فاعْدلوا أو فجوروا

وبعـــد أن أثـــنى الشّـــاعر على أهل دمشق والقرى المجاورة لها، وعبّر عن أشـــواقه إليهم، وتوقه إلى لقياهم، ملتفتاً إلى ذكرياته الجميلة معهم، شرع في وصف المـــنازل مـــن الـــرقّه إلـــى دمشق على نحو يتفق وخطّ سير رحلته، ومن ثمَّ غدت القصيدة وكأنها استعراض للمواقع الشاميّة الّتي نزل فيها:

مثـــنى تجـــد الـــريَّ بالقريتيـــن خوامـــسُ أثَّـــر فـــيها الهجـــير
ونحـــو الجُلـــيجل أزجـــي المطـــيّ لقـــد جـــلّ هـــذا المـــرام الخطـــيرُ
تراني أنـــيخ بـــأدنى ضُـــمَير مُطايـــا بـــراها الوجـــا والضـــمورُ
وعـــــندَ القُطّفـــــةِ المشـــــتَهاةِ قطـــوفٌ بهـــا للأمانـــي ســـفور
ومـــنها بكـــوري نحـــو القُصَـــيْرْ ومنـــيةُ عمـــريَ ذاك الـــبكورُ

غـــير أنَّ حُـــبَّ الشّـــاعر لمدينة دمشق، وارتياحه إلى أهلها جعله يعود إلى تقريظها وبيان محاسنها فتبدو في قصيدته في صورة (جنَّة الخلد):

ومـــا جـــنّةَ الخلـــد إلاّ دمشـــقُ وفـــي القلـــب شـــوقاً إلـــيها سعير

وهـــنا يأخذ الشّاعر في وصف معالم هذه الجنّة الأرضيّة، واستقصاء مظاهر الفتـــنة فيها، فيذكر بلغة عربية ونسقٍ من العبارة، جميل ميادينها الخضر، وسهولها الفـــيحاء، ومـــياهها الصافية العذبة، وجامعها الرّحب وقبّته المنيفة إلى غير ذلك من المعـــالم الّتـــي يـــتداخل فيها المشهد الطبيعي الجميل بالمظاهر الحضاريّة المتعدّدة بحركة الإنسان الدمشقي خلال هذا المكان بأطيافه المتعددة، كما في قوله:

كـــــأنَّ الجواســـــقَ مأهولـــــةً بـــــروحٌ تطلّـــــعُ مـــــنها الـــــبدورُ
بنـــير بهـــا تتـــبرّا الهمـــومُ بـــــربوتها يتربـــــي السّـــــرورُ
ومـــا غـــرَّ فـــي الـــرّبوة العاشـــقين بالحُسْـــن إلاّ الربيـــبُ الغريـــرُ
وعـــند المغـــارةِ يـــومَ الخمـــيس أغـــار علـــى القلـــبِ منّـــي مغـــرِ
لِمُقـــريء مقـــرى، كقمـــريّها غـــناءٌ فصـــيحٌ وشـــدو جهـــيرُ

ومَّمـــا يتّصـــل بالمدح البلدانيّ الأشعار التي كانت تقال في تفضيل بلدٍ على آخـــر، ولعلّ ذلك صورة من صور التعلّق بالأوطان وقوة الانتماء إلى المكان الّذي

يعـيش فـيه الشّـاعر، لذا فإننا نرى الشّاعر في هذا الضرب من الشّعر يحشد في قصـيدته مـا يستطيع من المزايا والصفات الّتي تكفل لبلده التميّز والتفوّق. من ذلك قصـيدة قالهـا تـاج الملوك بوري يمدح دمشق ويفضل أماكنها، وقد قالها وهو في مصر، مطلعها[453]:

يـا خليلـيّ عـرّجا بالشـامِ واقْـرِئا غَوْطتـي دمشـق سـلامي

وبعد ذلك يصف الشّاعر هيامه بالشّام مكاناً وإنساناً، وتفضيله لها على مصر علـى الـرّغم مما فيما من محاسن تستهوي القلوب وآثار قديمة تستدعي الإعجاب. يقول:

ليسـت السَّـبعةُ الوجـوهُ ولا الـتّا جُ ولا المقـسُ مقصـدي وغرامـيِ
لـن أُحـبّ المقـامَ فـيها ولـو أصـبحَ مالـي مـوازنَ الأهـرامِ
إنّمـا المـرج والميادين والـرّبوة ممّـا يطيـب فـيه مقامـي
خـلّ قلـيوبِ إنّ قلبيـن أشـهى لفـؤادي المتـيّمِ المسـتهام

وهكذا فقد تعاظم إحساس الشّعراء الشاميّن زمن الحروب الصليبيّة بالمكان، وقدّمـوه، ولاسـيما مدينـة دمشق، في صور متعددة تصف مدى تعلقهم به، وكأنهم يعبرون بطريقة غير واعية عن تشبّثهم بأرضهم في ظرف تاريخيّ سعى فيه الغزاة إلى انتزاعها من أيديهم وتغير وجهها العربي الإسلامي.

الفصـــل الرابـــع

الدراسة الفنيّة

1.4 أولاً: بناء القصيدة

اهـــتمّ النقاد القدماء بالبناء الهيكلي للقصيدة العربية، وميزوا بين ثلاثة أجزاء وهـــي: المطلـــع والتخلص والخاتمة، ولكل جزء من هذه الأجزاء ميزة تختلف عن الأخرى، فالمطلع يتناسب مع طبيعة المدح سواء أكان مدح عظماء أم مدح تقليدي أم إخوانـــي أم بلدانـــي أم نبوي، فالشاعر يجتهد في تحسين الاستهلال لتحاكي الموقف الـــذي تقال فيه، ولما كانت قصيدة المدح على ضروب متنوعة من حيث الموضوع، فإنّـــه مـــن الطبيعـــي أن تتعدد صور البناء الفنّي لها، فقصيدة المدح التي قيلت في الصـــراع مع الفرنجة تنحو منحى يختلف عن قصيدة المدح التقليدي، وقُلْ مثل ذلك عن قصائد المدح النبوي والبلدانيّ والإخوانيّ.

أمّا قصيدة المدح التي قيلت في تمجيد أبطال الحروب الصليبيّة فإنها غالباً ما تستهل بأبيات تلائم أجواء الحرب وما فيها من بطولة، وقد تنوعت هذه الاستهلالات وتعـــددت أشـــكالها، فـــبعض الشّعراء كانت تبدأ قصيدته بفاتحة يضاعف فيها من المعانـــي الدينيّة الممزوجة بالحماسة كما في قصيدة ابن منير الطرابلسيّ التي قالها في مدح عماد الدين زنكي، حيث استهلها بقوله[454]:

صـــفات مجـــدك لفـــظٌ جـــلَّ معناه فـــلا اســـتردّ الـــذي أعطاكـــه الله

وقد يأخذ الاستهلال صورة التكبير كقول شهاب الدين محمود الحلبي[455]:

الله أكـــبر هـــذا النصـــر والظفـــر هـــذا هـــو الفتح، لا ما تزعم السّيرُ

أو التحميد كقول الشاعر نفسه[456]:

الحمـــد لله ذلّـــت دولـــة الصـــلبِ وعـــز بالترك دين المصطفى العربي

وقـــد يســـتهلّ الشّاعر قصيدتّه بمقدّمة حماسيّة تمجّد القوّة وتبين أنها السبيل الوحـــيد لبـــناء الممـــالك واحتـــياز الـــبلدان، والأمـــثلة على ذلك كثيرة، كقول ابن القيسّراني[457]:

هـــو الســـيف لا يغنـــيك إلاّ جلادُه وهـــل طـــوّقَ الامـــلاكَ إلاّ نجـــادُه

وقول الشّاعر نفسه[458]:

هــذي العزائم لا ما تدّعي القضُب وذي المكــارم لا مــا قالــت الكتبُ

وقول ابن السَّاعاتيّ[459]:

جلــت عــزماتَك الفــتح المبيــنا فقــد قَّــرت عــيونُ المســلمينا

وقول فتيان الشّاغوريّ[460]:

تبنــي الممــالك بالوشــيج الأسمر والبــيض تلمــع في العجاج الأكدر

وقول ابن عنين في معركة دمياط[461]:

سلواصهوات الخيل يوم الوغى عنّا إذا جهلــت آياتــنا والقَــنا اللدُنــا

وقــد يبدأ الشّعراء قصائدهم هذه بالبشرى كقول نور الدين الإسعرديّ مستهلاً مدحةً له في الملك النّاصر يوسف في إثر هزيمة لويس التاسع في المنصورة[462]:

بُشرى، فَنَشرُ الهدى يمشي على عجلِ والشّــركُ يعــثر في ثوبٍ من الوجلِ

ويــأخذ الاســتهلال أحــياناً شكل التهنئة والدّعاء كقول راجح الحلّي مستهلاً قصيدة له بتهنئة الملك الاشرف موسى وأخوته بعد معركة دمياط[463]:

هنيــئاً فــإنّ السّــعد راح مخلّــدا وقــد أنجــز الرحمن بالنّصر موعدا

ويطــول المقــام بــنا لو استعرضنا أساليب استهلال قصائد المدح المرتبطة بــأحداث الصــراع، ولعلَّ الأمثلة السّابقة كافية للقول إنّ الشّعراء كانوا يلجون في موضــوع القصيدة على نحو مباشر متخلّصين بذلك من المقدّمات الغزلية وغيرها، وهــذا اتّجاه يتساوى مع رأي الناقد ضياء الدين بن الأثير، وهو معاصر للأحداث، حيــث رأى أنّه من الواجب على الشّاعر إذا نظم قصيدة أن ينظر " فإذا كانت مديحاً صــرفاً لا يختصّ بحادثة من الحوادث فهو مخيّر في أن يفتتحَها بغزل أولا، أمّا إذا كانت في فتح أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنّه لا ينبغي الابتداء بالغزل، بل يرتجل المديــح ارتجالاً من أوّلها، لأنّ هذا يدلّ على ضعف قريحة الشّاعر، وقصوره عن الغايــة أو على جهاده بوضع الكلام في مواضعهَ لأنّ الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث"[464].

واتسّــمت قصائد المدح الجهاديّة بوحدة الموضوع، فقد حرص الشّعراء على أن يوفروا لقصائدهم مجموعة من العناصر التي تكفل لها التماسك والانسجام.

وسأختار عدداً من القصائد لبيان مظاهر الوحدة، والقصيدة الأولى لابن منير الطرابلسيّ قالها في مدح عماد الدين زنكي التي مطلعها[465]:

صفات مجدك لفظ جلَّ معناه فلا استردّ الذي أعطاكه الله

وهذه الفاتحة تؤازرها عدّة أبيات تتحدّث عن (صفات المجد) التي يتحلى بها عماد الدين زنكي، وهي صفات مستوحاة من المعاني الدينيّة الإسلاميّة، وقد أمعن ابن منير في إسباغ الصفات الحميدة على البطل بما يتفق وروح الإسلام؛ فهو سيف من سيوف الله، وهو مؤيّد بنصر الله، وناسٍ للذات الحياة لأنّه منهمك في أعمال العبادة وأعمال البّر.

يا صارماً بيمين الله قائمه وفي أعالي أعادي الله حدّاه
أصبحتَ دون ملوك الأرض منفرداً بلا شبيهٍ إذا الأملاك أشباه
قل للأعادي: ألا موتوا به كمداً فالله خيّبكم والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همّته تقى وتسهر للمعروفِ عيناه

ويمضي الشّاعر في قصيدته مولداً صفات بعد أخرى ليسبغها على الممدوح، وهذه المعاني استدعت مسلكاً تعبيريّاً يقوم على الاستكثار من المعاني المفردة التي تنتمي إلى المعجم الدينيّ، مما غلّف القصيدة بمشّاعر دينية حماسيّة، ولا سيما حيث يتحدث عن النصر الذي حققه عماد الدين، كما في قوله مستعيداً ذكرى عمورية والمعتصم[466]:

فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتر مبسمُهُ واهتزّ عطفاهُ
يهذي بمعتصم بالله فلكتُهُ حديثها نسخ الماضي وأنساهُ
إنّ الرّها غير عمّوريّة وكذا من راحها ليس مغزاهُ كمغزاهُ

وهذا يعني أنّ ابن منير قد اختار نهجاً تحليلياً في بناء النصّ، وهو نهج يقوم على استهلال القصيدة ببيت مفتاح يحمل المعنى العام للنص، تتلوه عدة أبيات تفصّل هذا المعنى، وتنميه وتستعصي جوانبه، ولا ريب في أنّ ذلك قد حقق للقصيدة قدراً كبيراً من الوحدة والانسجام، فإذا ما أراد الشّاعر أن ينهي قصيدته، فإنّه يختار لها خاتمة تنسجم مع الجو الذي بثّه فيها، فيظل في السياق الدينيّ، ألاّ أنّه وإشعاراً للقارئ بالانتهاء فإنّه يبدأ أبيات الخاتمة بصيغ أسلوبيّه مغايرة للنسق العام للأبيات،

فـيجعل في بداية كل بيت صيغة نداء يخاطب بها الممدوح، لتنتهي القصيدة بالدّعاء له أن يبقيه الله حافظاً للدين والدنيا، فيقول:

يـا محيـي العـدل إذ قامت نوادُبه وعامـر الجـودِ كّمـا مـحَّ مغـناه
يـا نعمـة الله يستصفي المزيد بها للشـاكرين ويسـتغني صـفاياه
أبقـاك للديـن والدنـيا تحوطهمـا مـن لـم يـتوّجك هذا التاج إلاّ هو

وهكذا فإنَّ القصيدة ذات محور واحد تشّد إليه خيوطها جميعاً، على الرغم من تنوّع المعاني والأفكار فيها، إلاّ أنّها معانٍ جاءت لتحقّق غاية موضوعية واحدة وهي تمجيد البطل، ويترتب عليها بناء فنيّ واحد لا تشتّت في عناصره.

والقصيدة الثانية التي سأتناولها قصيدة الرشيد النابلسيّ في مدح الملك الظاهر غازي ومطلعها[467]:

خشـعت لهيـبة مجـدك الأبصارُ وعنـت لدولـة ملكـك الأمصـارُ

فـنقطة الـبداية في هذه القصيدة- وهي المطلع- حدَّدت غرضها المحوري، وهـو الإشـادة بالممدوح وعظمة دولته، وغدت هذه النقطة مركز جذب تدور حوله بقـية أجزاء النص وتتعلق بها بصورة أو بأخرى، وقد استخدم الشّاعر عدّة أساليب لتحقـيق هـذا الغرض من ناحية، وتحقيق الترابط والانسجام بين عناصر النص من ناحـية أخـرى، ومن هذه الأساليب استخدام ضمير الخطاب المفرد منذ بداية النص وحتى، نهايته، كذلك فقد بنى النابلسيّ القصيدة على المقابلة بين الممدوح وطائفة من العناصر، فقابل بينه وبين الأعداء، وبينه وبين مظاهر القوة في الطبيعة، وبينه وبين ملوك عصره، وبينه وبين أسلحة الحرب وأدواتها[468]، فيقول:

دانـت لـك السـبعُ الشـدادُ كأنما بمـرادكَ الفلـكُ العلـيُّ يُـدارُ
فـإذا رمـاحُ الخطِّ نحوكَ أُشْرِعَتْ فطوالهـا عمـا تـرومْ قَصـارُ
وإذا الجـيادُ ثنـتْ إلـيكَ شـكيمَها غلبـتَ علـيها كـبوةٌ وعـثارُ
وإذا أغضـتَ علـى الملـوكِ فإنّه هُلـكٌ دنـا مـنها وحـانَ بَـوارُ

ثـم الاستخدام المكثف للألفاظ التي توحي بالغلبة والتفوق مما جعل القصيدة تتـنفس فـي جو حماسيّ مفعم بمعاني القوة والبأس، ثم استخدام التقطيع العمودي، ويقصـد به التزام نفس التركيب اللغوي أو الصيغة الصرفية على وجه يفضي إلى

ضـــرب من التغنّي، فقد أقام الأبيات التالية على تركيب واحد تتصدره صيغة اسم الفاعل:

المـــانح الأبصـــار ما طمحت ومَنْ يعُطـــي مـــدى مـــا تطمح الأبصار؟
الســـاتر العـــوراتِ عـــن أعدائـــه تُـــروَى الســـعودُ وتُكشـــفُ الأشعارُ
الخاشـــع الصـــوّام والمـــتهجّد الـــ ـــــــقوّام والمتبـــــتّل الصَّـــــبَّارُ
الخـــارقُ العـــادات بـــالجود الـــذي فـــــي الخافقيـــن لعـــرفه إنكـــار
الضـــارب الشوهاء إثر الطعنة الـــ فوهـــاء فـــيها يفـــرق المســـبارُ

" ومـــثل هـــذا الأسلوب يخلق إيقاعاً موسيقياً رتيباً يبطئ من حركة القصيدة، وتتـــيح للشّـــاعر أن يتوقف عن سرد الأحداث للتغنيّ بخصال الممدوح، واستقصاء جوانـــبها المختلفة، وترتب على هذا أن طال نفس الشّاعر في قصيدته دون أن يُخلّ ذلك بوحدة الموضوع فيها"[469].

ويمـــتاز كثـــير من قصائد المدح الجهاديّة بطول النّفس، وقد لاحظ ذلك أحد الدارســـين في دراسته للقصائد القدسيّة فقال: " فقد أخذ الشّعراء يطوّلون قصائدهم، ولعل ذلك يعود إلى الحدث نفسه من ناحية، أو قدرة الشّاعر من ناحية أخرى"[470]

كمـــا أنّ الـــنقاد القدمـــاء استحســـنوا القصائد المطوّلات في مواقف التهويل والتفخيم لأنها أكثر هيبة للنفوس[471]، فقصيدة ابن القيسرانيّ في معركة إنّب 52 بيتاً، وقصـــيدة ابـــن منير في المعركة نفسها 62 بيتاً، وقصيدة فتيان الشّاغوريّ في فتح القدس في مائة بيت وبيت، .... وهكذا.

وهذا التطويل في القصائد أتاح للشّعراء أن يقفوا عند كثير من الجزيئات في ســـياق تمجـــيدهم للـــبطولات الإســـلاميّة، وتوليد كثير من المعاني التي تعبر عن إحساســـهم بـــالحدث وإعجابهم بالبطل، وسأتناول قصيدة في هذا السياق هي قصيدة فتيان الشّاغوريّ التي أوّلها[472].

تُبـــنى الممـــالك بالوشـــيج الأسمر والبـــيضُ تلمـــعُ في العجاج الأكدرِ

وهي تقع كما ذكرنا في مائة بيت وبيتٍ، ولعل هذه الإطالة تعود إلى مجموعة مـــن العوامـــل من أبرزها أنّ الشّاغوريّ شعر وهو يمدح صلاح الدين ويتغنّى بفتح

بيت المقدس أنّه أمام أمر يكاد يكون معجزاً، وقد عبر الشّاعر عن إحساسه بذلك في غير ما موضع من قصيدته، كما في قوله:

ربُّ الملاحـــم لـــم يـــؤرّخْ مـــثلها العلمـــاء قِدمـــاً فـــي قديـــمِ الأعصُـــر
مـــن رامَ مـــن كـــل الملوك مراقهُ تُخفِـــقْ مســـاعيه ويكـــبُ ويَعـــثُرِ
مـــن ســـنجرّ وأقـــلّ مملـــوك لهُ أعلـــى وأغلـــى قـــيمةُ مـــن سِنجْرِ
يغـــزو الملـــوك الرّعبُ قبل مسيرِه فـــي عســـكرٍ أفـــتكْ به مَنْ عَسْكرِ!
هـــو كاســـر كســـرى ومتـــبعُ تُبَّعٍ ذُلاً أحـــاط بـــه وقاســـرُ قيصـــرِ
فليجيشـــه ولعـــزمهُ مُتضـــائلٌ جـــيشُ الهِـــرَقْلِ وعـــزمةُ الإسكندرَ

أمـــا فتح بيت المقدس فهو " فتحُ قد تطأطأ كلّ فتح دونه"[473]، لذلك فقد أحسّ الشّـــاعر أنّـــه غير قادر على أن يحيط بصفات البطل وبعظمة الفتح، وقد عبّر مرة أخـــرى عـــن ذلك في مواضع متعدّدة وزّعها في قصيدته بعد كلّ فكرة كان يتحَدَّث عنها، فإذا ما شرع في تمجيد البطولة بدأ ذلك بقوله مقرّاً بالعجز:

أعجبـــت وأعجـــزت البليغ صفاتهُ فالمســـهبُ المـــنطِقُ مـــثل المقصرِ

وبعد أن يفرغ من مدحه يدرك أنّه مهما قال فيه فلن يُدرك وصفه فيقول:

فُـــتّ المدائـــح يـــا صـــلاحَ الدّيـــن فاعـــتّذرَ المـــبّرز فـــي الفصـــاحةِ فَـــاعْذِر
فـــيَم العفـــاةُ يشـــبهونك فـــي النّدى والـــبأس، حـــارتْ فكـــرةُ المـــتفكرِ

وهكذا يدرك الشّاعر أنّه أمام شخصية عظيمة وحدث كبير، وأنّ شعر المدح، وهـــو شـــعر غنائـــي محكوم بتقاليد فنيّة مرسومة لا يستطيع أن يعبّر بحقّ عن هذا الحـــدث الـــذي يكـــاد يكون ملحمياً، بل إن الشّاغوريّ أحسّ بما في هذا الحدث من ملحمـــيّة عـــندما وصف صلاح الدين بأنّه (ربّ الملاحم)، ووصف الفتح نفسه بأنّه ملحمـــة وذلـــك فـــي قوله (أنشأت ملحمة)، وعندما راح يقارن عظمة صلاح الدين بالعظمـــة التاريخية، فقارنه بكسرى وتبّع وقيصر وهرقل والإسكندر، فإذا هو يبدّدهم ويتفوّق عليهم جميعاً.

وقـــد ترتب على ذلك أنّ اتبّع الشّاعر أساليب متعدّدة لتقريب صورة صلاح الدّيـــن، فـــتارة يركز على شخصيّة هذا البطل بخصائصها النفسيّة، ويستبطن بحسّه الشّـــاعريّ والإنسانيّ معاً ما كان يمور في نفسه من حبّ للجهاد، وتعلق به، وصبر

علـــى مشاقه دون أن يثنيه عن ذلك أيّ عائق ، وتارة يصف المعركة ودور صلاح الدّيـــن فـــيها، وتارة يصف جيوش الفرنجة الفخمة وتصدى صلاح الدين لها، وتارة يصف أسرى الفرنجة وسباياهم، وهو في هذا كله يميل إلى الجانب التحليليّ، ويقلّب المعـــنى على وجوهه المختلفة، ويورد صوراً متعدّدة له تستوفي جوانبه، حتى طالت القصـــيدة علـــى هذا النّحو، وهي على الرغم من طولها وتعدّد أفكارها فإنّ الشّاعر اســـتطاع أن يحـــافظ على وحدة الموضوع فيها، ويبث فيها الإحساس بنشوة التفوق المؤسّـــس علـــى القـــوّة العسكريّة، لذا فقد غلب عليها الألفاظ التي تنتمي إلى معجم الحـــرب، والصـــور المشـــتقّة من مجال القتال ممّا جعل القصيدة تتنفس في جوٍّ من القوّة.

أمّـــا المدائح النبويّة فقد تفنّن الشّعراء في مقدّماتها، وقدموا ألواناً متعدّدة منها تعـــبّر عن مواجدهم الدينيّة وأشواقهم إلى الحضرة النبويّة الشريفة، فقد استهل بعض الشّعراء مدائحهم النبويّة بالتعبير عن الحنين إلى الديار الحجازيّة وما فيها من معالم مقدّسة، ويتخلّل ذلك وصف السّحاب والبرق والرياح النديّة التي تصله منها، والدعاء لهـــا بالعمـــران ودوام انهمار الغيث، كما في قول شمس الدين بن العفيف التلمسانيّ ســـائلاً صديقه أن يسكب الدموع عند وصوله إلى الحمى، وأن يحي سكانه ويصف لهـــم لوعـــة الشّاعر، ثمّ يستعطف الشّاعر سكان الحمى أن يرقوا لحاله، لأنّه صار منكسر القلب بعد أن هجروه، يقول[474]:

بـــالله إن جُـــزْتَ أعلامَ الحمى فقفِ ... وأرســـل الدّمـــع بيـــن الوجد والأسفِ
وحـــيّ قومـــاً تنعَّمـــنا بحـــبِّهم ... هـــمُ المـــنى، فـــيهم لا ينقضي شغفي
يـــا أهـــل رامـــةَ أنتم أهل كلّ ندىً ... فأحســـنوا لكســـير القلـــب معـــترفِ
وهبـــت نفسي لكمْ طوعاً فإن قُبلتْ ... وصـــحّ ذلـــك، فـــيا فوزي ويا شرَفي

وقـــد استحســـن النقاد هذه الطريقة في استهلال المدحة النبويّة، فقد ورد في سياق حديث ابن حجّة الحمويّ عن الغزل الذي تتفتح به المدحة النبويّة قوله:" الغزل الـــذي يصـــدّر به المديح النبويّ يتعيّن على الناظم فيه أن يحتشم ويتأدّب ويتضاءل، ويشبّب مطرباً بذكر سلع وراقة وسفح العقيق، والعذيب والغوير... ويطرّح محاسن المرو، والتغزل في ثقل الرّدف...وما أشبه ذلك"[475].

غـير أن بعـض الشّـعراء لم يلتزموا بهذا الرأي، فاستهلوا مدائحهم النبويّة – أحياناً– بالغزل بالمؤنث، أو الغزل بالمؤنث، كما في قول شرف الدين الأنصاري يذكر كمال حسن محبوبه، مشبّهاً ببدر التمام، ذاكراً خدّه المورّد، وجماله الفتان[476]:

يـا كـامل الحسـن لـيس يطفـي ... نـاري سـوى ريقـك المـبَّردْ
يـا بـدر تـمَّ إذا تجلّـى ... لـم يـبق غـدرٌ لمـن تجلّـدْ
رفقـاً بولهـانَ مسـتهامٍ ... أقامـه وجـدُه وأقعـدْ
قـيدتّه بـالهوى فـتمّمْ ... واكتـبْ علـى قـيدهِ مخلّـدْ

وقـد تأخذ مقدّمة المدحة النبويّة صورة المناجاة للرسول الكريم عليه السلام، والصلاة والتسليم عليه، والتعظيم له، والتقديس للتراب الذي ضمَّ جسده الطاهر، كما في قوله السخاويّ[477]:

سـلامُ كنشرِ الرّوض من مسقط النَّدى ... علـيك، رعـاك الله، يا منزل الهدى
ويـا تـربة المخـتار أفديـك تـربةً ... بنفسـي، وإن كانـت أقـلَّ مـن الفدا

ومـن هـذه المقدمـات ما جاء في صورة رحلة يقوم بها الشّاعر مع رفاقه، فيصـف المطايـا الّتـي حملتهم، والنوق المتعبة التي أضناها السّير، والمشاق الّتي يلاقيها في سفره، كما في قول التنوخيّ الحلبيّ يصف قوّة ناقته وصلابتها واحتمالها الصعاب[478]:

تُحـدى إلـى يـثربٍ تحتي غُذافِرةٌ ... كـأنَّ خطوَتهـا فـي وخدْهـا مـيلُ
يبيـنُ فـي خدِّهـا والعـنقِ شدَّتُها ... إذا تـتابع وخـدٌ فـيه تسـهيلُ
يـزيدُ مـنها إذا مازِدْتهـا نظـراً ... علـى الفحـولِ لهـا خَلْـقٌ وتعديـلُ

ثـم يصـف المشقة التي يكابدها في رحلته إلى يثرب، من قفار موحشة، وصحارى لافحه، ووحوش مفترسة، ورياح عاتية، سراب يخدع الناظرين ... يقول:

يفـارقُ الذئـبُ فـيها نفسـه فـرقاً ... ولا تجـوبُ بهـا الـرُّبْدُ المحافـيلُ
تكـلَ مـنها وفـود الـرّيح سـاريةً ... فهـل يطـيق سرى فيها الأراجيل[479]
كـمْ مهمهٍ مثل ظهر الترس سرت به ... وناقتـي ليـبديها الظـلُّ تنعـيلُ

وقــد تستهل المدحة النبويّة بوصف حادي الإبل الذي يطرب مواكب الحجيج بصوته الشجيّ، كما في قول شهاب الدين محمود الحلبي[480]:

عسى وقفةٌ بالرّكب يا حادي الركبِ ... لأســأل مــا بيــن المحامل عن قلبي
فعهــدي بــه لمّــا استقلتْ ركابهمْ ... وقــد قــال للسَّــاري إلى طيبةٍ سربْي
تناديــتمْ عــند الأصــائل بالسُّــرى ... ســحيراً فلــبّاكمُ علــى عجــلٍ لبــيَّ

وقد تبدأ المدحة النبويّة بالثناءِ على الله سبحانه وتعالى، وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، كما في قول السخاويّ في مستهل مدحه نبويّة[481]:

تــبارك ذو العرش المجيد المصوَّرُ ... وجــلَّ عــن التشــبيه، والله اكــبرُ
هــو الواحــدُ الباقــي بغير مشاركٍ ... بوصــفٍ، ولا حفــلٍ يقــلّ ويكــثرُ
هــو اللهُ رحمــن الورى ورحيمهمْ ... لــذا يبســطُ الأرزاقَ مــنهم ويقــدرُ
تعــالى عــن الأذنِ التــي تقــبل ... وجــلّ الــذي بالسَّــمع لا يــتأثرّ

ويطول المقام لو استقصينا الصور التي جاءت عليها مقدّمات المدائح النبويّة ومــا تمَّ ذكره من هذه المقدّمات يقرر حقيقة واحدة وهي أنّ الشعراء تفننوا في هذه المقدمــات وأنّهــم كانوا يستهلّون كلّ مدحه بأبيات تتلائم والحالة النفسيّة التي كانوا علــيها، وقــبل أن أتناول واحدة من هذه المدائح لتحليل عناصرها التركيبيّة بصورة مــتكاملة، ينبغــي القول إنّ هذه المدائح اتّسمت بطول النفس، وأنّ بعضها قد تجاوز مائــة بيت، ولا ريب أن هذا يعود إلى طبيعة الموضوع، فالشّاعر وهو يبني معانيه كــان يلتفت إلى أحداث السيرة النبويّة العطرة، ويسترفد منها ما يستطيع أن يسترفده ويصــوغها شّعراً، والقصيدة التي سأدرسها هي قصيدة شهاب الدين محمود الحلبي التي مطلعها[482]:

دع الصــبَّ يدْمي الدَّمعَ منه المآقيا ... فقــد ظــنّ كــلّ الظــنّ أن لا تلاقيا

وهــي تقع في 80 بيتاً، بدأها بمقدمة غزليّة بناها على التجريد، فأخذ يخاطب نفســه، ويصــف حنينيه وأشواقه، فجاءت المقدمة وكأنها نجوى داخلية بين الشاعر ونفسه[483]، يقول:

دع الصّــبّ يدمي الدّمعَ منه المآقيا ... فقــد ظــنّ كــلّ الظــنّ أن لا تلاقيا
وعُــدت تِــرى داء الغــرام بحاله ... وإنْ لــم يكــن أبقــى به الوجدْ باقيا

وعـــده بجمـــع الشّمل يُجني بوعده بقـــيّة أرمـــاقٍ بلغـــن التراقـــيا
لديـــغُ فـــراقٍ كـــيف يُرجى شفاؤه ولـــيس له شـــيءٌ ســـوى القرب راقيا
ترامـــت بـــه أيدي الغرام ولم يجد علـــى الوجـــد عوناً أو من الصّدِ واقيا
ويبكـــي عقـــيق الحرتيـــن بمـــثله إذا مـــا همـــوا أمـــوا العقـــيق اليمانيا
فـــإن رمـــت أجراً أو سناءً معجلاً فعلـــله وابســـط فـــي هـــواه الأمانـــيا

ويطول هذا الاستهلال الغزلي ليستغرق (19) بيتاً من القصيدة، حيث يتخلص من الغزل إلى مدح الرسول عليه السّلام:

ويقـــبل من نحو المصلىّ إلى حمىً بـــه خـــير خلـــق الله أصـــبح ثاويـــاً

وكـــان من المتوقع بعد هذا التخلّص أن يأخذ الحلبيّ في مدح الرسول الكريم غير أنّه يستطرد إلى وصف الحمى النبويّ، وتدفق الناس إليه، حتى إنّ إبلهم أخذت تشـــاركهم الحنين، وصار حنين الإبل حادياً للركب، بدل من أنّ يكون الركب حادياً لها، وكأن الشّاعر يسقط مشاعره عليها، يقول[484]:

ويقـــبل من نحو المصلىّ إلى حمىً بـــه خـــيرِ خلـــقِ اللهِ أصـــبح ثاويـــاً
إلـــى حرمٍ إن يَحْدُ حادي السُّرى به مطايـــاه قـــدَّت فـــي سُـــراها الهواديا
إلـــى حـــرمٍ يُدنـــيه مـــنهم غرامُهم فسَّـــيان دانـــيه ومـــن كـــان قاصـــياً
ترى الفلك تجري في رياح ارتياحهم ويُلفـــيَ حنيـــنُ العـــيسِ للركب حادياً

وتســـاءل أحـــد الدارســـين: لماذا اقطع الشّاعر مدح الرسول صلى الله عليه وســـلم، وأخره عشرة أبيات بعد أن تخلص من المقدمة؟ وقد أجاب عن هذا التساؤل قـــائلاً: "لعل ذلك يعود إلى جلال الموقف فالشّاعر متردّد أو متهيبّ من الدخول إلى الموضـــوع المباشر، فأجل الدخول فيه، فإذا ما اطمأنت نفسه إلى لقاء الحبيب، وأذن له بدخول الحمى، انطلق في مدحه عليه السلام في ثلاثة وأربعين بيتاً"[485].

وقـــد مضى الشّاعر في مدح الرسول الكريم، حتى وصل إلى خاتمة القصيدة التي بلغت 19 بيتاً صاغها في صورة ضراعة للرسول الكريم، بين فيها الغاية من مدحه، وهو الحصول على العطاء، ولكنه ليس عطاءً مادياً، وإنّما هو عطاء روحي يفوز فيه، الشّاعر بالمغفرة[486]:

وما ذكرها مما تزيدُ به سنا كفى الشمس نورٌ طبّق الأفق باديا
ولكن ليعلُو قدرُ ناظمِها بها ويبدو به مَنْ كانَ في النّاسِ خافيا
ويجعله فيما لديه وسيلة إليه إذا وافاهُ في الحشر صاديا
إلهي بجاه المصطفى كن لعثرتي مُقيلاً فقد أوهى خطاتي خطائياً
رجائي فسيحٌ والشفاعة ظلّها ظليلٌ وعفو اللهِ ذُخرُ مآليا
عليك سلامُ الله ما هام شيفٌ ومابات جفنُ المزنِ في الرّوض هاميا
وما شدت الورقاءُ أو أورقَ الغضا وما سارَ نجمٌ أو هدى النّجمُ ساريا

فإذا ما انتهى الشّاعر من قراءة الخاتمة أحسَّ بأنَّ حركة القصيدة قد توقفت، وأنّه لا مزيد.

أمّا المدائح التقليديّة والإخوانيّة فإنها في أغلبها تسير على نسقٍ واحدٍ من البناء، وتتّخذ شكلاً متكرراً يتألف من مقدمة وموضوع وخاتمة وبينها التخلص أو الانتقال، وقد يُحسن الشّاعر هذا التخلص أولا يُحسن. والأمثلة على ذلك كثيرة. منها قصيدة القاسم الواسطي الّتي أوّلها[487]:

وقفنا على حكم الهوى نعلن الشكوى بألفاظ دمعٍ تفضح السرَّ والنجوى

وقد قالها يمدح الملك الظاهر غازي، وهي تقع في 36 بيتا، (14) بيتا في الغزل، وبيت واحد في التخلص إلى المدح، و18 بيتاً في المدح، و3 أبيات جاءت خاتمة للقصيدة.

أمّا مقدّمة القصيدة فقد كانت غزلاً حزيناً باكياً، صاغه الشّاعر في لفظ لائق وعبارة سلسة، وتصوير جميل، مصوراً حسن محبوبه وجماله الأخّاذ. ويتخلّص الشّاعر من هذا الغزل إلى المدح من غير تكلّف. بحيث لا يشّعر القارئ بالانتقال من المعنى الأوّل إلاّ وقد دلف إلى المعنى الثاني لقوّة الممازجة والالتئام. يقول:

فلا تُنكروا خمراً حوته لحاظهُ من الأشنب المعسولِ والميسم الأحوى
ولم أرَ قمراً قبلها في كؤوسها نُخامِرُ ألبابَ الرّجالَ فَتُسْتهوَى
كأنّ غياثَ الدّين غازي بن يوسفٍ أسرّ إليها من خلائقه نجوى

ومع أنّ الشّاعر أحسن التخلّص من الغزل إلى المدح عن طريق هذه العلاقة التشبيهيةِ التي أقامها بين استهواء عيون المحبوبة لألباب الرّجال وخلائق الملك

الظاهـــر غازي إلاّ أنّ القارئ لا يستطيع أن يجد علاقة ما بين مقدّمة القصيدة الّتي تخلّفها مشاعر الحزن والأسى وبين معاني المدح المشحونة بمعاني الشجاعة والقوة. وأنّ كلّ ما في الأمر أن الشّاعر قد أخذ بهذا القالب الفنيّ في بناء مدحته.

ويستطرد الواسطي في مدح الظاهر غازي حتى إذا ما أراد أن ينهي قصيدته راح يُجمـــل مـــا فصّـــله من صفات المدح، مستخدماً الألفاظ الّتي تدلّ على مطلق الصـــفات الحمـــيدة، مـــثل (المجد، الحمد، المأثرات....) متدّرجاً بالقارئ إلى البيت الأخـــير الّذي جعله في صفة الدعاء بأن تدوم دولة الممدوح وأمجاده، فإذا ما وصل القـــارئ إلـــى البيت الأخير، وهو قاعدة القصيدة، شعر أنّها توَقفت وأحسّ بالاكتفاء يقول:

فلـــولا معـــانٍ فـــيه للمدحِ أوضحتْ معانـــي القوافـــي ما عرفنا لها فحوى
ولـــولا المعانـــي الغانـــيات بعدلـــهِ عفـــا منزل التّقوى وربع الهدى أقوى
فـــلا برحـــتْ أيّامـــنا بدوامِـــه مهيمـــنةً للملـــك والدّيـــن والـــتّقوى

غـــير أنّ هـــذا الشكل التقليديّ لم يكن قالباً جامداً صبّ فيه الشّعراء مدائحهم التقلـــيديّة وأشعارهم الإخوانيّة دون روحٍ، وإنّما أفاضوا عليه- أحياناً- من نفوسهم، ولوّنـــوه بمشـــاعرهم وانفعـــالاتهم فإذا ضرب من الشعور يسرى في القصيدة كلّها، ويـــبدو فـــي مقدمـــتها، وموضوعها، وسائر أجزائها، ويحقق لها ضرباً من الوحدة والانســـجام. والأمـــثلة علـــى هذا النمط من البناء كثيرة. وسأختار في هذا السياق قصيدتين: الأولى من الشّعر الإخوانيّ، والثانية من المدح التقليديّ.

أمّا القصيدة الأولى فهي قصيدة بعثها ابن عقيل الزرعيّ من مصر إلى أخيه جبير بعد أن رحل عنه دون علمه. والقصيدة مطلعها[488]:

زعمـــت مـــيّ أنّ قلبـــي ســـالِ فاشـــمأزّتْ لزُخـــرفِ الأقـــوالِ

ومـــع أن القصـــيدة لم تتناول موضوعاً واحداً، إلاّ أنّه يسري فيها تيار نفسي واحـــد هـــو العتاب الذي لا يخلو من حدة. وقد أملى هذا الشعور على ابن عقيل أن يتخـــير في كل جزء من قصيدته الصور والمعاني التي تعبر عن مكونات نفسه فها هو ذا يستفتح بنسيب حزين:

زعمـــت مـــيّ أنّ قلبـــي ســـالِ فاشْـــمأزّت لزُخْـــرفِ الأقـــوالِ

عجـــباً لابـــنة الجذيمـــي إذ لـــمْ فـــيك تغْـــص مقالـــة العـــذَالِ
أعرضـــتْ إذْ رأتْـــكَ طـــوْع يديْهـــا فتصـــدّت للصـــدِّ بعْـــد الوصـــالِ
وكـــذا الغانـــياتُ كالدّهـــر لا تْـــبـــ ـــــقى علـــى حالـــةٍ مـــن الأحـــوالِ

فابـــن عقـــيل يشـــكو فـــي هذا النسيب (ميّ) له وإعراضها عنه، وكيف أنّها اســـتمعت إلـــى قول العذال الّذين أوهموها أنّه سلا عنها وتغير عليها. وكان الشّاعر يضـــمن هـــذا النســـيب عتابه لأخيه، وتعجبه من موقفه منه، لذلك أطال فيه – أي النســـيب– إطالـــة أتاحـــتْ له إفراغ مشاعره؛ فتحدث عن جمال هذه المحبوبة التي اســـتهوته وملكـــت قلبه مع أنّه رجل حليم، حتى إذا ما استوفت من حبَه لها هجرته وتركـــته. لذلـــك نجـــده فـــي نهاية هذا النسيب يثور في وجه (ميّ)، ويعلن لها أنّه سينصـــرف عـــنها وعن أمثالها من الحسان، مبيناً لها أن الموت في ساحات الوغى أهـــون عليه مما تعرض له منها، وهنا نجد ابن عقيل يضيق بالتلميح وكتم عواطفه، فيـــنفجر بالحديـــث عن نفسه التي تأبى الإقامة بين قومه الذين لم يقدروه حق قدره، معلناً أنّه غير آسف على فراقهم، والابتعاد عنهم:

هـــلْ رســـولٌ عنَـــي يـــبلّغ قومـــي مـــن عقـــيل أولـــي الـــنُّهى والفعـــال
أننـــي غـــير قاطـــن فـــي بـــلادٍ لا يـــراعى فـــي مـــثلِها أمْثَالـــي
أنـــا ذاك الشّـــهم الـــذي بفـــراق الـــ أهـــل والـــدّار إن نـــأى لا يُبالـــي

ويمضـــي ابـــن عقيل في قصيدته بنبرة صاعدة ضارباً لنفسه الأمثال ببعض الـــرّجال الّذين أجبرتهم ظروفهم على مغادرة أهلهم وذويهم، ثم يعود فيوجه الخطاب إلـــى بنـــيه مصوراً حبه لهم، وحنينه إليهم؛ فهو لم يرحل عنهم (عن قلى أو مَلال)، ولكنه رحل رحيل المضطر:

مـــا أبوكـــم كغـــيره يـــألف الضيّمـــ ـــــمِ، أبوكـــمْ ثبـــتٌ علـــى الأهـــوالِ
ذو جـــنانٍ شـــهمٍ إذا خامـــت الأقـــ ـــــرانُ، طلْـــقُ اللســـانِ عِنْد النِضالَ

أما حديثه لأخيه فهو عتاب يمازجه الأسى على موقف والده منه ومن أبنائه:

يـــا أخـــي يـــا جبـــيرُ ناشـــدتُك اللـــ ـــــه اتّـــئِدْ بالعـــيال والأطفـــال
فـــأبوك أمـــرؤٌ علـــيه فراقـــي هيّـــن وهـــو لا يـــودَ عيالـــي

وينهـــي الشّاعر قصيدته مصرّاً على أن يعيش بعيداً عن قومه، ساعياً وراء تحقيق ذاته:

ســـوف أســـعى والأمـــر والحكم للـــ ـــــه معـــاً دائمـــاً علـــى كـــلَ حال

وهكـــذا فإنّ القصيدة تتشبث بالشكل التقليدي، إلا أنّ ابن عقيل صدر فيها عن تجربته الخاصة، واستخرج معانيها من داخل نفسه، وبث فيها لوناً واحداً من الشعور انبثق انبثاقاً من هذه التجربة.

وواضـــح أنّ الشّـــاعر لم يلحّ في الحديث عن موقف أخيه وقومه، وإنّما اهتم بإبـــراز موقفـــه هو منهم، ورد فعله تجاههم، لذا كانت القصيدة تتحرك صعداً على نحـــو يـــوازي الحالـــة النفسية للشّاعر، ومن ثم لم يُنْه قصيدته بالحديث عن آلامة وأحزانه، وإنما أنهاها بتصوير قوته وعزيمته، لأن هذه الآلام والأحزان ظهرت في فاتحـــة القصيدة، والقصيدة الثانية قالها ابن عنين في مديح الملك العادل ويستأذنه من منفاه أن يعود إلى بلاد الشّام، والقصيدة ومطلعها[489]:

مـــاذا علـــى طَـــيْفِ الأُحبّةِ لوْسَرَى وعلـــيهُ لـــوْ سَـــامحُوني فـــي الكَرَى

وعلى الرّغم من أنّ القصيدة لم تتناول موضوعاً واحداً فإنّه يسري فيها خيط نفسي واحد هو الحنين إلى دمشق، وقد أملت هذه العاطفة على الشّاعر أن يتخيّر في كـــلّ جـــزء مـــن قصيدته الصّورَ والمعاني التي تُعبّر عن آماله بالعودة إلى وطنه وتســـتلين قلب الملك العادل في آنٍ معاً، فها هو ذا يتغنّى في فاتحة القصيدة بالحبيبة البعيدة غناءً حزيناً، فيشكو من هجْرها، ويألم لبعدها، متوسّلاً إليها أن تسمع شكاتهذ، وتعود إلى مواصلته، وكأنّ ابن عنين يضمّن هذا الغناء حنينه إلى دمشق، وتوسّلاته إلى الملك العادل أن يصفح عنه، ويسمح له بالعودة إلى مدينته يقول:

يـــا معْرِضـــاً عنّـــي بغـــير جـــنايةٍ إلاّ لمـــا رقَـــشَ[490] الحســـودُ وزَوَّرا

هَبْنـــي أســـأت كمـــا تقـــوّل وافْتَرى وأَتَيْـــتُ فـــي حُبِّـــيك أمـــرْاً مُـــنْكرا

مـــا بَعْـــد بُعْـــدِك والصّـــدورِ عقوبةٌ يـــا هاجـــري قـــد آن لـــي أن تَغْفِرا

لا تجمعَـــنّ علـــيَّ عُتْـــبك والـــنّوى حَسْـــبُ المحـــبّ عقوبـــةً أن يُهجـــرا

عِبءَ الصّدودِ أخفّ من عبء النّوى لـــو كـــان لـــي فـــي الحبّ أن أتخيّرا

وقد أسهب ابن عنين في هذا النّسيب، مفرغاً فيه مشاعره، إلاّ أنّه لم يلبث أن يضـــيق بالتلمـــيح وكتم عواطفه، فتنفجّر نفسه بالحنين الصّريح إلى دمشق وأهلها، وذلك إذ يقول:

فَســـقَى دِمشْـــقَ وَوَادِيَـــيْها والحمـــى مُتَواصـــلُ الإرعـــادِ مفصـــومُ العُرى
تلـــك المـــنازلُ لا أعِقّـــةُ عـــالجٍ ورمـــالُ كاظمةٍ ولا وادي القُرى[491].
أرْضٌ إذا مـــرَّتْ بهـــا ريـــحُ الصَّبا حَمَلتُ على الأغصانِ ميسكا أذْفَرا[492].
فارْقـــتُها لاعَـــنْ رضـــىً، وَهَجْرتُها لا عـــن قِلـــىً، وَرَحَلْـــتُ لا متخـــيّرا

ويوظّـــف ابـــن عنين وصف الرحلة إلى الممدوح توظيفاً ذكياً في استعطاف الملـــك العـــادل، واســـتمالة قلبه؛ فيصوّر مكابدته للسّرى في صحبةِ رفقةٍ، يحدوهم الشوق إلى لقاء هذا الملك، وتفيّؤ ظلال عدله. يقول:

ولقـــد قطعـــتُ الأرضَ طوراً سالكاً نجْـــداً وآونـــةً أجِـــدُّ مُغَـــوّرا
فـــي فتـــيةٍ مـــثْلِ الـــنّجومِ تَســـنَّموا فـــي البـــيد أمـــثالَ الأهلّـــةِ ضُـــمَّرا
قـــالوا وقـــد خـــاط الـــنُّعاسُ جفونَهم أيْـــنَ المُـــناخُ، فقلتُ جِدّوا في السّرى
لا تسْـــأموا الإدلاجَ حـــتّى تُدركـــوا بـــيضَ الأيـــادي والجـــنابَ الأخضرا
فـــي ظـــلّ مـــيمونِ النّقيةِ طاهرِ الـــ أعـــراقِ منصـــورِ اللّـــواء مُظفَّـــرا
العـــادلِ الملـــكِ الـــذي أســـماؤه فـــي كـــلّ ناحـــيةٍ تُشَـــرِّفُ مِنْـــبَرا

ويَلجُ الشّاعر في مدحه على تصوير عدل الملك العادل، وكرم أخلاقه، وعفوه عـــن الذّنب، ونزاهته، وعدم استماعه لمقالة السّوء، وكأنّ ابن عنين يرفع بذلك أمام العادل ما يرجوه منه، ويلمح إلى أمله في العفو عنه.

وأمّـــا خاتمـــة القصيدة فإنّها شكوى مرّة من البعاد، وإحساس غامر بالظلم والإجحـــاف، مع تعليق الأمل على الملك العادل بأن يستمع شكايته، ويرّق له، ويأذن له بالعودة إلى دمشق. يقول:

يـــا أيّهـــا الملـــكُ الـــذي ما في فضا ئلـــه وســـؤدده ومَحْـــتِده مـــرا
أشـــكو إلـــيك نـــوىً تَمـــادَى عمرُها حـــتّى حَســـبْتُ الـــيْمَ مِـــنْها أشْـــهُرا
لا عيشـــتي تصـــفو، ولا رسْمُ الهوى يعفـــو، ولا جفنـــي يصـــافحه الكرى

2.4 ثانياً: الأسلوب واللّغة

بذل الشّعراء الشّاميّون زمن الحروب الصليبيّة جهداً ملحوظاً في العناية بلغة مدائحهم وأساليبها، فقد حافظوا على فصاحة الكلمة وسلامة اللغة، واستقامة العبارة، واستواء النسق التركيبيّ للجملة الشّعريّة بصورة عامّة غير أنّه لا يمكن أن نُدرج هذه المدائحُ كلّها تحت مذهب فنيّ واحد، أو أن نقول إنّ هذا الشّاعر قد سلك اتجاهاً فنياً خاصّاً ينطبق على مدائحة كلهّا، وإنّما تنوّعت أساليبهم، وتعدّدت مسالكهم التعبيريّة، فقد سلك بعض الشّعراء في مدائحهم مسكناً تقليديّاً يتميز بالمحافظة على البناء الشكلي لقصيدة المدح، فيستهلّونها بمقدمات ينشرون فيها أجواء بدويّة، ويصفون مشاهداتهم الصحراويّة وهم يشدّون الرّحال إلى ممدوحيهم، كما في الأبيات التالية الّتي استهلّ بها الملك الناصر داود الأيوبي إحدى مدائحه للخليفة العباسي[493]:

ودانٍ ألمّتْ بالكثيب ذوائبُهْ ... وجنحُ الدُّجى وحفٌّ تجول غياهُبه

تُعهّقِهُ في تلكِ الرّبوعِ رعودُهُ ... وتبكي على تلك الطلولْ سحائبُه

أرقْتُ له لمّا توالت بروقُهُ ... وَحلّتْ عزاليهِ، وأسْبَلَ ساكبهْ

إلى أنْ بدا من أشعرِ الصبّحِ قادمٌ ... يُراعُ لهُ من أدهمِ الليلِ هاربهُ

وأقبل وجه الأرضِ طلقاً، وطالما ... غدا مكفهراً موحشاتٍ جوانبهُ

ويبالغ شرف الدّين الأنصاريّ في مدحه للملك الأمجد بهرام شاه في استيحاء الأجواء البدويّة، فيصف تعلّقه بـ (الجآذر) العربيّات، ومعاناته في حبّه لهنّ، وتعلقه بهنّ، وشُمل الحنين التي اشتعلت في قلبه عندما أزمعت الرّحيل، فيقول[494]:

حَجَرْنَ على أجفانِ عني غرارها ... جفون سيوفٍ ضُمّنتها المَحاجرُ

وأطلعن في خدّيّ أمواة أدمعي ... خدودٌ مياهُ الحسنِ فيها حوائرُ

وخيمّ عقلي في خيامِ عقائلٍ ... حسانٍ، منيفات القدُودِ قصائدُ

وليلةِ بتْنا والنفوسُ ودائعٌ ... نحاذِرُ من وشك النّوى ما نحاذِر

فأعلن بالترحالِ والصبّح مسفرُ ... وأسرَرْتُ توديعي، وهنّ سوافرُ

ويصف شهاب الدين التلّعفريّ في مدحته للملك العزيز غياث الدين رحلته إلى الممدوح، وكيف أنها كانت رحلة شاقه واصل فيها الليل والنهار في سير دؤوب، يقول[495]:

أقول لعنسي وهي تنصبُّ في السُّرى كفتحاءِ زَيْدٍ حاولتْ فَضْلَ مطعمِ
هو القفرُ والإرقالُ والسَّيرُ والوَجى وتشميرُ ذيلِ العَزمِ في كلّ مَخرمِ
أنِخْ طُلَّحَ الآمالِ عندْ محمدٍ وألْقِ بناديهِ عصاك وخيّمِ

واتّخذ هذا الأسلوب مظهراً آخر يتمثّل في الحرص على استخدام الألفاظ القويّة والتعابير المتينة، والنغمة الجزلة، والموسيقى المتدفقة، وعدم تكلف المحسّنات البديعيّة، كما في قول يعقوب الشيبانيّ في إحدى حجازياته ، مكثراً من الألفاظ الخشنة، والعبارات المرتبطة بالرّحلة في الصحراء[496].

لأ كلفنّك قطعَ قفرٍ قطعُه يذرُ الفنيق وما عليه سنامُ
في صائفٍ تغلي لشدّةِ حرّهِ وتجيش فيه بما حَوَتْهُ الهامُ
حصباؤهُ كالجمر تخطو فوقهُ فتكادُ أن تتلهّبُ الأقدامُ
عندي لها إنْ صَافحت ثفَنَاتُها أكنافَ يثرب مسْرح ومَسامُ
ومواردٌ زرقُ النّطاف طوافحٌ بالباردِ العذْبِ الزّلالِ حِمَامُ

وحرص الشّعراء في مدائحهم الجهاديّة، بصورة عامّة، على استخدام الألفاظ الفخمة، والتراكيب الرّصينة المفعمة بالنغمات القويّة، والأسلوب المباشر البعيد عن التكلف ومظاهر الصنعة والتعقيد اللفظيّين، كما في قول ابن السّاعاتيّ في فتح بيت المقدس[497]:

أعيّا وقد عاينتمُ الآيةَ العظمى لأيّةِ حالٍ تذْخَرُ النثر والنّظما
وقد ساغَ فتحُ القدسِ في كلّ منطقٍ وشاع إلى أن أسمع الأسَلَ الصُمّا
تحلّ به الأضدادُ واللفظُ واحدٌ فكمْ سرَّ قلباً في الأنام وكَمْ عمّا

ويستوحي ابن الخيّاط الدمشقيّ في الأبيات التّالية طرائق الأقدمين في التعبير، فيستخدم الألفاظ الجزلة القويّة، والعبارات الفخمة الرّصينة، والتراكيب الحافلة بالإيقاع الشعري المتدفّق[498]:

أنوْماً على مثل هدّ الصفاةِ وهزلاً وقد أصبح الأمر جدّاً
وكيف تنامون عين أعينٍ وَترْتُمْ فأسهر تمُوُهنّ حِقدا
بنو الشّرك لا ينكرون الفسادَ ولا يعرفون مع الجورِ وِصْدا
ولا يَرْدِعونَ عن القَتْلِ نفساً ولا يتركونَ من الفَتَك جُهدا

فـإذا مـا تجاوزنـا هـذا الأسّـلوب الّذي يترسَّم طرائق الأقدمين في البناء والصّياغة، فإنّنا نقف عند أسلوبٍ آخر كان له حضور واضح في أدب ذلك العَصْر: شـعره ونثره، وهو الأسلوب الزّخرفيّ القائم على استثمار الطاقات الشكلية للغة بما فـيها مـن علاقات التشابه والتنافر في إنتاج الدّلالة الشّعريّة، ومن ثمَّ فقد كان قسم كبير من شّعر المدح باتّجاهاته المتعدّدة يعجّ بصور البديع من جناس وطباق ومقابلة وتقسيم وترصيع وردّ الأعجاز على الصّدور، وغير ذلك.

ولا ريـب في أنَّ هذا الاتجاه الأسلوبي جاء استجابةً للذّوق النّقديّ الّذي سادَ لـدى الـنّقاد فـي ذلـك العصر، فقد اهتمّ أولئك النّقاد بالبديع وفنونه، وعدّوه حليةً ضروريّة لا يكون الشّعر جميلاً إلاّ بها[499]، ممَّا دفع أسامة بن منقذ إلى تأليف كتاب فـي هذا الفنّ أطلق عليه اسم (البديع في نقد الشعر) استقصى فيه فنونه، وفرَّع فيها على نحو كبير.

ومن الشّعراء الّذين غلبت على أشعارهم هذه الظّاهرة عبدالمنعم الجلياني، فقد صـنَع ديواناً في مدح صلاح الدين الأيوبي عنوانه (منادح الممادح، وروضة المآثر والمفاخـر في خصائص الملك الناصر)[500]، وقد أثارت طريق الجلياني في ديوانه هـذا دهشـة يـاقوت الحمويّ، فقال فيها: " كان عجيباً في عمل الأشعار الّتي تُقرأ القطعـة الواحـدة بعـدّة قوافٍ، ويستخرج منها الرّسائل والكلام الحِكْميّ مكتوباً في خـلال الشّعر، وكان يعمل من ذلك دوائر وأشجاراً وصوراً"[501]، ومن القصائد الّتي وردت في هذا الديوان " مدبّجة" رهان الأذهان في مدى ذكر الملك الناصر على مرّ الزمان"[502]." وقد وقّع هذه المدبّجة على رسوماتٍ استخرج منها أربع قصائد، الأولى رائيّة، والثانية ميميّة، والثالثة حائيّة، والرابعة جيميّة، وكان من نتائج هذا التصنع أن تداخلـت الكلمات والجمل في القصائد، بحيث نجدها تتكرّر على اختلاف في التقديم والتأخـير، كمـا عمـد الجلياني إلى حشو هذه الأشعار بضروب الصنعة اللفظية، فـتعقدّت تراكيـبه، والـتوت عـباراته، وفقدت جمالها الفنيّ"[503]، كما في قوله في القصيدة الحائية:

جـلا منـيراً مقامـه سـنى لهـجٍ ... أزهـى مـداه ابـتدارُهُ حُلّـي مِدَحاً

يُسـمى فَيُـنمى اعتـيامُه شذا أرجٍ ... بالمكـرماتِ افـتخارُه فـرى ندِحاَ

إشـــراقه وابتســـامُه لمبـــتهجٍ يـــومَ الهـــياجِ خطـــاره يُرى وضحاً

وقد أعاد ترتيب الجمل فاستخراج منها أبياتاً ميميه:

شـــذا أرجٍ بالمكـــرماتِ افـــتخارهُ فـــرى ندحـــاً إشـــراقهُ وابتســـامُه

لمبـــتهجٍ يـــوم الهـــياجِ خطـــارُه يـــرى وضـــحاً، والنقعُ داجٍ ظلامه

أخودلـــجٍ مســـتنقذ القـــدس ثـــأرُهُ صـــبا مِـــنحاً، واستشعر الأمنّ شامُهُ

ومـــن الشّعراء الّذين أكثروا من استخدام المحّسنات البديعيّة في مدائحهم ابن القيسّـــرانيّ وشهاب الدين محمود الحلبي، ومن قصائد ابن القيسّرانيّ التي كثر فيها المحسّنات البديعيّة قصيدته التي أوّلها[504]:

هـــذي العـــزائم لا ماتّدعي القضبُ وذي المكـــارمُ لا مـــا قالـــت الكتبُ

ولا يكـــاد بيـــت من أبياتها يخلو من صورة أو أخرى من صور البديع، ولا سيّما الجناسُ كما في قوله[505]:

والســـيف هـــام علـــى هامٍ بمعركةٍ لا البـــيضُ ذو ذِمّـــةٍ فـــيها ولا اللّيلَبُ

والنـــبّلُ كـــالوَبْلِ هطّـــالٌ وليسَ لَهُ ســـوى القســـيِّ وأيـــدٍ فوقهـــا سُحُبُ

وللظّبـــي ظفـــرُ حلـــوُ مذاقـــتهُ كأنّمـــا الضّـــرْبُ فـــيما بينهم ضَرَبُ

وللأســـنة عمّـــا فـــي صـــدُورهم مَصـــادرٌ، أقلـــوبٌ تلـــكَ أمْ قُلُـــبُ

حـــتّى الطّوارق كانت في طوارقهم ثـــارتْ علـــيهم بهـــا في تحتها النُّوَبُ

ويلاحـــظ أن الشّاعر كان في تجنيساته في الأبيات السّابقة مهتماً برسم الكلمة والـــتماس كلماتٍ تشاركها كليّاً في حروفها وحركاتها، أو جزئياً في بعض الحروف والحـــركات، كمـــا في (هام، اسم فاعل من همى، وهام: جمع هامة، وفي الضرب بمعـــنى الطّعـــن) والضَـــرَب: العسل؛ وفي (صدور ومصادر)؛ وفي (قلوب) جمع (قُلـــبُ)، و (قُلُـــب) جمـــع قليب بمعنى بئر؛ وفي (الطوارق وهي آلات الحرب من الحديـــد فيما يلبس على الرأس والصّدر، وطوارق: نوازل) وقد يكون تداعي الألفاظ قائمـــاً علـــى وزن الكلمة وإيقاعها كما في (النبل) و (الوبّل)، ولم يكن الجناس في الأبيات السّابقة مجرّد حليةٍ لفظيّةٍ، ومن الشّعراء الّذين أكثروا من استخدام المحسنات البديّعية شهاب الدين محمود الحلبيّ، ولا سيّما الجناس والطباق، ومع أنّ للحلبيّ رأيّاً فـــي الجـــناس مفاده أنّه يحسن " إذا قلّ وأتى في الكلام من غير كدٍّ ولا استكراه ولا

بُعْـد، ولا ميل إلى جانب الركّة"[506]، إلاّ أنّ مدائحه النبويّة تدلّ على أنّه كان يسعى إليه لغايات إيقاعيّة، كما في قوله[507]:

وإن بـان بانـاتِ المصلّى وأشرقتْ قـبابُ قَـباً والـنخلّ والمسجد الأسنى
أجلّـتَ ثـرى تلـك الـرّبا وجناتنَا عـن اللمس بالأيدي مدح أرجل الوجّنا
وملِـنا إلـى بـاب السّلام وقد دنا بلـثم ثـراه مـا رجونـا وأمّلـنا

فالشّـاعر كـان يرمي بوضوح إلى تحقيق الجناس بين (بان وبانات) و(قباب وقـبا) و (وجناتنا والوجنا) و (ملنا وأمّلنا)، ويحشد الحلبيّ أحياناً الكثير من الكلمات المتضادّة في سلسلة من الأبيات المتتالية كما في قوله[508]:

مالـي سـواك فأنـت موضع رغبَتي وشـكايتي فـيما أخـاف وأطْمَـعُ
أأخـافُ أو أرجو سواك وليس قي الـ أكـوان مخلـوف يضـرّ ويـنفعُ
أأخـافُ مَـنعْ الـناسِ فضل عطائهم عنـي ومـن يعطـي سـواك ويمنع
أنـت الغنـيّ وكلّ من في الكوْن من مثـيرٍ فقـيرٍ نحـو فضـلك مُدقـعُ

ولا ريـب أنّ الطباق في الأبيات يخدم الفكرة الّتي أراد الشّاعر التعبير عنها وهي إقرار حقيقة التفرّد الإلهي في الكون وأنّ الأمر كلّه له، كما أضفى الطباق على الأبيات إيقاعاً متوازناً ترتاح له الأذن.

ولـم تكـن الصـنعة في شعر المدح مقصورة على البديع، وإنّما تعدّته إلى التلويـن في الأوزان والقوافي، فقد نظم ابن عقيل الزرعيّ قصيدة تُقرأ على غير ما قافية واحدة، وعلى خمسة أوزان كما في قوله[509]:

اسأل يجيك من المعّظمْ نيلُهُ المتوفّرُ الإحسانِ والإكرامِ
سيلُ في الرفد العرمرمْ وبْلُهُ المتفجرُ الهتّانِ والإنعامِ
ينُبكَ عن عيسى بن مريمْ شكْلُهُ المستظهرُ البرهانِ والإعظامِ
ثْبتٌ إذا المقدامُ أحجمْ مِثْلُهُ فمُدَمّرُ الأوثانِ والأصنامِ

ويقـع بيـن هذين الأسلوبين: الأسلوب التقليديّ والأسلوب الزخرفيّ، أسلوب ثالـث يتصف بالسهولة والبساطة والوضوح، مع الحفاظ على جمال العبارة وجوده التركيـب، وحسن التصوير، وغالباً ما كان هذا الأسلوب يأتي في المدائح الإخوانيّة التي ينطلق فيها الشعراء على سجّتهم دون تكلّف والأمثلة على هذا الأسلوب كثيرة،

كما في قول تاج المملوك بوري يخاطب الحكيم زين العابدين أحمد بن علي الحمويّ يمدحه ويحضّه على مداواته[510]:

بـــالله يـــا زيـــنُ كـــنْ لـــي ... مطبـــــــباً لطبيبـــــــي
لا ذقـــتَ فقـــدْ حبيـــب ... إنْ أنـــت عـــدْتَ حبيبـــي
داوِ الغريـــــب جمـــــالاً ... لأجـــل قلـــب الغريـــب
لأجـــل قلـــب محـــبٍّ ... صـــبِّ الفـــؤاد كئيـــب
ولا حـــنى الســـقم يومـــاً ... قـــوامَ ذاك القضـــيب
وذلـــك الـــبدر لاســـا ... ءه الضـــنى بمغيـــب
ولا دنـــا بعـــد إشـــرا ... قِـــهِ لشـــمس غـــرُوب
وليـــته كـــان خظـــي ... مـــن الـــورى ونصـــيبي
يـــا زيـــنُ أفديـــكَ بالـــنفـ ... ـسِ مـــن حكـــيمٍ لبيـــب
موفّـــقِ الـــرأي ذي خـــبـ ... ـــــرةٍ وذي تجريـــب
وكـــيف لا أتفـــدّى ... طبيـــب داء القلـــوب
ولا يكـــون حبيـــباً ... إلـــيَّ شـــافى حبيبـــي

فالبســاطة في هذه الأبيات ماثلة في المعجم الشعريّ الّذي آثره الشّاعر، وهو معجـم يتصـف بالألفـاظ السّـهلة القريبة المأخذ، بالإضافة إلى وضوح التراكيب واسـتخدام الجمل على أصلها في الترتيب كما تبدو البساطة في إيقاعها، فقد صبَّها الشاعر على البحر المجتثّ وهو بحر يقترب من النثريّة إلى حدّ بعيد.

ونجـد مـثل هذا الأسلوب السّهل في المدائح التقليدية أيضاً، كما في الأبيات التالـية التي قالها ابن عقيل الزرعيّ يبشّر بولاية أحد الأمراء، وتقترب هذه الأبيات مـن اللغـة المتداولة اقتراباً شديداً، وغاية ما هنالك أنّ الشاعر أعرب كلامه ورتّب أجزاءه[511]:

أذن فـي الأقطـار داعـي الرّشـادِ ... حـيَّ علـى السَّـعْدِ ونَـيلِ المرادِ
وارتجـعَ الحـقَّ إلـى أهلـهِ ... وعـادَ مـا كـانَ بَـرغمِ الأعادي
وحـلَّ فـتحُ الدّيـنِ فـي حَصْـنِه ... ذي المـنظر الأعلـى الرَّفيع العمادِ

ومـــن السّـــمات الفنـــيّة في شّعر المدح التأثّر بالشّعراء السّابقين واستحضار بعض النصوصّ السّابقة واستثمارها في إنتاج الدلالة الشّعريّة؛ فالقارئ لا يجد عناءً كبيراً في الرّبط بين قول الرّشيد النّابلسّي في فتح القدس[512]:

تجـلُّ علـياء عـن مـدح يحيط به ... وصـف وإنْ نظـمَ المدّاح أو نثروا

وقول أبي تّمام في عموّرية [513]:

فـتح الفـتوح تعـالى أن يحـيط به ... نظـم من الشّعر أو نثرٌ من الخطبِ

وعندما صوَّر ابن السّاعاتيّ مدينة طبريّة بعد تحريرها عروساً حصانَ الذيل في قوله[514]:

ومـــا طـــبريّة إلاّ هـــديّ ... تـــرفَّع عـــن أكـــفّ اللامســـينا

حصـــان الذيـــل لـــم تمْسَـــسْ بسوءٍ ... وســـل عـــنها الليالـــي والســـنينا

قَسَـــتْ حـــتى رأت كفـــؤاً فلانـــتْ ... وغايـــة كـــلّ قـــاسٍ أن يليـــنا

فإنّـــه كـــان يـــنظر إلـــى أبـــي تمّـــام في قصيدته التي يصوّر فيها معركة عموّرية[515]، وذلك في قوله[516]:

وبـــرْزَةُ الوجـــهِ قـــد أعْيَتْ رياضتُها ... كسرى فصدَّتْ صدوداً عن أبي كَرِبِ

بكـــرٌ فمـــا افتَرعْـــتها كـــفُّ حادثـــةٍ ... ولا ترقَّـــتَ إلـــيها هَمّـــةُ الـــنَّوَبِ

مـــنَ عهـــدِ إسـكندرٍ أو قبل ذلك قد ... شـــابت نواصيِ الليالي وهي لم تَشِبِ

ولعلَّ ابن الدّهان الحمصي كان ينظر في قوله[517]:

تبـــيحُ حمـــى الملـــوكِ وَتَســـتْبَيهِ ... ومـــا تحمـــيهِ لـــيسَ بمســـتباحِ

ومـــا ســـألوك عَقْـــد الصّـــلح ودّاً ... ولكـــنْ خـــوْف مُعْلَمـــةٍ رداحِ

إلى قول جرير[518]:

وَقـــومُ قـــد سَـــمْوتَ لهـــمْ فدانـــوا ... يُدهْـــمٍ فـــي مُلَمْلَـــةٍ رداحِ

أَبحْـــتَ حمـــى تهامـــةَ بعـــد نجـــدٍ ... ومـــا شـــيء حميـــتَ بمُسْـــتباحِ

ويتصّرف ابن الدّهان في المعنى بتحويله ونقله إلى دلالة جديدة تغاير الأصل مع الاحتفاظ ببعض ألفاظه وتراكيبه، وذلك في قوله مادحاً[519]:

لـــولاك لـــم أرض القـــنوعَ وذلّتـــي ... مـــن بعـــد طـــول تعـــزّزٍ وتَقـــنّعِ

فاســـلم علـــة مّـــر الـــزمان ممـــنّعاً ... بعظـــيم ملكـــكِ والمحـــلّ الأرفـــعِ

فهو يستعيد صوتَ ابن سينا في حديثه عن الرّوح في قوله:

هبطتَ إليك من المحلّ الأرفعِ ... ورقاءُ ذات تدلّلٍ وتَمنُّعِ

وانتزع أسامة بن منقذ أسطراً كاملة من أبيات لشّعراء سابقين ودمجها في سياقَ نصوصه، كما في قوله في إحدى مدائحه الإخوانيّة[520]:

أبا حسنٍ، وافى كتابك شاهراً ... صوارمَ عتبٍ، كلَّ صفح لها حدُّ

فقابلت بالعتبى مضيض عتابه ... ولم يتجهّمْهُ الحجاجُ ولا الجحْدُ

وأعجبني عِيٌّ لديه ولم أزلْ ... إذا لم تكن خصميِ لي الحججُ اللدُّ

فقد استحضر قول أبي فراس الحمدانيّ في سيف الدولة[521]:

أيا عاتباً لا أحمل الدَّهرَ عتبَهُ ... عليّ، ولا عندي لأنعمه جَحْدُ

سأسكتُ إجلالاً لعلمِك إنّني ... إذا لمْ تكنْ خصمي لي الحُجَجُ اللدُّ

ولم يكن التأثّر بالشعراء السّابقين مقصوراً على مثل هذا التأثر الجزئيّ، وإنّما تجاوزه إلى استحضار قصائد كاملة، ومحاكاتها في الوزن والقافية وأساليب التعبير، فقصيدة شهاب الدين الحلبيّ النبويّة الّتي أوّلها[522]:

دعِ الصبَّ يُدْمي الدَّمعَ منه المآقيا ... فقد ظنَّ كلَّ الظنّ أن لا تلاقيا

تحاكي في بعض جوانبها قصيدة مجنون ليلى الّتي أوّلها[523]:

تذكرتُ ليلي والسنين الخواليا ... وأيّامَ لا تخشى على اللهو ناهيا

فالبينة الموسيقية للقصيدتين متشابهة، ولعلّ الحلبيّ أراد أساساً أنّ يستعيد هذه الموسيقى المألوفة لقصيدة، المجنون لما لها من قوّةٍ إيحائية تضفي على نبويّته إيقاعاً شجيّاً يعبر عن شوق الشّاعر إلى الحضرة النبويّة الشريفة، لذا فقد استعار الشاعرُ كثيراً من الألفاظ والتراكيب الّتي وردت في قصيدة المجنون ووظّفها للتعبير عن تجربته الخاصّة، فالشطر الثاني من مطلع القصيدة النبويّة مستدعيّ من قول قيس بن الملّوح:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ... يظنّان كلَّ الظنّ ألاّ تلاقيا

وينظر الشهاب الحلبي في قوله:

ولولا رجائي في شفاعته غداً ... رجوتُ نجاتي لا عليَّ ولا ليا

إلى قول قيس بن الملوح:

فـياربّ سـحّرِ الحـبَّ بيني وبينها يكـون كفافـاً لا علـي ولا لـيا

وقد حاول ابن الدّهان الحمصي في قصيدته الّتي اعتذر فيها عن هزيمة نور الدين في معركة البقيعة سنة 558هـ، ومطلعها[524]:

ظُـبى المواضي وأطراف القنا الذبلِ ضـوامن لـك مـا حازوه من نفل

ما حاوله المتنبيّ في قصيدته[525]:

غـيري بأكـثر هـذا الـنّاس ينخدع إن قـاتلوا جبـنوا أو حدّثوا شجعوا

فـإنّ كـل واحـدٍ مـنهما اعـتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، فالقصيدتان تمجدان القوّة، وترفع من قيمة القائد المسلم وتبّرئه من مسؤولية الهزيمة، وتهدّد الأعداء، وتستصغر النصرّ الذي أحرزوه، ومن ذلك قول ابن الدّهان[526]:

هـلاّ وقـد ركب الأسد الصقورّ وقد سـلوا الظبى تحت غاباتٍ في الأسلِ

بـنو الأصَـيفِر مـا نلـتم بمكـركمُ والمكـرُ فـي كُلَّ إنسانٍ أخو الفشلِ

ومـا رجعـتمْ بأسـرى خاب سعيكمُ غـير الأصـاغرِ والأتـباع والسّفلِ

قـل للمولّيـن كفوا الطرفَ من جبنٍ عند اللقاء وغضّوا الطّرفَ من خَجَلِ

متولد من قول المتنبي[527]:

قـل للدمسـتق إنَّ المسـلمين لكـمْ خـانوا الأمـير فجازاهم بما صنعوا

ضَـعْفي تعـفّ الأيـادي عن مثالهمُ مـن الأعادي وإن همّوا بهم نزعوا

لا تحسـبوا مـن أسرتمْ كان ذا رمقٍ فلـيس تـأكل إلاّ الميـتة الضـبّعُ

هـلاَّ علـى عقب الوادي وقد طلعت أسـدٌ تمـرّ فـرادى لـيس تجـتمعُ

ومن هنا تحدث ابن الدّهان والمتنبي عن الهزيمة، فالسابق اكتفى بالحديث عن ضعف المنهزمين وجبنهم، في حين تجاوزه اللاحق، ونفذ إلى معانٍ جديدة.

وقد حاكى فتيان في قصيدته التي أولها[528]:

ضـربت لزينـب فـي الغوير خيام فعلـى الغويـر وسـاكنيه سـلام

فقد استعاد فيها موسيقى ألفها كبار الشّعراء من قبله، مثل أبي تمام في قصيدته:

دمـن ألـم بهـا فقـال سـلام كـم حـل عقـدة صـبره الإلمـام

بالإضـــافة إلـــى هذا التشابه الإيقاعي فإن فتيان كاد يلتزم التخطيط الهيكلي الـــذي انتهجه أبو تمام من حيث عدد الأبيات والبناء الهيكلي للنص، فقصيدة الطائي تقع في 54 بيتاً أما قصيدة الشّاغوريّ فتقع في 61 بيتاً، وبدأ أبو تمام قصيدته بمقدمة غزلـــية اســـتغرقت 13 بيـــتاً بث فيها أجواء بدوية، فتابعه الشّاغوريّ وأربى عليه، فاســـتهل قصـــيدته بمقدمـــة غزلـــية استغرقت 26 بيتاً نشر فيها أجواء صحراوية، وتشـــترك القصـــيدتان بعـــد ذلك في الموضوع الرئيسي وهو المدح؛ أبو تمام يمدح المأمون، وفتيان يمدح الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، ولعل هذا التشابه في البيـــنة الإيقاعية والموضوع أوقع الشاعر اللاحق تحت تأثير قصيدة الشّاعر السابق فغدت له نصاً مرجعياً يستلهم منها المعاني والأفكار وصور التعبير بعد أن يخضعها لتجربته الفنية الخاصة، وقد بدأ هذا التأثير في مظاهر متعددة أهمها مقاطع الأبيات، إذ اشـــتركت القصيدتان في22 مقطعاً. ويلاحظ أن فتيان كان يورد المقاطع بالمعاني نفسها التي وردت في قصيدة أبي تمام، مما أدى إلى امتصاص معاني بعض الأبيات بسياقها اللّغوي؛ فقوله:

فجـــنوده الأســـد الضـــواري مـــا لها إلا القـــنا يـــوم الوغـــى آجـــام

يشبه إلى حد بعيد لفظا ومعنى وتركيباً قول الطائي:

آســـاد مـــوت مخـــدرات مـــا لهـــا إلا الصـــوارم والقـــنا آجـــام

ويجـــنح الشّـــاغوريّ إلى المبالغة أحياناً ظنا منه أن ذلك يحقق له التجديد أو الطرافة، فهو يقول في الممدوح:

لـــك منصـــب لـــم يشـــأه في دهرنا إلا الـــذي هـــو للـــزمان إمـــام

في حين يقول أبو تمام "أقررن أنك في القلوب إمام"، ويتصرف فتيان تصرفا قليلاً في المعنى مع الحفاظ على ظلال المعنى لدى الشاعر السابق، فقوله:

يـــا ذا الأيـــادي البـــيض والمنن التي تحـــيا بهـــا الفقـــراء والأيـــتامُ

إخراج جديد لقول أبي تمام:

وتكفـــل الأيـــتام عـــن آبـــائهم حـــتى وددنـــا أنـــنا أيـــتامُ

وإحساس الطائي بحركة الزمن في قوله:

أعـوام وصـل كـان ينسـي طولها ذكـر الـنوى فكأنهـا أيـام

نجد مشابها له في قول فتيان:

ولـت ليـيلات وأيـام مضـت نعـم الليالـي كـن والأيـام

مع اختلاف في طبيعة التجربتين وأسلوب التعبير في كل منهما؛ فالأول ينظر إلـى الزمن في سياق موقف شعري متكامل تتحاور فيه الأضداد وتتجاور، في حين أن فتيان يعبر عن حنينه إلى الأيام التي خلت ليس غير.

ويسترفد فتيان بعض الصور من القصيدة السابقة، ولكنه يتصرف فيها وينقلها إلى معنى جديد كما في قوله:

وبقيـت فـي سـفهاء كالأنعـام في عهـد وهـم عـند اللقـاء نعـام

فالصورة في موادها الأولى مستدعاة من قول أبي تمام:

لمـا رأيـتهم تسـاق ملوكهـم حـزقا إلـيك كـأنهم أنعـام

ولا يعنـي اقـتطاف الشّـاغوريّ بعض مقاطع قصيدة الطائيّ أنّه نقلها كما وردت، وإنّمـا كان يوظّفها في سياقات جديدة، ويدخلها في علاقات تركيبيّة ودلاليّة مغايرة في كثير من الأحيان، فقد استخدم أبو تّمام كلمة (الغمام) بمعناها الحقيقي في قوله:

مـا مـرَّ يـوم واحـد إلاّ وفـي أحشـائه لمحلتّـيك غمـامُ

أمّا الشاغوريّ فاستخدام المقطع نفسه في سياق دلاليّ مجازيّ:

والسّـيف فـي يمـناه بـرقٌ لامـعٌ يجـري دمـاءً والعجـاج غمـامُ

وهـذا التّعالق في الإيقاع والمعنى ترتّب عليه تمثل واضح للبنى التركيبيّة في قصـيدة أبـي تمـام، فـأخذت تتسـرّب إلـى الأنساق اللغويّة الشعريّة في قصيدة الشّـاغوريّ، فقـد أنهى الشّاعر السابق كثيراً من أبياته بجمل أسمية (مبتدأ وخبر)، مـثل: "والقـنا آجـام"، "سـكّانها الأرواح والأجسام"، "والبلاد ظلام"، "وهو زؤام"، "والعقول نيام"، "والرجاء عقام"، فتأثر الشّاعر اللاحق بذلك فجاءت نهايات كثير من أبـياته مصوغة على هذا النّحو مثل: "فكل لحاظها سهام"، "والغريم غرام"، "وداري الشّام"، "بيد الفراق زمام"، "لهنّ سهام"، "وهم عند اللقاء نعام"، "والعجاج غمام".

وأبدى أبو تّمام عناية واضحة بالأفعال المبنيّة للمجهول اهتماماً منه بالحديث، كمـــا فـــي قوله: " نُحرت ركاب القوم"، "واستُطرف الإعدام"، "ونيطت بك الأحكام"، "وتُســـاق ملوكهـــم"، "ويُطلى بها الشيّان"، "وحقَّ لسيفك والإكرام"، فنهج الشّاغوريّ نهجه وزاد عليه، مثل "ضُربت لزينب في الغوير خيامُ"، "وكم عروة فُصمت لعروة"، "ويُحم... حِمام"، "وتُستحسن الأعلام"، "وخُلفت عنه تحية وسلام"، "ويُحمى الذّمار".

وهكـــذا أفضى التعالق الإيقاعيّ بين قصيدة الشّاغوريّ وقصيدة أبي تّمام إلى الـــتأثر بمقاطع القصيدة السابقة ومعانيها وصورها، وأنسياق التراكيب الشّعرية فيها، وتوظيف ذلك بما يتلاءم والتجربة الفنيّة لفتيان.

3.4 ثالثاً: الصورة الفنية

اعـــتمد الشّـــعراء الشّـــاميّون علـــى الصـــورة الفنـــية للتعبير عن أحكامهم ومشـــاعرهم، وتعـــد الصـــورة من العناصر الأساسية المكونة للعمل الشعري[529]، وتعـــددت مصـــادر الصـــورة في شّعر المدح واستمدوا كثيراً من صورهم الطبيعيّة بمصـــادرها المتعددة، فقد ظلوا مثلاً يشبهون الممدوح بالأسد في الشجاعة، وبالسيف فـــي المضـــاء والـــبحر في الكرم..، كقول ابن الخياط يقرن الممدوح بالبدر والبحر والحيا[530].

إذا نحـــن قلـــنا البدرُ والبحر والحيا فقـــد ظلمـــت أوصـــافه غايـــة الظلم

وقول فتيان الشاغوريّ يشبّه مواهب الممدوح بالسيول في الغزارة والتدفق[531]:

إذا مـــا غـــياث الدّيـــن غاث بجوده جـــرتْ فـــوق أكـــمْ المعتفيـــن سيولُ

وقـــول ابـــن القيسّـــرانيّ يشبه الممدوح بالبحر قد لجأ لتطهير بلاد الشّام من الرجس الذي ظل بلادهم[532]:

وائـــذن لموجـــك في تطهير ساحِله فإنمـــا أنـــتَ بحـــرٌ لُجّـــه لجـــبُ

والملـــك الناصـــر صـــلاح الدين يتوقد علّماً ومعرفة كما تتوقد في ظلمائها الشـــهب، وهـــو كالشـــمس يـــنأى رفعةً وعُلاً في حين أن نورها في جميع الأرض مقترب[533].

ووقـــف بعـــض الشّعراء عند الصورة المستمدة من الماء بأشكاله المتعددة، واشتقوا منها صوراً للممدوح في أحواله المختلفة، فهو كالغيث وسيل دافق وبحرُ لجه بيض

العطايـــا وديمـــة لا تنجلي وسحب لا تقلع وريح الشّاعر غريرٌ مترعٌ بندى الممدوح وخلائقه تغني عن المن والسلوى وهو يهتز للندى اهتز ر غصن البان[534].

والممـــدوح بحـــر فـــي بعث العطايا وكالجبال في علوه وسموه، وهو شمس الـــنهار[535]، وشـــبهت السيوف التي تقتل دقا بالعارض الهامي والمنايا بماءٍ استعذب الفرسان وورودِه الجفان بالسيوف المتدفقة[536].

وكثـــيراً ما أقام الشّعراء علاقة تبادلية بين الطبيعة وموضوعات مدحهم وما يتصـــل بهـــا، وقـــد كـــثرت الصور المستوحاه من البيئة الشّاميّة في شّعر المدح، فالحرب روض والدروع أضى ورؤوس الأعداء ثمرٌ[537].

وأخـــلاق الملـــك الصالح إسماعيل كالرياض رائعه ممّا حوته من الأزاهير، ونور الدين غرس من العدل خمائل ترتع الأحداق فيها"[538].

أخلاقُـــــه كالـــــرّياض رائقـــــةٌ ممـــــا حوتـــــهُ مـــــن الأزاهـــــير

وقد نشرت رايات نور الدين كحلل الربيع في انسجام في أزهاره[539]، وقد هزّ الملـــك العزيز البلاد كما تهتزّ الأغصان[540]، وسقى الوزير ابن الصوفي فأورق بعد أن كان يبساً ذاوياً،[541] وقد طالت أرؤس الأعلاج خصباً، والجند كالصقور ينقضون على الأعداء ويصطادونهم[542].

وقول ابن القيسّرانيّ يصف حز القصب السّكري بحز رقاب العِدى فيقول[543]:

نزلـــنا علـــى القصـــب السّـــكرى نُـــزولَ رجـــالٍ يـــريدون نهـــبَهْ
بحـــزٍّ كحـــزّ رقـــابِ العِـــدَى ومـــصٍّ كمـــصّ شـــفاهِ الأحـــبّهْ

وقوله مشبها نزول المطر من السحاب بنور سقط على وجه نور الدين[544]:

يشـــيم ثغـــور المـــزن، تهمي كأنّها ســـنا بشـــرْ نور الدّين تنهلُّ سُحْبُه

وأكـــثر الشّـــعراء مـــن الصور المستوحاة من الطيب والفّوز في مدحهم[545] للرسول صلى الله عليه وسلم؛ فذكر النبي عليه السلام أريج زكيّ يردّ روح وتمتزج رائحـــة الطبـــيعة الجمـــيلة بطيـــب تُـــرب رسول الله[546]، وتراه أطيب من رطيب المندل[547].

وشـــرع النبي عليه السلام أنار كل داجنة كما أنار، دُجى الظلماءِ قنديل[548]، وقـــد أضـــاء هدياً وضح الكفر معتكر[549]، ومهابط الوحي نشرت على الآفاق نوراً

وأنــوار[550] والنبي عليه السلام سماء المعالي وبدرها[551]، وهو بدر بزع من قَريش، وزاهر الأخلاق ومصفّ من جوهرٍ شفّاف، ولأنّ أوجه صحابته قناديل[552]، وكالبدر وضاح الجبين[553]، وآياته كالشمس[554].

وتشــبيه العرقلة الكلبي لمعان البرق في إحدى الرياض بلمعان السيوف كما في قوله[555]:

كــأن لمــيع الــبرق فــي جنباتها ســيوف معيــن الدّيــن بين الكتائب

وتشبيه العماد الأصفهاني كتيبة محمد بن شيركوه بالروضة منشورة بالأزهار والأشــجار، بحيــث يرسم لنا صورة فنيّة جميلة برياتها الخضراء، وتشبيه هامات رؤوس العداة بالثمار التي ستجني وتقطع بواسطة السيوف كما في قوله[556]:

كتيــبة مــثل الــرياض كأنّمــا رياتهــا منشــورةً أزهــارُ
كأنّمــا خضــرُ البــيارق للقــنا ورَقٌ، وهامــاتُ العــداة ثمــارُ
كمــائمٌ والأغمــاد عِنْ زهر الظّبى فُتقــتْ، فكــلّ صــقيلةٍ نُــوارُ

ورفدت الحياة الاجتماعيّة شعراء المدح بكثير من الصور الفنيّة[557].

فــداؤك بــاكٍ علــى مالِــهِ بكــاء اليتــيم علــى الوالديــن

وقوله يصف كرم الممدوح، ويقرنه بكتب الوقف التيّ كثرت آنذاك[558]:

حــتى كــأن خطــوط الكــف مــن يــدهِ كــتابُ وقفٍ على الإحسان والمنني

والمال في راحتي الممدوح ودائع [559] والعدل رواقٌ مده الممدوح على الرعية[560]

رأى حــطّ المكــوسِ عــن الــرّعايا فــأهدرَ قــبلُ وأنشــاهُ بَعــدُ
ومدلهــا رواق العــدل شَــرْعاً وقــد طــوي الــرّواق ومــن يمــدُّ

وقــد أقــام الرســول الكــريم سوقاً من المعروف ناكيه، لا ينفق الإفك فيها والأباطــيل[561] ومحراب المسجد الأموي ثياب من سندس، وتبدو القباب في صحنه مثل العرائس المزّينة بالحليّ[562]، وتشبيه ابن السّاعاتيّ الدين الإسلامي الذي ترعرع بيــن ظهرانــي إلــى الهاشــمية بطفــل نشأ فيهم وكفلوه دون أن يلمّ به وصف أو كهولة[563]:

ترعــرع الديــن طفلاً بين أظهرهم ومــا ألــمَّ بــه وهــن وتكهــيلُ
بيضــهم فرُعــت عُلــيا مــنابره وفــي بــيوتهم الإســلام مكفــول

ودمشق تشبه في جمالها أخلاق الممدوح وهي تحسد مصر لأن الممدوح مقيم فيها[564]، ومع انتشار حركة الوعظ والوعاظ في بلاد الشّام والاهتمام بها، فقد شبه العماد الأصفهاني الطيور بالوعاظ والقراء[565].

ورُقها في منابر الأيك منها واعظاتٌ من شأنها التّذكيرُ
وكأن المقمريُّ مقرييء آي قد صفا منه صوتهُ والضّميرُ

ويقارن العماد الأصفهاني بين شدة وبطش صلاح الدين بالأعداء وقطعه رؤوسهم ورفعه الضرائب والمكوس عن الرعية[566].

فكيف مكستَ المشركين رؤوسهُمْ ودأبك في الإحسان أن تطلق المكسا

وقد كان للحرب التي احتدمت آنذاك أثر في تشكيل الصورة الفنيّة فالممدوح معقل عزّ مانع[567]، والثناء درعٌ تزرُّ على الممدوح لتحميه سهام الذّم، والنهي تشبه الخيل[568]. وأقلام الممدوح سيوف وكتابة فرسان[569]، وأفكار الممدوح سهام إذا رمت هدفا أصابته[570] وشُبّه الرّكب وهم على ظهور المطايا يقطعون البيد لزيارة الديار الحجازية بسهام في أكباد القسيّ[571].

ونوى الأحباب عن زيارة الرسول الكريم سيف على العشاق مسلول[572]، ومصابيح المسجد الأموي تحكي الأسنّة والرّماح الذبّلا[573].

وقد توسّل الشّعراء بحواسهم المتعدّدة في بناء صورهم، وكأن للصور البّصريّة بأنواعها حضور واضح في شّعر المدح.

وتبدو هذه الصور زاهيّة تتداخل فيها ألوان متعدّدة في الشّعر الذي يصف جمال المدن الإسلاميّة، فقد رسم ابن الدهان الحمصي صورة جميلة لدمشق بدت فيها المدينة مكتسية بحلّة من الألوان المتعدّدة الّتي تجذب الأبصار إليها وذلك في قوله[574]:

واهاً لها حين حلى الغيث عاطلها مكللاً واكتسى الأوراق عاريها
وحاك في الأرض صوبُ المزن مخمله بنيرها بغواديه ويُسديها
ديباجه لم تدع حسنا مفّوفها إلا أتاه ولا أبقي موشيها
ترنو إليك بعين النّور ضاحكة إذ بات عين من الوسمي تبكيها

وحيــن مــدح الأصــفهاني دمشق مزج بين اللون الأخضر واللون الأبيض الشفَّاف في صورة جميلة أخآذه[575]:

مياديــنها الخضــر فــيح الــرحاب وسلســالها العــذب صــاف النّمِير

وتبدد قطرات الندى على الزهر المنثور مثل اللآلئ[576]:

ومــثل الآلــي ســقيط الــنّدى علــى كــلّ منــثور نــور نثــيرُ

ومثل هذا نجده في قول ابن الدهان يصف الطبيعة الخلابة في دمشق ويصف امتزاج الألوان[577]:

صــفا لها الشربُ فاخضرَّت أسافلها حــتى ضَــفا الظل وابيضّت أعاليها

ويرســم إســماعيل ابن أبي عساكر لجامع دمشق صوراً لونية جميلة، تصف انعكاس الشمس على رحابه وساحاته، وتصوير جمال محرابه، ولمعان الإضاءة فيه، وبريق مياهه الّتي تتدفّق في بعض جوانبه[578]:

وكــأنّ جامعهــا الــبديع بــناؤه ملــك يمــير مــن المســاجد جحفلا

قــبة رفعــت فضــاهت قلــة ومــنابر بنيــت فحاكــت معقــلا

فــإذا تــذر الشــمس فــيه تخالــه يلقــي تــالف أو حــريقا مشــكلاً

فكأنمــا محــرابه مــن ســندس أو لؤلــؤ وزمــرد قــد فصــلا

وــله مصــابيح لهــن سلاســل تحكــي الأســنة والــرماح الدبــلا

تــبدو القــباب بصــحنه لــك مثلما تــبدو العــرائس بــالحلى لتجــتلا

وعلــت بــه فــوارة مــن فضــة ســالت فظــنوها معيــنا سلســلا

وقــد وصــف ابــن الدّهان اهتزاز الأغصان وحركة الماء فيها، قارناً ذلك بحركات الرقص، وذلك في قوله[579]:

وصــفقّ النهر والأغصان قد رقصتْ فــنقّطة بــدّرٍ مــن تراقــيها

كأنمــا رقصــها أو هــي قلائدهــا وخانهــا الــنّظمُ فانثالــت لآلــيها

وقد استمد الشّعراء من عناصر الطبيعة المرئية صورة الليل والرعد والبرق بحيــث شــبهه بمــا صنعه الأبطال في أرض المعركة، من أفعالهم في إثارة الغبار بصهيل الخيل، وبرق السيوف ولمعانها، في أرض المعركة وسوادها، والرعد يشبهه صهيل الخيل[580]:

إذا بـــدا الليلُ نقعاً والرعود صهيل الجـــرد والـــبرق بـــيض مشـــرفيات
والســـــمهرية كالأشـــــطان واردة ضـــرحاتها شـــرع والســـحب هامات

فالليـــل نقع (صورة بصرية)، والرعد صهيل (صورة سمعية)، والبرق بيض مشـــرفيات (صـــورة صوتية بصرية). وتمتزج الصورة اللونية بالصورة الشميه في الأبيات التالية التي يصف فيها ابن عنين حبُه لدمشق وهيامه بطبيعتها في ثيابها[581]:

أشـــاقكَ مـــن عُليا دمشق قصورُها وولـــدانُ روضِ النيَّربيـــن وحورُهـــا
ومنـــبجسٌ فـــي ظـــلٍّ أحـــوى كأنه ثـــيابُ عـــروسٍ فـــاحَ مـــنها عبيرُها

ويكمـــل ابن عنين وصفه لمنازل دمشق فهي تأخذ صور خلابة، بما فيها من صورة لونية تزيد الأيام بهجة في دمشق:

مـــنازلُ أنـــسٍ ما أمحَّت ولا أمحَّتْ بمـــرِّ الغـــوادي والســـواري سطورها
تـــزيد علـــى الأيـــام نـــوراً وبهجةً وتـــذوي الليالـــي وهي غصنٌ حَبيرُها
إذا الـــريحُ مـــرَّتْ في رباها كريهةً حـــباها بطيـــب النشـــر فيها مرورُها

ودمشـــق فـــي صورها البهية تفوح نسيماً من طيب وفي ذلك قول يحيى بن سعيد المهراني الحموي[582]:

فـــإذا جـــرى فـــيها النسيمُ تعطَّرت مـــن طيـــب صـــائك عرفها الأقطارُ

وقول عرقلة الكلبي في رياضها الزهية من نرجس وبنفسج قد عُطرت بمسك فالصـــورة البصـــرية تحمل في ثناياها ألوان البنفسج والنرجس ومحملة بعطور من مسك[583].

وريـــاضٍ مـــن البنفســـج والنرجس قـــد عُطـــرت بمســـك وعـــود

أمّا اللون الأحمر فغالباً ما يقترب بلون الدماء في شعر المدح كقول أسامة بن منقذ يصف دماء الأعداء وامتزاجها في البحر[584]:

دمـــاؤهم فـــي الـــبحر حُمْرُ سوائحٌ وهـــامُهم فـــي الـــبرِّ سُـــحْمُ جواثمُ

وقول العرقلة الكلبي[585]:

وكـــأنهم وكـــأنَّ حمـــرة راحهِـــم فـــي راحهـــم، وهـــناً، دُمىً ودماءُ

وقــول ابن الدّهان يصف جثث العدو الصليبيّ ملطخة بالدم وكأنها تماثيل من الكــافور مغرقيــن بدمائهم مثل العنبر، والطير تنهب أحداقهم الزرق وكأنها جواهر رزق صغيرة[586]:

صــرعى كــأنهم تماثــيل من الــ ـكــافور مــن دَمهــم رُدعنَ بعنبر

فــاللون الأحمــر يحمــل تعابير القوة والبطش بالإضافة إلى دلالة الشراسة والغضب في الحروب الصليبيّة.

وأخــذت صورة دمشق تعلو بمناظرها الخلابة، لتمتزج ألوانها بالطبيعة ومن ذلك قول ابن السّاعاتي[587]، ينتقل إلى الحديث عن دمشق:

وفواقــعٌ صــفرٌ تــزان بناصــعٍ كالــبِّر رُصّــعَ بالعقــيق الأحمــر
ومعنــبر الأنفــاس مسّــكهُ الحــيا وبــتركُ غــير ممسّــكٍ ومُعنــبر
والــبرقُ طلــقٌ كالأحــبَّة ضاحك فــي حجــر غــيمٍ كالرقيــب معبّس
والــروضُ فــيه من الحسان ملامح وضّــاحة للــناظر المــتفرس

ورايــات المعركة تتلون لتصبح حمراء عندما ترد صفراً، فرايات الممدوح جميلة تتمثل في نباتات لها زهر جميل وفي ذلك يقول فتيان الشّاغوري[588]:

يصــدُرُ بالــرّايات حُمــراً إذا وردنَ صُــفراً أحســنت مــنظراً
ومــا ســمعنا مــثل راياتــهِ بُجلــنار كــان نــيلُو فــرا

واللون الأبيض يحمل تباشير الخير والانتصارات البهية، وهذه الألوان تمتزج بومــيض الــبرق ولون الأزاهير والرياض، فتحمل لنا صور لونية وبصرية خلابة مستمدة من صور الطبيعة مثل السماء (بالأنجم الشهب).

وتــتجمل دمشــق في فصل الربيع حتى تمدح في مقام الفقيه ضياء الدين بن الشهرزوري لتعبر عن لوحة فنية متكاملة لونية وبصرية يملأها البهجة والزهو[589]:

فصــلٌ تبســمَّ عن زُهر وعن زَهرِ فــلاح للناظريــن الــنّوْرُ الــنورُ
للمســكِ فــي الزهر فاراتٌ يذبّحُها نســميُهُ فهــو مســحوقٌ فمــزرورُ
عــن زعفرانٍ رنتْ إحداق نرجسه علــى الزّمُــرّ والإمعــان كــافور
نــثارهُ كمــا هــب النســيمُ علــى الأرض الدراهــم بيضــاً والدنانــيرُ
كــأن غدراتــهُ راحٌ مشعشــعةٌ فروضُــهُ منُــتْشٍ والزّهــرُ مخمورُ

فلكـــل لـــون من هذه الألوان دلالة تحمل قيمة فنية متميزة تعطي النص قيمته وجمالـــه وقد وردت في صورهم الفنية، الصور السمعية والصور الذوقية، وقد جاء بعض هذه الصور " بحيث يعطي صفات إحدى الصور الأخرى"[590].

كما في قول القاضي أبي البركات على بن أبي جرادة[591].

منعـــتُ بـــأن أراك بعيـــن ســـمعي علـــى أنّ اشـــتياقي فـــي اتقـــاد

وترتـــبط الصـــور السمعية بالأصوات المرتبطة بأحداث المعركة، ولا سيما ونحـــن نـــتحدث عـــن عصر الحروب الصليبيّة في صوت الرعد، وصوت صهيل الخـــيول، وصوت المقاتلين، وهي تدل على مدى قوة الجيش ومعنوياته، وتدل على مدى قوة القائد الذي يقود هذا الجيش ... ومن ذلك قول ابن السّاعاتيّ يصف الحرب بوليمة البيض[592]:

إن حضـــر الطاغـــي وليمة بيضهم فلـــيس له الإّ الـــندامة ندمـــان
غـــداة لركض الخليل رعدٌ وللظبى ومـــيضٌ وقطـــر النـــبل سحٌّ وهتان

أمّـــا الصـــورة الذوقية بما تحمله من طعم الحلاوة والمرارة والملوحة، كانت مرتبطة بالحزن والأسى، مثل صورة دمشق وكأنها جنة[593]:

ونحـــن فـــي جـــنة لا ذاق ساكنها بأســـاً ولا عرفـــت بؤســـاً مغانـــيها
ســـماء دوح تـــردّ الشمس صاغرةً عـــنا وتـــبدي نجومـــاً فـــي نواحيها
تـــرى الـــبدور بهـــا في كلّ ناحية فممـــدودة للـــنجوم الزُّهـــرْ أيديهـــا
إذا الغصـــونُ هـــززناها لـــيل جنى صـــارت كواكـــبُها خصْبا أراضيها
مـــن كـــلّ صفراء مثل الماء يانعةً تخالهـــا جمـــرَ نـــارٍ فـــي تلظّـــيها
لذيـــذة الطعـــم تحلـــو عـــند آكلها بهـــيّة اللّـــون تحلـــى عـــند رائيها

وقـــد توســـل الشّعراء الشّاميّون بالأساليب البيانية برسم صورهم فأكثروا في مدائحهـــم من التشبيهات والمجازات والكنايات والاستعارات وقد تنوعت هذه الصور بيـــن صـــور جزئـــية ولوحـــات فنية كبرى توسّل الشّعراء في رسمها بالتشخيص والتجســـيد " فـــإذا الأشياء ترتفع إلى مرتبة الكائن الحي وتستعير صفاته في الحالة الأولى، وإذا المعاني منقولةُ إلى المادية والحسية في الحالة الثانية"[594].

ومـــن الصور التشبيهية الجميلة قول ابن عنين يشبه عدل الملك العادل بالجنة ونداه بالكوثر العذب وذلك في قوله[595]:

وبكـــلّ أرضٍ جـــنة مـــن عدلهِ الـــ ـــضـــافي أســـالَ نـــداه فيها كوثرا

والملـــك العزيز بن صلاح الدين هزّ البلاد كما تهز الأغصان وذلك في قول عبدالمنعم الجلياني[596]:

لله أنـــت عمـــاد الديـــن مـــن ملكٍ هـــزَّ الـــبلاد كمـــا تهـــتزُ أغصـــانُ

ويشـــبه فتـــيان الشّاغوريّ القصور التي أنشأها الملك الأمجد بهرام شاه في بعلبك بالجبال الضخمة وذلك في قوله[597]:

ولـــك القصـــور المنشـــآت فكلّهـــا فـــي بحـــر مـــا تستحســـن الأعلام

ويمعن ابن منير الطّرابلسيّ في توليد الصورة تلو الأخرى ليصبغها على نور الديـــن زنكـــي فهو بدر الكواكب ضراته وآثاره كالشمس وألسنة الزمان تروي عنه أمجاده...، وذلك إذ يقول[598]:

ماضـــرّ هـــذا الـــبدرَ وهـــو محلّق أنّ الكواكـــب فـــي الـــذُّرا ضـــرّاتُه

فـــي كـــلّ يـــوم تســـتطيل قـــناتُه فـــوق السّـــماء، وتعتلـــي دَرَجاتُـــه

وتظـــلّ تـــرقم فـــي الضُّحَى آثاره مجـــداً وألســـنة الـــزّمان رُواتُـــه

غـــير أن الشّـــعراء الشّـــاميّين رســـموا في مدائحهم صوراً كلية قائمة على التشـــخيص كمـــا في الأبيات التالية التي تمثلت فيها مدينة القدس عروساً بكراً تزفُ للرجل الذي ينقذها من الأعداء كما يقول الملك تقي الدين عمر[599]:

جـــاءتك أرض القدس تخطب ناكحاً يـــا كفأهـــا، مـــا العذْرُ عن عَذْرائها

وتـــبدو دمشـــق في شعر ابن القيسّرانيّ امرأة حصاناً تمنعت على نور الدين دلالا[600]:

وهل هي الاّ كالحصّانُ تمنعت دلالاً وإن عـــزَّ الحـــيا وغـــلا المهـــرُ

ويصـــور ابن قسيم الحموي هلال العيد إنساناً براه الشوق إلى الممدوح وذلك في قوله[601]:

وقـــد زارك العـــيد الذي أنت عيده بـــأبلج فـــي بيـــت السَّـــعادة نـــازلِ

بـــراه إلـــيك الشـــوق حتى أصاره بفضـــلةَ جســـم كالقلامـــةِ نـــاحِلِ

وصور العماد الأصفهاني الإسلام في هيئة إنسانٍ جذل الفؤاد مطمئن النفس[602]:

بشـــراي فالإســـلام مـــن ســـلطانه جـــذب الفـــؤاد بنصـــره مـــرتاحُ

ويقـــف ابن القيسرانيّ عند تفصيلات تصويرية دقيقة وهو يصف مقتل أمير أنطاكية في معركة إنب وذلك إذ يقول[603]:

مـــن اللشـــقيّ بمـــا لاقـــت فوارسُه وإنّ بســـائرها مـــن تحـــته قتـــبُ

عجبـــتُ للصـــعَّدة السَّـــمراء مثمرةً برأســـه إنّ إثمـــار القـــنا عَجـــبُ

ســـما علـــيها سُـــمُوَّ المـــاء أرهقه أنـــبوبهُ فـــي صـــعود أصلها صبَبُ

مـــا فارقـــت عذبـــاتُ التّاج مفرقَهُ إلاّ وهامـــتهُ تـــاجُ ولا عَـــذَبُ

إذا القـــناةُ ابتغـــت فـــي رأسهِ نفقاً بَـــدَا لثعلـــبها مـــن نحْـــره سَـــرَبُ

فهـــو يصـــف جثة الملك ملقاة ولكن ليس على الأرض وإنّما على جثث جنده المتـــناثرة في ميدان المعركة ويوغل الشاعر في تشفيه بالملك الصريع حيث يصور الـــرمح والـــرأس مرفوعة في أعلاه غضباً مثمراً وتوحي صورة الرأس المرفوعة وهـــي متطامنه إلى أسفل في ذلّ وخضوع بصورة الماء الصاعد في سيل ضيق إلى أكمـــة مرتفعة أساسها منخفض ويدقق ابن القيسّرانيّ في مشهد الرأس مرفوعة على السنان وقد سقط على التاج فتنقدح في ذهنه صور مـــأداها أن الرأس نفسها قد غدت تاجـــاً للرمح ويعمد الشّاعر إلى التورية فوجد ثعلبها " سنان الرمح سرباً"، " حجراً"، في نحره.

وقـــد يعمد الشّعراء في تصويرهم إلى الرسم المباشر بالكلمات وما توحي به مـــن ظـــلال تخـــرجها عن المعنى الحرفي كما في الأبيات التالية التي يصف فيها يعقـــوب الشـــيباني وهو في البيت العتيق بعض مناسك الحج فصور الطائفين حول الكعبة وقد خشعت قلوبهم واتقدت جذوة الإيمان في نفوسهم وانهمرت الدموع غزيرة من أعينهم وذلك في قوله[604]:

إلـــى كعـــبةٍ سوداءُ في عين جاهلٍ وفـــي عيـــن ذي اللّب المنّورِ أنْوارُ

يطـــوفُ بهـــا في حِنْدسِ الليل دائماً رجـــالُ هُـــدىً شُعثُ الملابس أبرارُ

رؤوســـهم مـــن خشـــية اللهِ نُكَّـــسُ ودمعُهـــمُ مِـــن فـــارطِ الذّنبِ مدرارُ

الخاتمـــة

وبعـــد فهذه دراسة لقصيدة المدح في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة، وقـــد بيّنـــت الدراسة أهم العوامل السياسية والاجتماعية والفكريّة الّتي وجّهت شعر المدح في بلاد الشّام آنذاك، وتفاعل الشعراء المدّاحين مع القضايا الكبرى الّتي كانت تهمّ الأمّة وتستحوذ على فكرها وشعورها.

وقـــد كانت الحروب الصليبية في مقدمة الهموم الّتي استغرقت قدراً كبيراً من شـــعر المدح ، فقد رصد الشعراء في مدائحهم أحداث الصّراع وسجّلوها على نحو يكاد يقترب ممّا ذكره المؤرّخون، ومجّدوا البطولات الإسلاميّة، وتغنّوا بالانتصارات الّتـــي أحرزتها الأمّة، بالإضافة إلى حشد طاقات الجماعة الإسلامية في ديار الشّام للوقـــوف في وجه العدوان، ودعوة الأمّة إلى اليقظة لمواجهة الخطر الصليبي الذي دهمهم في عقر دارهم.

وتناولـــت الرســـالة أنماطـــاً متجددة من شعر المدح جاءت استجابة لطبيعة العصـــر، فبيّنـــت من خلال دراسة شعر المدائح النبويّة تغلغَل الرّوح الإسلاميّة في نفوس النّاس، وحقيقة الاستعداد الفكريّ والشعوري للأمّة وهي تواجه المدَّ الصليبيّ، ومـــن ثمَّ فقد كثرت المدائح النبوية في ذلك العصر كثرة فائقة، ووجد بعض الشعراء الّذيـــن أفـــردوا دواويـــن خاصّة في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلَّم، وقد استقصـــى الشـــعراء في هذه المدائح سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وبسطوا للأمّـــة الفضـــائل النـــبويّة، وكأنهم بذلك يضربون لها المثل الأعلى في سيرته عليه السّلام للسيّر على نهجه.

وبيّنـــت الدراســـة تعـــاظم الإحساس بالمكان في الشعر الشاميّ، واتخذ هذا صـــورتين: الأول ظهور الكتب الّتي تتحّدث في فضائل البلدان، والثانية ازدهار ما أطلـــق علـــيه المدح البلدانيّ، وهو مدح يعبرّ عن تمسك الشعراء الشّاميّين ببلادهم وافتنانهم بها، وابتهاجهم بجمالها ويصوّر سماتها الدينيّة والحضارية والطبيعية.

وتبيّـــن الدراســـة ارتباط شعر المدح بالمناسبات الاجتماعيّة اليوميّة، واتخاذ الشـــعراء مدائحهـــم الإخوانـــيّة وسيلة للتراسل بينهم، والتعبير عمّا يطرأ بينهم من مواقف جديّة وهزليّة، ونقل مشاعرهم الصادقة وأحاسيسهم الرقيقة.

وبيّنت الدراسة كذلك، أنّ الشعراء الشّاميّين ظلّوا يقولون في المدح التقليديّ، وقد توسّعوا في هذا المدح فشمل السلاطين والأمراء والوزارء والقادة والفقهاء والقضاة والعلماء. وكان الشعراء الشّاميّون يوائمون بين معاني مدائحهم وممدوحيهم مواءمة دقيقة، غير أنّ هذا النمط في المدح كان أكثر لياذاً بالرسوم الفنيّة المتّبعةَ، ويكاد لا يحيد عن منهج رسمه التقليد الشعريّ خلال القرون.

وعلى المستوى الفنيّ فقد بيّنت الدراسة أنّ الشعراء الشاميّين حافظوا على الصورة الأصلية للشعر العربيّ سواء أكان ذلك في بناء القصيدة أم في صورها وأساليبها ولغتها. ومع ذلك فقد تفننّ الشعراء في بناء قصائدهم المدحيّة وقدّموا صوراً شتىّ من هذه القصائد.

وقد لوّنوها بتجاربهم الخاصّة، وأخضعوها لمشاعرهم وانفعالاتهم، مستفيدين في ذلك كلّه من القرآن الكريم والتجارب الشّعرية السّابقة في بناء معانيهم والتعبير عن عواطفهم.

وتغيّر الدراسة أحكاماً كانت شائعة حول إغراق شعر ذلك العصر في الصنعة اللفظية والزخارف البديعيّة، فقد كان الشعراء في معظم مدائحهم لا يلحون على صور الصنعة تلك وإنّ ما ورد منها في تلك المدائح إنّما كان يجيء للتعبير عن المعاني والأفكار، وليس مجرّد حلية أو زينة لفظية.

وأخيراً، فقد بيّنت الدراسة أنّ كثيراً من مصادر ذلك العصر ما تزال مخطوطة تنتظر نهوض الدارسين لتحقيقها ومن هذه المصادر عقود الجمان من شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي، وديوان القصائد السبع في المدائح النبويّة لمحمد بن علي السخاوي، ومنادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر لعبدالمنعم الجلياني، وديوان محمد بن سوار ابن إسرائيل الدمشقي، وديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح لشهاب الدين محمود الحلبي.

قائمة الهوامش

(1) آق سنقر: هو جد نور الدين زنكي، كان مملوكاً للسلطان ألب أرسلان مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاة، وعندما كبر اعتمد عليه في أموره كلها وعلت مرتبته فلقيه قسيم الدولة، شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل- بيروت،(د. ت) 1: 24، وعز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر- بيروت: 10: 232- 233.

(2) تاج الدولة تتش بن السلطان الب أرسلان السلجوقي، ابن الأثير: الكامل: 10: 282

(3) رضوان بن تتش بن ألب أرسلان صاحب حلب، ت 507هـ، ابن الأثير: الكامل: 10: 499.

(4) دقاق بن تتش بن ألب أرسلان، صاحب دمشق، ت 497هـ، ابن الأثير: الكامل: 10: 376.

(5) طغتكين: وهو مملوك الملك تتش بن ألب أرسلان، وكان عاقلاً خيراً، كثير الغزوات على الفرنج لقبه ظهير الدين، ت 522هـ، الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2: 416، وابن الاثير: الكامل: 10: 652.

(6) ابن الأثير: الكامل: 10: 376 و 408.

(7) الذهبي: العبر، 2: 364- 365 و 370.

(8) ابن الاثير: الكامل: 10: 475- 476.

(9) عماد الدين زنكي: أخباره في ابن الأثير: الكامل، 10: 658- 659، وابن خلكان: وفيات الأعيان، 2: 327- 329.

(10) أتابك: وهي كلمة تركية مكونة من " أتا وهو الاب"، "وبك"، وهو الامير، وقد كان يكلف من السلطان بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان: وفيات الأعيان، وأنباء الزمان، حققه إحسان عباس، دار صادر- بيروت، 1: 365.

(11) أبو شامة: الروضتين، 1: 29.

(12) شفيق الرقب: الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجريّ، دار صفاء، 1993م، 12.

(13) بُــزاغة: وهي بلدة من أعمال حلب بين منبج وحلب، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979، 10: 409.

(14) ابن الأثير: الكامل، 10: 650.

(15) جمال الدين محمد بن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات إحياء التراث القديم، وزارة المعارف المصرية، إدارة الثقافة العامة مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1953، 1: 55.

(16) أبو شامة: الروضتين، 1: 87، وابن الأثير: الكامل، 11: 21-22.

(17) ابن الأثير: الكامل، 11: 40.

(18) باريــن: وهــي مدينة بين حلب وحماه، معجم البلدان: 1: 320- 321، وابن الأثير: الكامل، 11: 52-53.

(19) كفر طاب: وهي بلدة بين المعرة وحلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4: 47، وابن الأثير: الكامل، 11: 52- 53.

(20) ابن الأثير: الكامل، 11: 50- 51.

(21) ابن واصل: مفرج الكروب، 1: 53.

(22) حصــن المجدل: وهي بلد بالخابور في سوريا، إلى جانبه تل عليه قصر وفيه أسواق كثيرة ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2: 265.

(23) ابن الأثير: الكامل، 11: 73- 76.

(24) الــرّها: وهي مدينة بالجزيرة بين الموصل والشّام، وهي مدين تركية سميت نسبة إلى الذي استحدثها الرجاء بين البلندي بن مالك بن وعر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 3: 106.

(25) ابن واصل: مفرج الكروب، 1: 93.

(26) قلعــة جعــبر: وهي قلعة على الفرات في سوريا، مقابل صفين، واسمها دوسر، وقد تغلب عليهارجل يعرف بجعبر بن مالك، قسمت به، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4: 390، والذهبي: العبر، 2: 459.

(27) أبو شامة: الروضتين، 1: 45.

(28) أسد الدين شيركوه: وهو أبو الحارث بن شاذي بن مروان عم السلطان صلاح الدين، وقــد كان من أحد الوزراء المهيمنين في عصر نور الدين زنكي ت 637، ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2: 479- 480.

(29) أبو شامة: الروضتين، 46- 47، والذهبي: العبر، 3: 145.

(30) ابن الأثير: الكامل: 11: 114.

(31) ارتـــاح: هـــي اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان: 1: 169.

(32) محمـــد راغب الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال، دار القلـــم العربـــي بحلب، ط1، 1923م، ط2، 1988، 2: 10، وابن الأثير: الكامل، 11: 122.

(33) ابن واصل: مفرج الكروب 10: 114و 118، ابن الأثير: الكامل: 11: 131.

(34) حصـــن أفاميه: وهي مدينة حصينة من سواحل الشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 1: 227.

(35) تـــل باشر: وهي قلعة حصينة، وكورة واسعة في شمالي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2: 40.

(36) إلبـــيرة: وهي بلدة من الأندلس، بين القبلة والشرق من قرطبة، ياقوت الحموي: معجم البلدان 1: 244.

(37) بهنســـه: وهـــي مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل، ياقوت الحموي: معجم البلدان،1: 516.

(38) مرعش: وهي مدينة في الثغور بين الشّام وبلاد الروم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5: 107.

(39) أبو شامة: الروضتين، 1: 96- 97.

(40) نفسه: 1: 97.

(41) شاور: وهو شاور بن مجير بن نزار بن عشائر أبو شجاع وزير مصر، كان ذا نجابة وشهامة وفروسية، قتل سنة 564هـــ، ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2: 440.

(42) ابـــن واصل: مفرج الكروب، 1: 148، وأبو شامة: الروضتين، 1: 143، ابن الأثير: الكامل، 11: 143.

(43) صلاح الدين الأيوبي: وهو يوسف بن أيوب بن شاذي، الملقب بالملك الناصر أقبل على دمشـــق ســـنة 570هـــــ، بعد أن استقل بملك مصر، توفي سنة 589هـــ، ابن خلكان: وفيات الأعيان 7: 139- 218.

(44) حصـــن حـــارم: وهو حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2: 205.

(45) الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، 2: 23.

(46) أبـــو شامة: الروضتين، 1: 72-74، وتاريخ أبي يعلي حمزة ابن القلانسي: المعروف بذيل تاريخ دمشق، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين، 1908، 310.

(47) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 321- 322.

(48) بهـــاء الديـــن أبـــو العز يوسف بن رافع بن عتاب الأسدي بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1964، 44-45.

(49) الذهبـــي: العبر، 3: 55، ابن الأثير: الكامل، 11: 395، ابن شداد: النوادر السلطانية، 47.

(50) نفسه: 49.

(51) نفسه: 51.

(52) نفسه: 51.

(53) الذهبي: العبر، 3: 53، وابن الأثير: الكامل، 11: 408.

(54) ابن الأثير: الكامل، 11: 415- 418.

(55) نفسه: 11: 158.

(56) نفسه: 11: 445.

(57) طبرية: وهي بلدة من أعمال فلسطين في طرف الغور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4: 17.

(58) حطين: قرية بين أرسوف وقيسارية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2: 273.

(59) ابن واصل: مفرج الكروب، 2: 188.

(60) العمـــاد الأصفهاني: الفيحّ القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، 76-83.

(61) ابن شداد: النوادر السلطانية، 81- 82.

(62) العماد الأصفهاني: الفيحّ القسي في الفتح القدسي، 88- 112.

(63) نفسه: 513.

(64) أبو شامة: الروضتين، 2: 197- 198.

(65) أخـــبار فتيان الشّاغوريّ في: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ط1، 1993، مؤسسة الرسالة، 2: 614.

(66) فتـــيان الشّـــاغوريّ: ديوانـــه، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، 69.

(67) ابن واصل: مفرج الكروب، 3: 15.

(68) نفسه: 3: 15.

(69) أبـــو الفـــداء الحافظ ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، دقق اصوله وحققه، أحمد أبو ملحـــم وعلـــي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر وعلي عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1987،3، 12: 335و 340 و369.

(70) جمال الدين يوسف بن سيف الدين الأتابكي ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ووزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، 6: 227.

(71) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4: 168.

(72) ابن الأثير: الكامل، 12: 350- 352.

(73) نفسه: 12: 482- 483.

(74) نفسه: 12: 484.

(75) ابن الأثير: الكامل، 12: 484.

(76) ســـعيد عاشـــور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلوا المصرية، الطبعة الثانية، 1976م، 2: 1036

(77) عين جالوت: وهي بلدة بين بيسان ونابلس، من أعمال فلسطين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4: 177.

(78) عز الدين أيبك التركماني: قد تولى السلطنة بعد مقتل الملك المعظم توارن شاه، وخروج الملك عن بني أيوب سنة 648هـــ، الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، 2: 220- 221.

(79) الظاهـــر بيـــبرس بن عبدالله ركن الدين أبو الفتح بيرس الصالحي النجمي البند قداري التركـــي، سلطان الديار المصريّة والبلاد الشّاميّة والأقطار الحجازيّة ولد سنة (620 هـــ- ت 676هـــ)، يوســـف بـــن تغري بردي الأتابكي، تراجم آقطوه بن عبدالله

الأشـــرفي، بيمند الفرنجي، حققه نبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، 3: 447.

(80) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7: 55- 56 و 121.

(81) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4: 154.

(82) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 7: 143.

(83) المقريـــزي: الســـلوك لمعرفة دول الملوك، محمد مصطفى زيادة، 1، قسم 3: 764- 766.

(84) نفسه: 7: 320- 321.

(85) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، 51.

(86) ابن واصل: مفرج الكروب، 1: 103.

(87) نفسه: 1: 183.

(88) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 51.

(89) ســـعيد عاشـــور: مصـــر والشّام في عصر الأيوبين والمماليك، دار النهضة العربية، 213-214.

(90) عمـــر باشا: الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والايوبين والمماليك، دار الفكر، (د. ت)،820.

(91) شفيق الرقب: الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجريّ، 26.

(92) ابـــن شـــداد: الأعلاق الخطيرة في محاسن أهل الشّام والجزيرة، تحقيق سامي الدّهان، دمشـــق 1956، 1: 203- 262، تفصيل ذلك: عبدالقادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990، من 3- 94.

(93) محمد بن أحمد ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1980، 248، 250.

(94) أبو شامة: الروضتين، 2: 59.

(95) الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، 2: 62.

(96) ابن واصل: مفرج الكروب، 2: 84.

(97) زين الدّين أبو حفص عمر بن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، 1970، 2: 175.

(98) ابــن العمــاد الحنبلي: شذارت الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 5: 284.

(99) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه:160- 161.

(100) أبو شامة: الروضتين، 1: 1-111.

(101) نفسه، 1: 14.

(102) نفسه: 1: 11.

(103) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 10.

(104) سعيد عاشور: مصر والشّام في عصر الأيوبيّن والمماليك: 126.

(105) عمــر فــروخ: تــاريخ الأدب العربــي، من مطلع القرن الخامس الهجريّ إلى الفتح العثماني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979،ط2، 1981، 3: 606.

(106) كمال الدين بن العديم: زبدة الحلب، حوادث سنة 629هـ.

(107) أبو شامة: الروضتين، 1: 203.

(108) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي: 75.

(109) عمــر موســى باشــا: الأدب فــي بلاد الشّام عصور الزنكيّن والأيوبيّن والمماليك، 118- 120.

(110) ابن واصل: مفرج الكروب، 1: 281.

(111) الخاتون: وهي ست الشّام الخاتون أخت الملك الناصر صلاح الدين والعادل، وهي ابنة نجم الدين أيوب، وزوجة الملك نور الدين زنكي، ت 60هـ، ابن كثير: البداية والنهاية، 13: 46.

(112) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة: 205.

(113) ابن واصل: مفرج الكروب، 1: 283- 284.

(114) نفسه: 1: 136.

(115) ابــن الأثــير: الكامل، 11: 404- 405، والطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، 2: 62.

(116) أبو شامة: الروضتين، 1: 33.

(117) شــفيق الرقب: بلاد الشام في رحلة ابن جبير، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، مجلد 28، عدد 2، 2001، 346.

(118) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط2، دار نهضة مصر، 21.

(119) الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، 2: 66.

(120) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة، 205- 218.

(121) عبدالقادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 1: 219.

(122) خواجاريحان: وهو جمال الدين ريحان والي القلعة والسجن، وخادم نور الدين ونكي، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة.

(123) ابن شدادّ: النوادر السلطانية، 31.

(124) نفسه: 31.

(125) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8: 33.

(126) نفسه: 8: 33.

(127) موفــق الديــن أبو العباس أحمد الخزرجي ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،(د. ت) 646- 650.

(128) عبدالقادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: 101- 106.

(129) نفسه: 101- 106.

(130) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: 750- 761.

(131) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي: 229- 230.

(132) حلمــي الكيلانــي: الخطــر الصليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد 10، ع2، 1995، 268.

(133) أبو شامة: الروضتين: 1: 2: 584.

(134) صلاح الدين الصفدي: فوات الوفيات 12: 226.

(135) أبو شامة: الروضتين: 2: 33.

(136) محمد سيّد الكيلاني: الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربي في مصر والشّام، دار الفرجاني، القاهرة، ط2، 1984، 69.

(137) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 3: 1333.

(138) الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، 4: 252- 253.

(139) أبــو العــباس أحمــد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م، 1: 90.

(140) العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، بداية قسم شعراء الشام، 11، وابن كثير: البداية والنهاية، 12: 271- 272.

(141) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 6: 2623.

(142) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4: 385- 386، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي:الوافي بالوفيات، اعتناء س. ديدرينغ، من دار النشر فرانز شتاينز بفيسادن، 1970، 4: 176- 388، والذهبي: شذرات الذهب، 4: 252- 253.

(143) ابن الأثير: الكامل، 10: 157، ابن واصل: مفرج الكروب، 12: 283، الذهبي: شذرات الذهب، 4: 22.

(144) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة، 1: 234.

(145) أبو عبدالله أحمد بن محمد بن علي ابن الخياط الدمشقيّ: ديوانه: تحقيق خليل مردم بك، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1985م، 182.

(146) أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي ابن القلانسي: تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1983، 319- 321.

(147) أبو ذر الحلبي: كنوز الذهب في معرفة تاريخ حلب (ميكرو فلم) رقم 35511، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1: 19.

(148) انظر أخباره متفرقة في تاريخ ابن القلانس: 374، 382، 450.

(149) العظيمي: تاريخه وقد نشر تحت عنوان (CHRONIGEUE ABREGEE , D'AL AZIMI CAHEN, 1938, 386 بالعربية تحت عنوان: أي التاريخ المختصر، وقد سماه مختصراً لأن له تاريخاً مطولاً بعنوان " كتاب الموصل على الاصل المؤهل"، 401.

(150) ابن القلانسي: تاريخ دمشق 356- 360.

(151) عادل جابر: شعر ابن القيسراني، الوكالة العربيّة للتوزيع، ط1، 1991، 1987م، 150

(152) أسامه بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فيليب حتّى، مطبعة جامعة برنستون، 1930م، 145.

(153) ابن قسيم الحموي: ديوانه، جمع ودراسة وتحقيق مسعود محمود عبدالجابر، دار البشير، ط1، 1995م، 101.

(154) ابن العديم الحلبي: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، 1968م، 2: 261.

(155) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 206.

(156) ابـــن منير الطرابلسي، جمعة وقدم له عمر التدمريّ، دار الجيل ومكتبة السائح، بيروت وطرابلس، ط1، 1986م، 194.

(157) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 148.

(158) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 195.

(159) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 333.

(160) أبو شامة: الروضتين 1:1: 132، 143.

(161) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 258.

(162) نفسه: 258.

(163) ابن الأثير: الكامل 11: 89.

(164) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ: 154.

(165) أبو شامة: الروضتين 1: 152.

(166) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ: 69.

(167) نفسه: 157.

(168) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 208.

(169) نفسه، 259.

(170) أبو شامة: الروضتين: 1:1: 272.

(171) ابـــن الدّهـــان الحمصي: ديوانه، تحقيق عبدالله الجبوري، مطبعة دار المعارف بغداد، 1968م، 70.

(172) ابـــن الســـاعاتيّ: ديوانـــه: تحقـــيق أنـــيس المقدسي، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1938م، 2: 406.

(173) العماد الأصفهاني: الفيح القسي، في الفتح القدسي، 77.

(174) ابن شداد: النوادر السلطانية: 79- 81.

(175) العمـــاد الأصـــفهاني: ديوانـــه، جمعه وحققه ناظم رشيد، جامعة الموصل، 1983م، 231- 232.

(176) لعل المقصود "يُبْنَى" وهو قرب الرملة، لأن سياق الأحداث يقتضي ذلك، أما "تبنى" فهي مـــن نواحـــي دمشـــق، ولم تكن سنة 583 في دائرة الاحتلال، ياقوت الحموي: معجم البلدان: "تبنى" و "يبنى".

(177) عبدالجليل عبدالمهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار النشر عمان، 1989، 74 وما بعدها.

(178) أبو شامة: الروضتين 2: 118.

(179) نفسه: 2: 106.

(180) العماد الأصفهاني: ديوانه: 75.

(181) العماد الأصفهاني: الفيحّ القسي في الفتح القدسي: 528.

(182) أبو شامة: الروضتين 2: 194.

(183) أحمد بن عقيل الزرعي: المختار من ديوانه، ميكروفلم رقم 2618، مكتبة طبقبو سراى تركيا، 39

(184) ابن الأثير: الكامل 12: 326.

(185) ابن عقيل الزرعي: المختار من ديوانه (ميكروفلم) 24.

(186) ورد في الاصل (ولو)، ولا يستقيم به الوزن.

(187) ابن الأثير: الكامل 12: 483.

(188) عبدالجليل عبدالمهدي: بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، دار النشر عمان، 1989م، 140.

(189) ترجمة في: أبو البركات مبارك بن أبي الشعار الموصليّ: عقود الجمان من شعراءهذا الزمان ميكروفلم، رقم 339 تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة، 4: 136 -137.

(190) عبدالجليل عبدالمهدي: بيت المقدس في شعر الحروب الصّليبيّة: 243.

(191) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 7: 320.

(192) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، 1، قسم 3: 762

(193) محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت، 1973، 1: 151.

(194) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 208.

(195) الروج: قرية غربي حلب، الممقر: المر.

(196) ورد في طبعة الديوان " كالغريف"، ولا وجه له في السياق، وربما كان الصواب ما هو مثبت، وهو بمعنى الشجر المتلف.

(197) ابن قسيم الحموي: ديوانه: 105.

(198) الأنـــواء: جمـــع النّوء، وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع نجم آخـــر يقابله من ساعته في المشرق في كلّ ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً ... وكانت العرب تضيف الأمطار والرّيح إلى الساقط منها. لسان العرب "نوأ" .

(199) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 195.

(200) نفسه: 195.

(201) عادل جابر: شّعر ابن القيسرانيّ: 148- 149.

(202) الألـــدّ: الخصـــم الجدِل الذي لا يزيغ إلى الحقّ، لدادُه: مصدر الفعل لأدَّ، أي شدّد في الخصومة، لسان العرب "لدد".

(203) محمـــود إبراهـــيم: صدى الغزو الصّليبيّ في شعر ابن القيسراني، المكتب الإسلامي ومكتبة الأقصى، عمان ودمسق، 1971، 155،

(204) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 59.

(205) نفسه: 198.

(206) ابن منيرالطرابلسيّ: ديوانه: 241، الإقليد: المفتاح، لسان العرب "قلد".

(207) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 241.

(208) نفسه: 193.

(209) العماد الأصفهاني: ديوانه: 411.

(210) الحرب العوان: الّتي قوتل فيها مرّة بعد مرّة، لسان العرب "عون".

(211) أسامة بن منقذ: ديوانه، تحقيق أحمد أحمد بدوي، عالم الكتب، القاهرة، 89، لمزيد من التفصيل عن شخصيّة نور الدّين زنكي في أدب الحروب الصّليبيّة، انظر: محمود فايز إبراهـــيم الســـرطاوي نور الدّين ونكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصّليبيّة، رسالة ماجستير، الجامعة الاردنية، 1986- 1987م.

(212) ذليق: حادّ: لسان العرب "ذلق".

(213) فتيان الشاغوريّ: ديوانه: 141.

(214) النَّثا: ما أَخْبرْتَ به عن الرجل من حَسَنٍ أو سيئٍ، لسان العرب "نثا".

(215) ابن الدهان الحمصي: ديوانه: 39.

(216) الأَرْي: العسل: لسان العرب "أري".

(217) العماد الأصفهاني: ديوانه: 230.

(218) الحُمس: جمع أحمس: وهو الشّجاع الشّديد، لسان العرب: "حمس".

(219) بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ميكروفلم رقم 334، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة، 135: ق1: 178.

(220) البَتْك: القطع، لسان العرب "بتك".

(221) القُلَّة: قُلة كلّ شئ: قمّته وأعلاه، لسان العرب "قلل" .

(222) أبـــو شـــامة:الرّوضتين: 2: 103، ديوان المبشّرات والقدسيّات، عبدالجليل عبدالمهديّ، عمّان، 1989، 135.

(223) فتـــيان الشّاغوري: ديوانه: 157، ولمزيد من التفصيل عن شخصية صلاح الدين في شعر الحروب الصليبية: محمود إبراهيم: حطّين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها، دار البشير، عمان، 1988، 59، عبدالجليل عبدالمهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، 99- 131.

(224) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 374.

(225) عـــرقلة الكلبـــي: ديوانـــه، تحقـــيق أحمـــد الجـــندي، مجمـــع اللغة العربية، دمشق، 1970م، 26.

(226) أسامة بن منقذ: ديوانه: 170.

(227) العماد الأصفهاني: ديوانه: 170.

(228) راجـــح بن إسماعيل الحليّ: ميكروفلم عن ديوان شعر مخطوط في جامعة برنستون، رقم 32/4/ 43 ، 93.

(229) نفسه: 161.

(230) نـــور الدين الإسعردي: ميكروفلم عن ديوان شعر مخطوط، محفوظ في الأسكوريال، تحت رقم 472، 206.

(231) عادل جابر: شعر ابن القيسراني، 148.

(232) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: : ديوانه، 208.

(233) نفسه، 265، والسَّلام جمع سَلِمة، وهو الحجر، لسان العرب، مادة "سلم".

(234) العمـــاد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1955م، 1: 532.

(235) أسامة بن منقذ: ديوانه: 204.

(236) فتيان الشاغوريّ: ديوانه: 151- 152.

(237) السَّلْم: الإسلام، لسان العرب: مادّة "سلم".

(238) أبو شامة: الرّوضتين، 2: 151.

(239) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 103.

(240) ابن السّاعاتيّ: ديوانه، 2: 385.

(241) نفسه، 2: 410.

(242) محمود إبراهيم: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، 86- 87.

(243) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 359.

(244) أبــو شامة المقدسي: الرَّوضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة، تحقيق محمد حلمــي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1962، 1: 140.

(245) فتيان الشاغوري: ديوانه: 257، ونَمَط نْطاً: زَفَرمِنْ جضهْد، لسان العرب: مادة (نمط).

(246) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 221.

(247) أبو شامة: الرَّوضتين: 2: 12.

(248) العماد الأصفهاني: الخريدة- قسم شعراء الشّام: 1: 532.

(249) نفسه: 1: 277.

(250) العماد الأصفهاني: ديوانه: 75.

(251) العماد الأصفهاني: الخريدة- قسم شعراء الشّام، 48.

(252) نفسه:1: 408.

(253) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 200، والعماد الأصفهاني: ديوانه: 232.

(254) العماد الأصفهاني: ديوانه: 232.

(255) نفسه: 232.

(256) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 200.

(257) العماد الأصفهاني: ديوانه: 232.

(258) أبو شامة: الرّوضتين: 2: 118.

(259) محمود إبراهيم: صدى الغزو الصليبيّ في شعر ابن القيسراني: 140،

(260) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 5: 151- 152.

(261) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 207.

(262) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 200.

(263) الدرين: خطام المرعى القديم اليبس.

(264) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 194.

(265) نفسه، 144.

(266) العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشّام 1: 277.

(267) العماد الأصفهاني: ديوانه: 283.

(268) نفسه: 304.

(269) الاسبتار (Gospitalers): تنظيم صليبي هدف من إنشائه بادئ الأمر إلى تقديم الرعاية للحجاج الفرنجة، ثم صار ذا طابع عسكري، انظر: سعيد عبدالفتاح عاشورالحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، ط2، 1976، 1: 105.

(270) العماد الأصفهاني: ديوانه: 223.

(271) العماد الأصفهاني: الخريدة: بداية قسم شعراء الشام: 86.

(272) العماد الأصفهاني: ديوانه: 229.

(273) الوكس: النقص.

(274) أبو شامة: الرّوضتين 2: 194.

(275) ابن عقيل الزّرعيّ: المختار من ديوانه (ميكروفلم) 38.

(276) ابن حجر العسقلانيّ: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق طه سعد وزميليه، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، 12: 91.

(277) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 228.

(278) ابن السّاعاتيّ: ديوانه 2: 409.

(279) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 32.

(280) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 103.

(281) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 196.

(282) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1: 151.

(283) ابن الخياط الدمشقي: ديوانه: 218.

(284) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 70– 77.

(285) ابن قسيم الحموي: ديوانه: 104.

(286) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 216.

(287) سرا الشيء عنه: نزعه وألقاه.

(288) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 69.

(289) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 375.

(290) ابن قسيم الحموي: ديوانه: 26.

(291) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 258.

(292) نفسه: 249- 263.

(293) نفسه: 235.

(294) أبو شامة: الروضتين 2: 204.

(295) نفسه، 2: 117.

(296) ورد في الاصل (كجبال)، ولا يستقيم به المعنى.

(297) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 148.

(298) ابن الدهان الحمصي: ديوانه: 70.

(299) فتيان الشّاغوري: ديوانه: 140.

(300) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 198.

(301) العمـــاد الأصـــفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، تحقيق محمد بهجـــة الأثري، منشورات وزارة الثقافة والفنون، سلسلة كتب التراث، 1978م، الجزء الثالث، المجلد الثاني، 467.

(302) أسامة بن منقذ: ديوانه: 215.

(303) عرقلة الكلبي: ديوانه: 32.

(304) العماد الأصفهاني: ديوانه: 380.

(305) بدر الدين العينيّ: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (ميكروفلم) 13، 1: 189.

(306) ابن الخياط الدمشقي: ديوانه: 227.

(307) نفسه: 233.

(308) أبو شامة: الرّوضتين: 2، 584، مصر.

(309) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، مؤسسة شومان، ط1، 1987: 2: 71.

(310) المُكـــيَّس: موضـــع فـــي الكـــيس، وهو وعاء معروف يكون للدراهم والدنانير والدرّ والياقوت، لسان العرب "كيس".

(311) يخنُس: ينقبض ويتأخرّ، لسان العرب "خنس".

(312) المخمَّس: الغنيمة تجعل خمسة أجزاء، لسان العرب " خمس".

(313) العماد الأصفهاني: ديوانه: 236، العمرَّس: القويّ الشّديد، لسان العرب"عمرس".

(314) العُضَّة: التي تقتل من ساعتها، لسان العرب "العضه".

(315) العماد الأصفهاني: ديوانه: 447.

(316) تَسنَّه الماء والطعام: تغيَّر وفسد، لسان العرب "سنه".

(317) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 425.

(318) الغويـــر: وهـــو المنخفض من الأرض وهو علم على عدّة مواضع، ياقوت الحموي: معجم البلدان "الغور"،4: 431.

(319) بَهرام: اسم المرّيخ، لسان العرب "بهرم".

(320) فتيان الشّاغوري: ديوانه: 425، الفرائد: الدُرَّ إذا نُظم، لسان العرب "فرو".

(321) فتيان الشّاغوري: ديوانه: 334.

(322) الأكم: جمع أكمه، وهي الموضع يكون أشدّ ارتفاعاً من غيره، لسان العرب، "كوم".

(323) الكلُوم: القطعة العظيمة من الإبل وغيره، لسان العرب، "كوم"، السلاهب: جمع سلهب، وهو الطويل من الخيل، لسان العرب "سلهب".

(324) البُغاث: الضعيف من الطير، لسان العرب "بغث".

(325) ابن السّاعاتيّ: ديوانه:1: 84.

(326) الخيم: الشيمة والطبع والخلق والسَّجية، لسان العرب، "خيم".

(327) روضة مئناف: مُنْبتة لم يَرْعها أحد، لسان العرب "أنف".

(328) شـــرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر ابن عنين، ديوانه، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر– بيروت، ط2، 3.

(329) غَرثان: جائع، لسان العرب، "غرث" .

(330) الشَّرى: موضع تُنسَب إليه الأُسْد، لسان العرب "شرى".

(331) أبو بكر: كنية الملك العادل.

(332) عبدالمـــنعم الجلياني: منادج الممادح وروضةالمأثر والمفاخر، (مخطوطة رقم 3298)، أدب 228، بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق، 53.

(333) الطّعن الشّزر: ما كان عن يمين وشمال، لسان العرب "شزر".

(334) ابن الخياط الدمشقي: ديوانه: 254.

(335) المتمطّق: الذي يتذوّق، بلسانه، فيسمع له صوت، لسان العرب، "مطق".

(336) الأبلق: هو حصن السّموأل بن عادياء اليهودي، المعروف بالأبلق الغرو، معجم البلدان "الأبلق".

(337) هــو الوزير كمال الدين أمين الملك أبو علي طاهر بن سعد بن علي المزدقاني، وزير تاج الملوك بوري، وقد قتله سنة 522هــ، ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، 353.

(338) ابن الخياط: ديوانه: 271.

(339) الخدين: الصّديق، لسان العرب "خدن".

(340) تُحبا: تُكرم، لسان العرب "حبا".

(341) عادل جابر: شعر ابن القيسراني، 174.

(342) نفسه: 175.

(343) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 268.

(344) وسبب ذلك أنّ حسّاده سَعَوا فيه عند قطب الدين مودود، حتّى أزغروا ره عليه، وقالوا: إنّــه يــأخذ الأموال ويتصرّف بها، فقبض عليه سنة 558هــ، ومات في السّجن سنة 559هــ، ابن خلكان: وفيات الأعيان، 5: 143- 149.

(345) العماد الأصفهاني: الخريدة قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، بدمشق، 1959، 2: 372.

(346) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 52.

(347) البَأو: العظَمة، لسان العرب" بَأي".

(348) الصَّيْلم: السَّيف، لسان العرب "صلم".

(349) السَّحيل: الحبل الذي على قوّة واحدة، لسان العرب "سحل" المبْرَم: الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلاً حبلاً واحد، لسان العرب "برم".

(350) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 469.

(351) نفسه، 24.

(352) هــو القاضــي نجم الدين أبو علي الحسن بن علي الشهرزوريّ، ولي قضاء الموصل وديــار بني ربيعة، توفي سنة 557هــ، ابن خلكان: وفيات الأعيان،4: 241، صادق جودة: القضاة الشّهرزريّون، دار البشير ودار عمار، عمان، 1986، 25- 37.

(353) الحديــث المــتواتر: هو كلّ حديث رواه جمع من الصحابة، ورواه عنهم جماعة من التابعين، ورواه عن التابعين عدد من تابعيهم، وهكذا إلى نهاية السّند، وكلّ جماعة من هؤلاء بلغت في الكثرة مبلغاً يؤمن معها اتفاقها على الكذب وهو يفيد العلم اليقيني، أما حديــث الآحاد فما رواه عدد لا يبلغ في الكثرة عدد المتواتر، وهو ظني الثبون، محمد أديب الصالح، لمحات في أصول الحديث، بيروت، 1399هــ، ط3، 88.

(354) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 226.

(355) نفسه: 143.

(356) الإصاخة: الإستماع والإنصات، لسان العرب "صيخ".

(357) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 2: 128.

(358) سَمْكُ البناء: سَقْفُه، لسان العرب "سمك".

(359) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 574.

(360) هــو صائن الدين أبو الحسين هبة الدين بن الحسن الدمشقي الشافعي، أخو الحافظ علي بــن عساكر، توفي سنة 563هــ، شمس الدين أبي المظفر الشهير بسبط ابن الجوزي مرآة الزمان في تاريخ الأعيان وقائع سنة 455- 589هــ، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الركن الهند، 1951، القسم الأول من الجزء الثاني، 273

(361) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 325،

(362) الصَّــحيح: الأرض الجرداء، لسان العرب "صحح" الدَّكداك: ما التبد من الرَّمل بعضه فوق بعض، لسان العرب "دكك".

(363) هــو القاسم ابن الحافظ أبي القاسم على بن الحسن بن عساكر، ولد سنة 527هــ، كان محدّثاً فهماً، توفي سنة 600هــ، الذهبي: العِبَر في خبر من غبر 4: 314.

(364) فتيان الشّاغوريّ: ديوان: 505.

(365) المثالث والمثاني: من أوتار العود، المعجم الوسيط "ثنى".

(366) ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 657.

(367) المِدْره: السيّد الشريف، لسان العرب "دره".

(368) لبَّ: صبار ذا لُبّ، لسان العرب "لبب".

(369) هــو عز الدين أبو الحسن علي بن مالك بن المسيب العقيليّ، صاحب قلعة جعبر، مات قتلاً سنة 546هــ، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 490.

(370) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ: 96.

(371) آل مسَّــيب: هم قوم الممدوح، وعن نسبهم، انظر: ابن حزم الأندلسيّ، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، 2: 288.

(372) لــم أعــثر له على ترجمة، ولا على تعريف بقبيلته، وقد ذكر الذهبي أحد رجال هذه القبيلة، وقال: إنه كان من المتأخرين بحلب، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المشتبه

فـــي الـــرجال: أســـمائهم وأنســـابهم، تحقيق على البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962، 1: 108.

(373) الفراش: عظام الحاجب، لسان العرب "فرش".

(374) فتيان الشّاغوري: ديوانه 512، الهنيدة: اسم للمائة من الإبل، لسان العرب "هند".

(375) عـــبدالعزيز محمـــد شرف الدين الأنصاري: ديوانه: تحقيق عمر موسى باشا، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1967، 293.

(376) ابن خلكان: وفيات الأعيان 3: 34.

(377) ابن جبير: رحلة ابن جبير، 259.

(378) محمَّد سيّد كيلاني، الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربي، 35.

(379) شمس الدين بن العفيف التلمساني: ديوانه، تحققيق صلاح الدين الهواري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995م، 72- 73.

(380) يوســـف بـــن إســـماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، دار الفكر، 3: 302.

(381) علي بن محمد السخاوي، ديوان القصائد السبع، ميكروفلم عن ديوانه المخطوط، جوتيه رقم 7752، 75.

(382) محمـــد بـــن ســـوار بن إسرائيل الدمشقي، ديوانه، ميكروفلم عن مخطوط الاسكوريال بأسبانيا، رقم 437، 149.

(383) إبراهيم بسيوني، نشأة التصوّف الإسلاميّ، دار المعارف، القاهرة، ت، 186.

(384) شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، أهنى المنائح في أسنى المدائح، مطبعة جريدة الشورى، مصر، 1334، 14.

(385) كمال الدين عمر بن أبي جرادة ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دمشق 1988، 5: 2393- 2400.

(386) ابن الساعاتيّ: ديوانه: 1، 47.

(387) شهاب الدين محمود الحلبيّ، أهنى المنائح، 9.

(388) نفسه، 118.

(389) نفسه: 103- 104.

(390) نفسه، 69.

(391) نفسه: 27- 123.

(392) نفسه: 121.

(393) أبـــو البركات مبارك بن أحمد بن حمدان ابن الشعار الموصلي، قلائد الجمان في فرائد شـــعراء هذا الزمان، يصدره فؤاد سزكين، منشورات معهد العلوم العربية والإسلامية، طـــبع بالتصـــوير عـــن مخطوطـــة 2326، مجموعة أسعد أفندي، المكتبة السليمانية، استنابول، 10: 161.

(394) عليّ بن محمّد السخاويّ، ديوانه القصائد السّبع، ميكروفم عن ديوانه المخطوط، 70.

(395) نفسه: 73.

(396) يوسف بن إسماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية، 3: 44- 45.

(397) شهاب الدين محمود الحلبيّ: أهنى المنائح، 35.

(398) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 5: 2393- 2400.

(399) محمـــد بن قانوصه بن صادق: مراتع الألباب في مرابع الآداب، ميكروفلم، رقم 662، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، 71.

(400) عفيف الدين التلمساني، ديوانه، مخطوط، 74.

(401) ابـــن الشـــعار الموصلي: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (مخطوط)، 10: 160- 161.

(402) الكُسْوة: من قرى دمشق، معجم البلدان "الكسوة".

(403) ابن الشعّار الموصلي: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، (مخطوط) 10: 177 - 178.

(404) عفيف الدين التلمساني: ديوانه: 56.

(405) الملك الناصر داود الأيوبي: ديوانه، تحقيق جودة أمين، القاهرة، 1990، 65.

(406) نفسه: 65.

(407) علي بن محمد السخاوي، ديوان القصائد السبع، (مخطوط)، 71.

(408) أحمـــد فـــوزي: الحـــركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986م، 207.

(409) شفيق الرقب: الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجري، 249.

(410) أبـــي الغـــنائم مسلم بن محمود الشيرزي: جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، معهد، تاريخ العلوم العربية الإسلامية، جامعة فرانكفورت، 2: 108.

(411) أسامة بن منقذ: ديوانه: 175.

(412) نفسه: 175- 176.

(413) نفسه: 176.

(414) نفسه: 177.

(415) الشنآنُ: البغض، والشَّنَفُ: البغض والتنكر.

(416) أسامة بن منقذ: ديوانه: 176.

(417) نفسه: 176.

(418) نفسه: 178.

(419) محنقُ: الغيظ.

(420) أسامة بن منقذ: ديوانه: 199.

(421) تجرَّم: تم واكتمل.

(422) العماد الأصفهاني: الخريدة- قسم شعراء الشام، 2: 216.

(423) نفسه: 2: 216.

(424) القاضـــي الأعـــز أبو البركات بن أبي جرادة، كان أميناً على خزانة الملك العادل نور الديـــن زنكـــي، توفي سنة 555هـــ، العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشام، 2: 219- 220.

(425) العماد الأصفهاني: الخريدة- قسم شعراء الشام، 2: 219- 220.

(426) مِذْنَب: مسيل الماء والجدول إذا لم يكن واسعاً.

(427) العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشام، 2: 207.

(428) نفسه: 2: 340- 342.

(429) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 1: 228.

(430) العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشام، 2: 379- 381.

(431) وهـــو أبـــو المجـــد سليمان بن القاضي أبو اليسر شالكر المعري التنوخي، كان والده منشـــيء الملك العادل نور الدين زنكي، ولد سنة 500 هـــ، انظر: العماد الأصفهاني، الخريدة – قسم شعراء الشام، 2: 38.

(432) العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشام، 2: 38.

(433) ابن عنين: ديوانه: 105.

(434) نفسه: 120-121.

(435) نفسه: 106-107.

(436) ابن أبي عصرون: وهو أشرف الدين أبو سعد بن عبدالله بن محمد بن أبي عصرون، تولى قاضي القضاة بدمشق وجميع الممالك الملكية الناصرية بالشّام سنة 572هـ، بعد وفاة كمال الدين الشهرزوري، العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم الشام، 2: 352

(437) العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشام، 2: 352.

(438) نفسه، 2: 353.

(439) نفسه: 2: 353.

(440) شمس الدين أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء حققه شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرموشي، مؤسسة الرسالة، ط1، 20،1985: 561.

(441) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 234.

(442) عبدالمنعم الجلياني: منادح الممادح (ميكروفلم): 42.

(443) راجح الحليّ: أخباره في ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 5: 123.

(444) عز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سامي الدّهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1956، 2: 359.

(445) عرقلة الكلبي: ديوانه: 68.

(446) نور الدين الإسعردي: (ميكروفلم): 80.

(447) ابن عقيل الزرعيّ: (ميكروفلم): 105.

(448) محمدّ بن مكرّم ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق إبراهيم صالح، دار الفكر، ط1، 1988، 23: 191.

(449) العماد الأصفهاني: الخريدة بداية قسم شعراء الشام: 31.

(450) ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه عبدالقادر بدران، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط3، 1987، 1: 258.

(451) محمد بن سوار بن إسرائيل: (ميكروفلم) :10.

(452) العماد الأصفهاني: خريدة القصر، بداية قسم شعراء الشّام 17، حسن محمد عبدالهادي دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمان، 1997، 146.

(453) حسن محمد عبدالهادي: دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب، 146.

(454) ابن منير الطرابسيّ: ديوانه: 195.

(455) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 7: 317.

(456) ابن شاكر الكبتي: فوات الوفيات 1: 410.

(457) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ: 148.

(458) نفسه: 69.

(459) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 2: 406.

(460) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 141.

(461) ابن عنين: ديوانه: 29.

(462) نور الدين الإسعردي: ديوانه: 75.

(463) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، 2: 15.

(464) ضـــياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، د. ت، 3: 96- 97.

(465) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 195.

(466) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 195.

(467) أحمـــد بـــن إبراهـــيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة، بغداد، 1978، 216.

(468) شـــفيق الرقـــب: الرشيد النابلسي حياته وشعره، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد 12، ع2، 1997، 456.

(469) نفسه: 456.

(470) عبدالجليل عبدالمهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبّية: 252.

(471) حـــازم القرطاجنّـــي: مـــنهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، 288.

(472) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 141.

(473) نفسه: 142.

(474) يوسف بن إسماعيل النبهاني، المجموعة النبهانية 2: 380.

(475) ابن حجه الحموي: خزانة الأدب، 11.

(476) شرف الدين الأنصاري: ديوانه: 147- 149.

(477) علي بن محمد السخاوي: ديوان القصائد السبع (ميكروفلم)، 147.

(478) يوسف بن إسماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية، 3: 41.

(479) المحافيل: ذكر النعام، الأراجيل: الرجال.

(480) يوسف بن إسماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية 1: 412.

(481) علي بن محمد السخاوي: ديوان القصائد السبع (ميكروفلم)، 70.

(482) شهاب الدين محمود الحلبي: أهنى المنائح: 53.

(483) أيمن فرحان العمايرة: المدائح النبويّة عند شهاب الدين محمود الحلبي، دراسة موضوعية وفنيّة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، 1999، 118.

(484) شهاب الدين محمود الحلبيّ: أهنى المنائح: 54.

(485) أيمن العمايرة، المدائح النبويّة عند شهاب الدين الحلبي: 119- 120.

(486) شهاب الدين محمدود الحلبيّ: أهنى المدائح: 56- 57.

(487) أبو الشّعار الموصلي، عقود الجمان من شعراء هذا الزّمان، 5: 750 85.

(488) ابن عقيل الزرعيّ المختار من ديوانه، 40، انظر: شفيق الرقب، ابن عقيل الزرعي حياته وشعره، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنيّ، العدد 53، السنة الحادية والعشرون، 1997، 113.

(489) ابن عنين، ديوانه، 3.

(490) الرّقْشَ: تبليغ النميمة والتّزوير في الكلام، لسان العرب "ارقش".

(491) الأعِقَّة: جَمْع عقيق، وهو كلُّ ما شقّه ماءُ السّيل في الأرض فَأنْهرَهُ ووسّعَه، لسان العرب "عقق" عالج: رَملة في جزيرة العرب بين فيد والقُرِيَّات على طريق مكّة بها بَرِك إذ سالت الأودية امتلأت، معجم البلدان "عالج" كاظمة: على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة. "كاظمة"، ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4: 431، وادي القرى: واد من أعمال المدينة، من ناحية الشّام، كثير القرى، معجم البلدان " وادي القرى".

(492) الأذْفَر: طيّب الرّيح، لسان العرب "ذفر".

(493) الملك الناصر داود الأيوبيّ: ديوانه: 83.

(494) شرف الدين الأنصاري: ديوانه: 213.

(495) شهاب الدين التلّعفريّ: ديوانه، تحقيق هنرييت سابا، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1976م، 150.

(496) ابن الشّعار الموصلي: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، (مخطوط)، 6: 176

(497) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 2: 385.

(498) ابن الخياط الدمشقيّ: ديوانه: 184.

(499) محمـــد زغلول سلام: تاريخ النقد العربيّ من القرن الخامس إلى القرن السّابع الهجري، القاهرة، د.ت. 313.

(500) منه نسخة مخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق تحت رقم 3298 أدب 228.

(501) جليانه: وهي حصن بالأندلس، ياقوت الجموي، معجم البلدان، 2: 157.

(502) عبدالمنعم الجلياني، منادح الممادح: ميكروفلم، 146.

(503) شفيق الرقب: الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجريّ، 354- 355.

(504) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ، 69.

(505) نفسه: 71- 72.

(506) أبـــو الثـــناء محمـــود بن سلمان بن فهد الدمشقي، شهاب الّدين محمود الحلبيّ: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، القاهرة، المطبعة الوهبية، 1298هـــ، 198.

(507) شهاب الدّين محمود الحلبيّ: أهنى المنائح، 87.

(508) نفسه: 29.

(509) ابن عقيل الزرعيّ: المختار من ديوانه (ميكروفلم): 77.

(510) حسن محمد عبدالهادي، دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب 133.

(511) ابن عقيل الزرعي: المختار من ديوانه (ميكروفلم): 5.

(512) الحنبليّ: شفاء القلوب: 166.

(513) أبـــو تمام: شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ط 1، 1992، 1: 35.

(514) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 2: 406.

(515) عبدالجليل عبدالمهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، 287.

(516) أبو تمام: ديوانه: 36.

(517) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 66.

(518) جرير: ديوانه، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد، القاهرة 1969، 1: 89.

(519) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه 34.

(520) أسامة بن منقذ: ديوانه: 168.

(521) أبو فراس الحمداني: ديوانه، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، 1983، 62

(522) شهاب الدّين محمود الحلبي: أهنى المنائح، 53.

(523) قـيس بن الملوح: ديوانه، تحقيق رحاب عكاوي، دارا الفكر العربي، بيروت، 1991، 234.

(524) ابن الدّهان الحمصيّ: ديوانه: 70.

(525) أبـو الطيب المتنبي: العرف الطيّب بشرح ديوان أبي الطيب، للشيخ ناصيف اليازجي، 1: 319.

(526) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 71.

(527) أبو الطيب المتنبي: العرف الطيب بشرح ديوان أبي الطيب، 1: 322.

(528) تفصـيل ذلك في: شفيق محمد الرقب؛ الاستدعاء القرآني والشعري، في ديوان فتيان الشّاغوريّ، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد 18، ع 24، 2003، 45-47.

(529) إحسان عباس: فن الشّعر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط4، 1987م، 230.

(530) ابن الخياط الدمشقي: ديوانه: 227.

(531) فتيان الشّاغوري: ديوانه: 434.

(532) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ: 47.

(533) حسن محمد عبدالهادي: دراسة شعر تاج الملوك بوري، 123.

(534) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 26، 29، 30، 33، 39، 116، 168.

(535) العماد الأصفهاني: ديوانه: 195.

(536) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 31، 120.

(537) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 151.

(538) نفسه: 180.

(539) ابن منير الطرابلسيّ: ديوانه: 210.

بين الجبـال خواضعـاً أعناقها كالذّود نابت عن براه حداثه

نشرت على حلب عقود بنودهم حُلل الربيع تناسقتْ زهراته

(540) عبدالمنعم الجلياني: منادح الممادح، ميكروفلم، 531.

(541) ابن الخياط الدمشقي: ديوانه: 254.

(542) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 157- 158.

(543) نفسه: 91.

(544) نفسه: 16.

(545) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 2: 281.

(546) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات 7: 149.

(547) شرف الدين الأنصاري: ديوانه: 559.

(548) يوسف بن إسماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية 3: 44.

(549) ابن السّاعاتيّ: ديوانه 1: 49.

(550) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات 4: 200.

(551) يوسف بن إسماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية 2: 19.

(552) شرف الدين الأنصاري: ديوانه: 323 و 327 و 394.

(553) ابن الشعار الموصلي: قلائد الجمان، في فرائد شعراء هذا الزمان (مخطوط)، 7: 336

(554) شهاب العزازي: ديوانه: 4.

(555) عرقلة الكلبي: ديوانه: 6.

(556) العماد الأصفهاني: ديوانه: 164.

(557) عادل جابر: شعر ابن القيسّرانيّ: 409.

(558) نفسه: 402.

(559) نفسه: 151.

(560) نفسه: 165.

(561) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 1: 49.

(562) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير: 1: 259.

(563) ابن السّاعاتي: ديوانه: 1: 49.

(564) حسن محمد عبدالهادي: دراسة شعر تاج الملوك بوري: 148.

(565) العماد الأصفهاني: ديوانه: 179.

(566) نفسه: ديوانه: 234.

(567) حسن محمد عبدالهادي: دراسة شعر تاج الملوك بوري: 216.

(568) عادل جابر: شعر ابن القيسرانيّ: 60 و 199.

(569) نفسه: 399.

(570) نفسه: 175.

(571) فتيان الشّاغوريّ: ديوانه: 108.

(572) يوسف بن إسماعيل النبهاني: المجموعة النبهانية: 3: 137.

(573) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق: 1: 259.

(574) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 234.

(575) العماد الأصفهاني: الخريدة – بداية قسم شعراء الشام: 23.

(576) نفسه: 26.

(577) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 235.

(578) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق: 1: 259.

(579) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 235.

(580) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 9: 4097.

(581) ابن عنين: ديوانه: 15.

(582) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشّام والجزيرة، 347.

(583) عرقله الكلبي: ديوانه: 33.

(584) أسامة بن منقذ: ديوانه: 276.

(585) عرقلة الكلبي: ديوانه: 3.

(586) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 60.

(587) ابن السّاعاتي: ديوانه: 1: 126.

(588) فتيان الشّاغوري: ديوانه: 176.

(589) نفسه: 188.

(590) عبدالقادر الرباعي: الصورة الفنية في شعر أبي تمام، نشر بدعم من جامعة اليرموك، أربد، الأردن، 1980م، 181.

(591) العماد الأصفهاني: الخريدة – قسم شعراء الشّام: 2: 222.

(592) ابن السّاعاتيّ: ديوانه: 1: 131.

(593) ابن الدّهان الحمصي: ديوانه: 236–237.

(594) شفيق الرقب: الشعر العربي في بلاد الشّام في القرن السادس الهجري: 321.

(595) ابن عنين: ديوانه: 6.

(596) عبدالمنعم الجلياني: منادح الممادح، ميكروفلم: 53.

(597) فتيان الشاغوريّ: ديوانه: 430.

(598) ابن منير الطرابلسي: ديوانه: 210– 211.

(599) العماد الأصفهاني: الخريدة: 86.

(600) عادل جابر: شعر ابن القيسّراني: 195.

(601) العماد الأصفهاني: الخريدة- قسم شعراء الشام، 1: 466.

(602) العماد الأصفهاني: ديوانه: 12.

(603) عادل جابر: شعر ابن القيسراني: 73- 74.

(604) ابـــن الشـــعار الموصلي: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان (مخطوط): 10: 177- 178.

المـــراجـــع

أبـــو الطيـــب المتنبي، أحمد ابن الحسين، (د.ت)، **العرف الطيب بشرح ديوان أبي الطيب**، د.ط، للشيخ ناصف اليازجي، دار القلم، بيروت.

أبـــو تمام، حبيب بن أوس الطائي، (1992م)، **شرح ديوان أبي تمام**، ط 1، الخطيب التـــبريزي، قـــدم له ووضـــع حواشيه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، دمشق.

أبـــو شـــامة المقدســـي، شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل، (د.ت)، **الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصّلاحيّة**، د.ط، الكتاب كاملاً، دار الجيل، بيروت.

أبـــو شـــامة المقدســـي، شهاب الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن إسماعيل، (1962م)، **الروضـــتين فـــي أخبار الدولتين النوريّة والصّلاحيّة**، تحقيق محمد حلمي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

أبـــو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، (1983م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان.

أسامة بن منقذ، ابن المظفر بن علي بن مقلد، (1930م)، **الاعتبار**، د.ط، تحقيق فيليب حتيّ، مطبعة جامعة برنستون.

أســـامة بـــن منقذ، ابن المظفر بن علي بن مقلد، (د.ت)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق أحمد أحمد بدوي، عالم الكتب، القاهرة.

الإســـعردي، نـــور الدين، (د.ت)، **ميكروفلم عن ديوان شعر مخطوط**، محفوظ في الأسكوريال، أسبانيا، تحت رقم 472.

الأيوبي، الملك الناصر داود، (1990م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق جودة أمين، دار المعارف، القاهرة.

ابـــن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد الخزرجي، ت 668هـــ، (1965م)، **عـــيون الإنباء في طبقات الأطباء**، د.ط، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

ابـــن إسرائيل الدمشقي، محمد بن سوار، (د.ت)، **ديوانه**، ميكرفلم، عن ديوان شعر مخطوط، الأسكوريال، بأسبانيا رقم 437.

ابـــن الأثـــير، ضياء الدين أبو الفتح نصرالله بن محمد بن عبدالكريم، (د.ت)، **المثل الســـائر في أدب الكاتب والشاعر**، د.ط، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانه، مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الجزري، (د.ت)، **الكامل في التاريخ**، د.ط، دار صادر، بيروت.

ابـــن الخياط الدمشقيّ، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن علي، (1985م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق خليل مردم بك، المجمع العلمي العربي، دمشق.

ابـــن الدّهان الحمصي، أبو الفرج عبدالله بن أسعد، **ديوانه**، تحقيق عبدالله الجبوري، مطبعة دار المعارف، بغداد.

ابن الساعاتي، بهاء الدين أبي الحسن علي بن رستم، (1938م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق أنيس المقدسي، المطبعة الأمريكانية، بيروت.

ابـــن الشّـــعّار، أبو البركات المبارك بن أحمد بن حمدان الموصليّ، (د. ت)، **عقود الجمـــان مـــن شّـــعراء هذا الزمان**، ميكروفلم رقم 339 تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربيّة، القاهرة.

ابـــن الشّـــعّار، أبو البركات المبارك بن أحمد بن حمدان الموصليّ، (د. ت)، **قلائد الجمان في فرائد شّعراء هذا الزمان**، يصدره فؤاد سزكين، منشورات معهد العلـــوم العربـــيّة والإســـلامية، طـــبع بالتصوير عن مخطوطة رقم 2326 مجموعة أسعد أفندي، مكتبة السلمانية، استانبول.

ابن العديم الحلبي، عمر بن أبي جرادة، (1988م)، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، د.ط، تحقيق سهيل زكار، دمشق.

ابـــن العديـــم الحلبـــيّ، كمال الدين عمر بن أحمد، (1968م)، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، د.ط، تحقيق سامي الدّهان، المعهد الفرنسيّ، دمشق.

ابـــن العمـــاد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي، (د. ت)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، د. ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابـــن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد، (1908م)، **ذيل تاريخ دمشق**، د.ط، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين.

ابـــن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد، (1983م)، **تاريخ دمشق**، د.ط، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق.

ابن الورديّ، زين الدّين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد، ت، 749هـــ، (1970م)، **تـــتمة المختصـــر فـــي أخـــبار البشر**، د.ط، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت.

ابـــن تغـــري بردي، جمال الدين يوسف بن سيف الدين الأتابكي، (1985م)، **تراجم آقطـــوه بـــن عـــبدالله الأشـــرفي**، د.ط، بيمند الفرنجي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابـــن تغـــري بـــردي، جمال الدين يوسف بن سيف الدين الأتابكي، (د.ت)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، طبعة دار الكتب ووزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، (1980م)، **رحلة ابن جبير**، د.ط، دار صادر، بيروت.

ابـــن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي ت 852هـــ، (د.ت)، **خزانة الأدب**، د.ط، بيروت، دار القاموس الحديث.

ابـــن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، (1978م)، **فتح الباري بشـــرح صـــحيح الـــبخاري**، د.ط، تحقـــيق طه سعد وزميله، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

ابـــن حـــزم الأندلســـي، (د. ت)، **جمهـــرة أنساب العرب**، د. ط، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة.

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد،(د.ت)، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، د.ط، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابـــن شـــاكر الكتبـــيّ، محمد بن أحمد، (د.ت)، **فوات الوفيات والذيل عليها**، د.ط، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابن شداد، بهاء الدين أبو العز يوسف بن رافع بن عتاب الأسدي ت 632هـ،(1964م)، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، د.ط، تحقيق جمال الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

ابن شداد، عز الدين أبو محمد بن علي، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (1956م)، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق سامي الدّهّان، المعهد العربي، دمشق.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، (1987م)، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، ط2، هذبه ورتبه عبدالقادر بدران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

ابن عقيل الزرعي، أحمد العامري، (د.ت)، **المختار من ديوانه**، ميكروفلم رقم 2618، طبقبو سراي تركيا.

ابن عنين، شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر، (د.ت)، **ديوانه**، ط2، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت.

ابن قسيم الحموي، (1995م)، **ديوانه**، ط1، جمع ودراسة وتحقيق مسعود محمود عبدالجابر، دار البشير، عمان.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، (1987م)، **البداية والنهاية**، ط 3، دقق أصوله وحققه، أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر وعلي عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم، (1988م)، **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، ط1، تحقيق إبراهيم صالح، دار الفكر، عمان.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله، (1935م)، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، د.ط، تحقيق جمال الدين الشيال، إحياء التراث القديم، وزارة المعارف المصرية، إدارة الثقافة العامة مطبعة جامعة فؤاد الأول.

باشا، عمر موسى، (د.ت)، **الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، د.ط، دار الفكر، عمان.

بدوي، أحمد، (د.ت)، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبيّة بمصر والشام**، ط2 ، دار النهضة مصر، القاهرة.

بسيوني، إبراهيم (1969)، **نشأة التصوف الإسلامي**، د.ط، دار المعارف، القاهرة.

التلمساني، شمس الدين بن العفيف، (1995م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق صلاح الدين الهواري، دار الكتاب العربي، بيروت.

جرير، (1969م)، **ديوانه**، د.ط، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد، دار المعارف، القاهرة.

الجليانيّ، عبدالمنعم، (د.ت)، **منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك النّاصر**، مخطوط رقم 3298 أدب، مكتبة الأسد الوطنية، دمشق.

حازم القرطاجنيّ، (1966م)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، د.ط، تحقيق الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

الحلي، راجح بن إسماعيل، (د.ت)، **مكيروفلم عن ديوان شعر مخطوط**، محفوظ في جامعة برنستون رقم 43/4/32.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، (1978م)، **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، د.ط، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة ، بغداد.

الذهبي، شمس الدين أحمد،(1985م)، **سير أعلام النبلاء**، ط1، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوس، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (1962م)، **المشتبهة في الرجال: أسمائهم وأنسابهم**، د.ط، تحقيق علي البجاوي دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

الذهبي، محمد بن أحمد شمس الدين، (د.ت)، **العبر في خبر من غبر**، د.ط، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الرباعي، عبدالقادر، (1980م)، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، د.ط، نشر بدعم من جامعة اليرموك، أربد، الأردن.

الرقب، شفيق محمد، (1993م)، **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، د.ط، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان.

الرقب، شفيق محمد، (1997م)، ابن عقيل الزرعي حياته وشعره، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد 53، السنة الحادية والعشرون، ص 113.

الرقب، شفيق محمد، (2001)، بلاد الشام في رحلة ابن جبير، **مجلة دراسات**، الجامعة الأردنية، مجلد 28، ع2، ص2001 و 346.

الرقب، شفيق محمد، (2003م)، الاستدعاء القرآني والشعري في ديوان فتيان الشّاغوريّ، **مؤتة للبحوث والدراسات**، المجلد 18، ع2، ص45-47.

الرقب، شفيق محمد،(1997م)، الرشيد النابلسي حياته وشعره، **مؤتة للبحوث والدراسات**، مجلد 12، ع2، ص456.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوفلي ت 654هـ، (1951م)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، وقائع سنة 455- 589هـ، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الركن، الهند.

السخاوي، علي بن محمد، (د.ت)، **ديوان القصائد السبع**، ميكروفلم، عن ديوان شعر مخطوط، جوته، ألمانيا، رقم 7752.

السرطاوي، محمود فايز، (1986- 1987م)، **نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبيّة**، د. ط رسالة ماجستير منشورة، الجامعة الأردنية.

سلام، محمد زغلول، (د.ت)، **الأدب في العصر الأيوبي**، د. ط، دار المعارف، القاهرة.

سلام، محمد زغلول،(د.ت)، **تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري**، د. ط، دار المعارف، القاهرة.

شرف الدين الأنصاري، عبدالعزيز، (1967م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق عمر موسى باشا، المجمع العلمي، دمشق.

شهاب الدين التلعفريّ، (1976م)، **ديوانه**، تحقيق هنرييت سابا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة.

شهاب الدين محمود الحلبي، أبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد الدمشقي، (1298 هـ)، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، د.ط، القاهرة، المطبعة الوهبية.

شـــهاب الدين محمود الحلبي، أبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد الدمشقي، (1334 هـــ)، **أهنى المنائح في أسنى المدائح**، مطبعة جريدة الشورى، مصر.

الشيّزريّ، أبي الغنائم مسلم بن محمود، (د.ت)، **جمهرة الإسلام ذات النثّر والنَّظام**، مـــيكروفلم رقـــم 9223 أدب، معهـــد العلـــوم العربـــية الإسلامية، جامعة فرانكفورت.

صـــادق جـــودة، (1986م)، **القضـــاة الشهرزوريّون**، د.ط، دار البشير ودار عمار، عمان.

صلاح الدين الصفدي، خليل بن أيبك، (1970م)، **الوافي بالوفيات**، د.ط، اعتناء س. ديدرينغ، من دار النشر فرانز شتاينز، بقيسادن.

الطـــباخ الحلبـــي، محمـــد راغـــب، (1923م- 1988م)، **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، ط1- ط2، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي بحلب.

الطرابلســـي، أحمـــد بـــن إبراهـــيم، (د.ت)، **كنوز الذهب في معرفة تاريخ حلب**، ميكروفلم رقم 35511، دار الكتب المصرية، القاهرة.

عـــادل جابر، (1991م)، **شعر ابن القيسراني**، ط1، الوكالة العربيّة للتوزيع، الأردن، الزرقاء.

عاشـــور، ســـعيد عبدالفـــتاح، (1976م)، **الحركة الصليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**، ط2، مكتبة الأنجلو المصريّة.

عاشـــور، ســـعيد عبدالفـــتاح، (د.ت)، **مصـــر والشـــام في عصر الأيوبيين والمماليك**، د.ط، دار النهضة العربيّة، القاهرة.

عباس، إحسان، (1987م)، **فن الشعر**، ط 4، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.

عبدالجلـــيل عبدالمهدي، (1989م)، **بيـــت المقدس في شعر الحروب الصليبيّة**، د.ط، دار النشر، عمان.

عبدالجليل عبدالمهدي،(1989م)، **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة**، د.ط، دار النشر، عمان.

عبدالهادي، حسن محمد، (1997م)، **دراسة شعر تاج الملوك بوري بن أيوب**، د.ط، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمان.

عــرقلة الكلبي، حسان بن نمير، (486- 567) (1970م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق.

العمــاد الأصفهاني، (1989م)، **ديوان المبشّرات والقدسيّات**، د.ط، تحقيق عبدالجليل عبدالمهدي، دار النشر، عمان.

العمــاد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بم محمد بن حامد بن علي، (1983م)، **ديوانه**، د.ط، جمعه وحققه ناظم رشيد، جامعة الموصل، العراق.

العمــاد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن علي، (1968م)، **خريدة القصــر وجــريدة العصــر**. بداية قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، بدمشق.

العمــاد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن علي، (1959م)، **خريدة القصــر وجريدة العصر قسم شعراء الشام**، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق.

العمــاد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن علي، (1978م)، **خريدة القصــر وجــريدة العصر قسم شعراء العراق**، تحقيق محمد بهجة الأثريّ، منشورات وزارة الثقافة والفنون، سلسلة كتب التراث، العراق

العمــاد الأصــفهاني، أبــو عــبدالله محمد بن محمد بن حامد بن علي ت 597هــ، (1965م) **الفيح القسي في الفتح القدسي**، د. ط، محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

العمــاد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن علي، (1987م)، **البرق الشامي**، ط1، مؤسسة شومان، عمان.

العمايرة، أيمن فرحان، (1999م)، **المدائح النبويّة عند شهاب الدين محمود الحلبي**، دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة.

العينيّ، بدر الدّين محمود بن أحمد بن موسى، (د. ت)، **عقــد الجمان في تاريخ أهل الــزّمان**، مــيكروفلم رقــم 334 تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربيّة، القاهرة.

فتـــيان الشّـــاغوريّ، (د.ت)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

فـــروخ، عمر، (د.ت)، **تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني**، د.ط، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.

القلقشـــندي، أحمـــد بن علي شهاب الدين أبي العباس، (1963م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، د.ط، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

قيس بن الملوح، (1991م)، **ديوانه**، د.ط، تحقيق رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت.

كحالـــة، عمر رضا، (1993م)، **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربيّة**، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الكيلانـــي، حلمـــي، (1995م)، الخطـــر الصـــليبي أبعاده ومقاومته من خلال شعر معاصريه، **مؤتة للبحوث والدراسات**، مجلد10، عدد2، ص 268.

الكيلانـــي، محمـــد سيد، (1984م)، **الحروب الصليبيّة وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام**، ط2، دار الفرجاني، القاهرة.

محمد أديب الصالح، (1399هـــ)، **لمحات في أصول الحديث**، ط3، بيروت.

محمد بن علي بن محمد، (1938)، **تاريخ العظيمي**، بعنوان:
LACHRONIQUE ABRE GEE D'AL – AZIMI, C. CAHEN.

محمـــد بـــن قانصوه بن صادق، **مراتع الألباب في مرابع الآداب**، (د.ت)، ميكروفلم رقم 662، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

محمـــود إبراهـــيم، (1971م)، **صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني**، د.ط، المكتب الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان، دمشق.

محمود إبراهيم، (1988م)، **حطيـــن بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها**، د.ط، دار النشر، عمان.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (1939م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ط2، علق عليه محمد مصطفى زياده، دار الكتب المصرية، القاهرة.

النبهانـــي، يوسف إسماعيل، (د.ت)، **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية**، د.ط، دار الفكر، عمان.

النعيمي، عبدالقادر،(1990م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، ط1، تحقيق شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الهيـــب، أحمد فوزي، (1986م)، **الحركة الشعريّة زمن المماليك في حلب الشهباء**، د.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله، (1979م)، **معجم البلدان**، د.ط، دار صادر، بيروت.